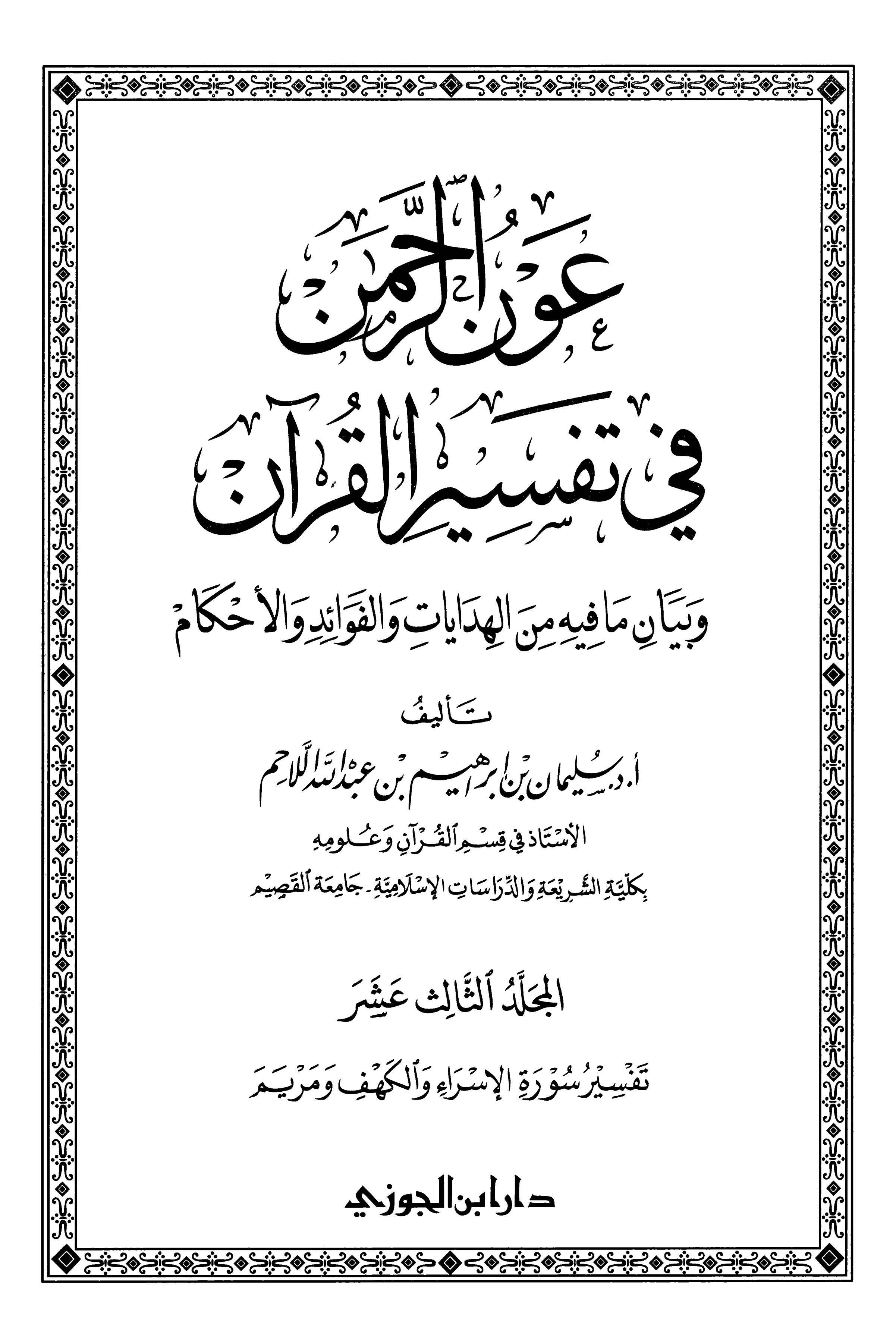


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبدالله اللاحم

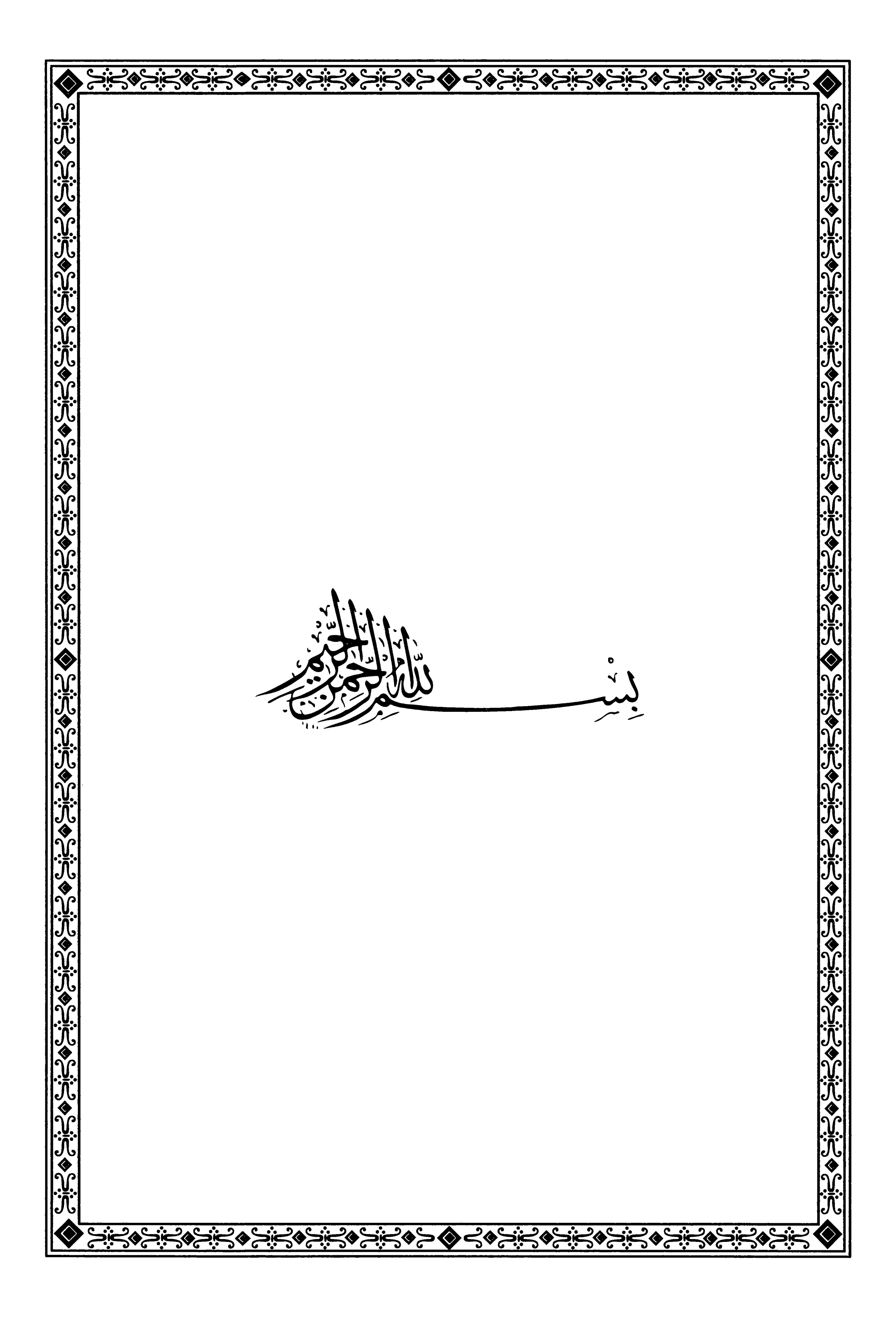
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

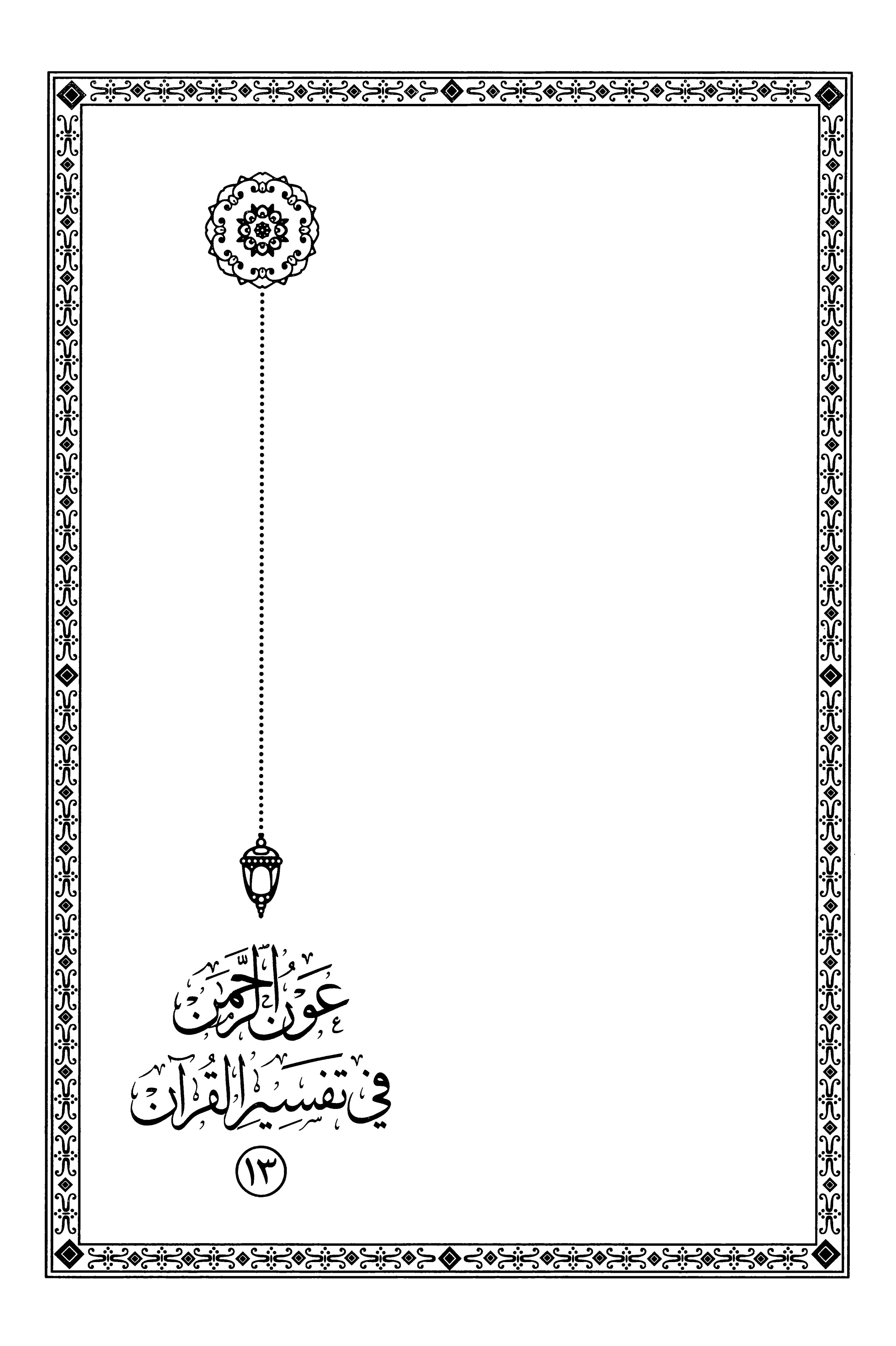
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثالث عشر

تفسير سورة الإسراء والكهف ومريم

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
١٣



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

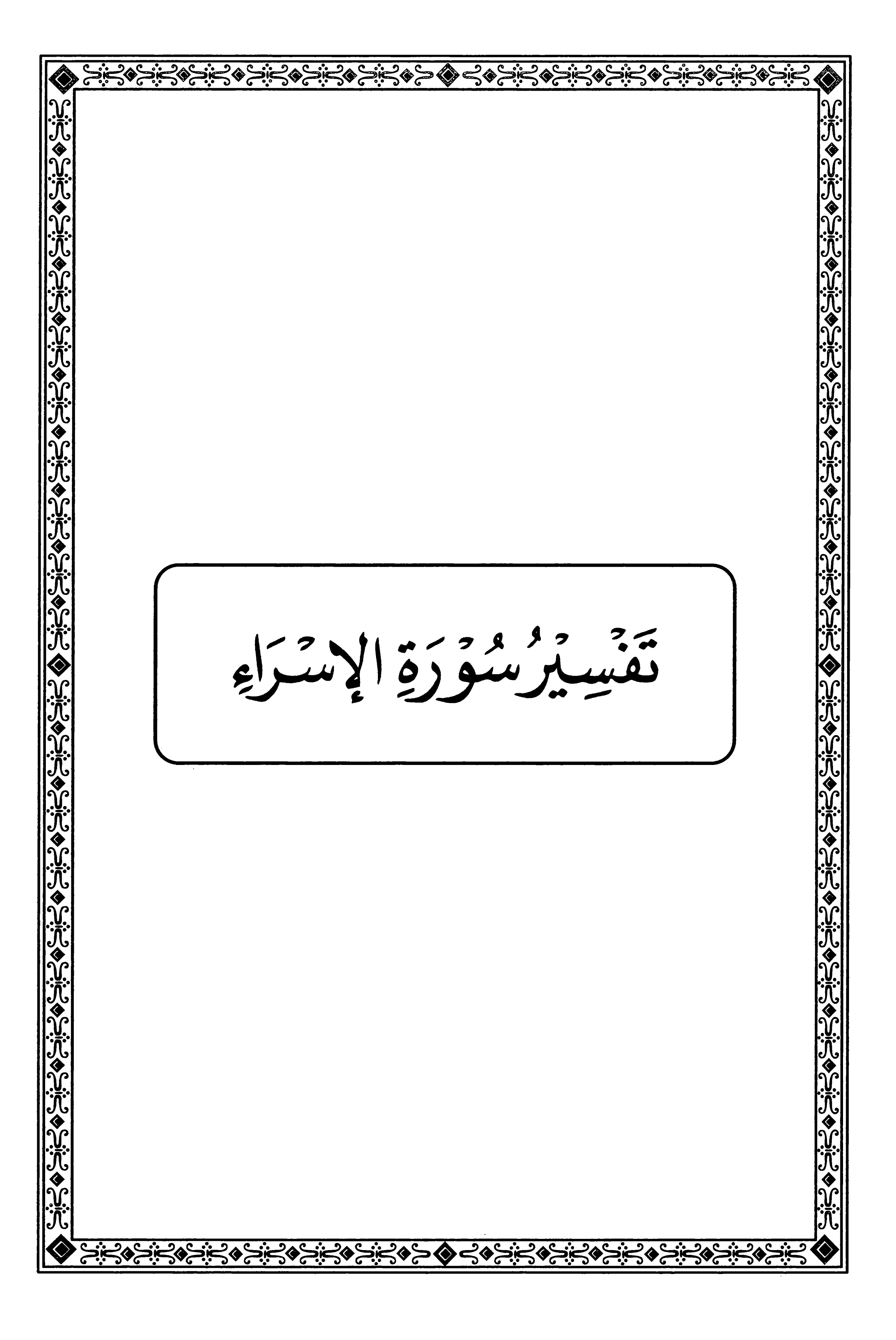
مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

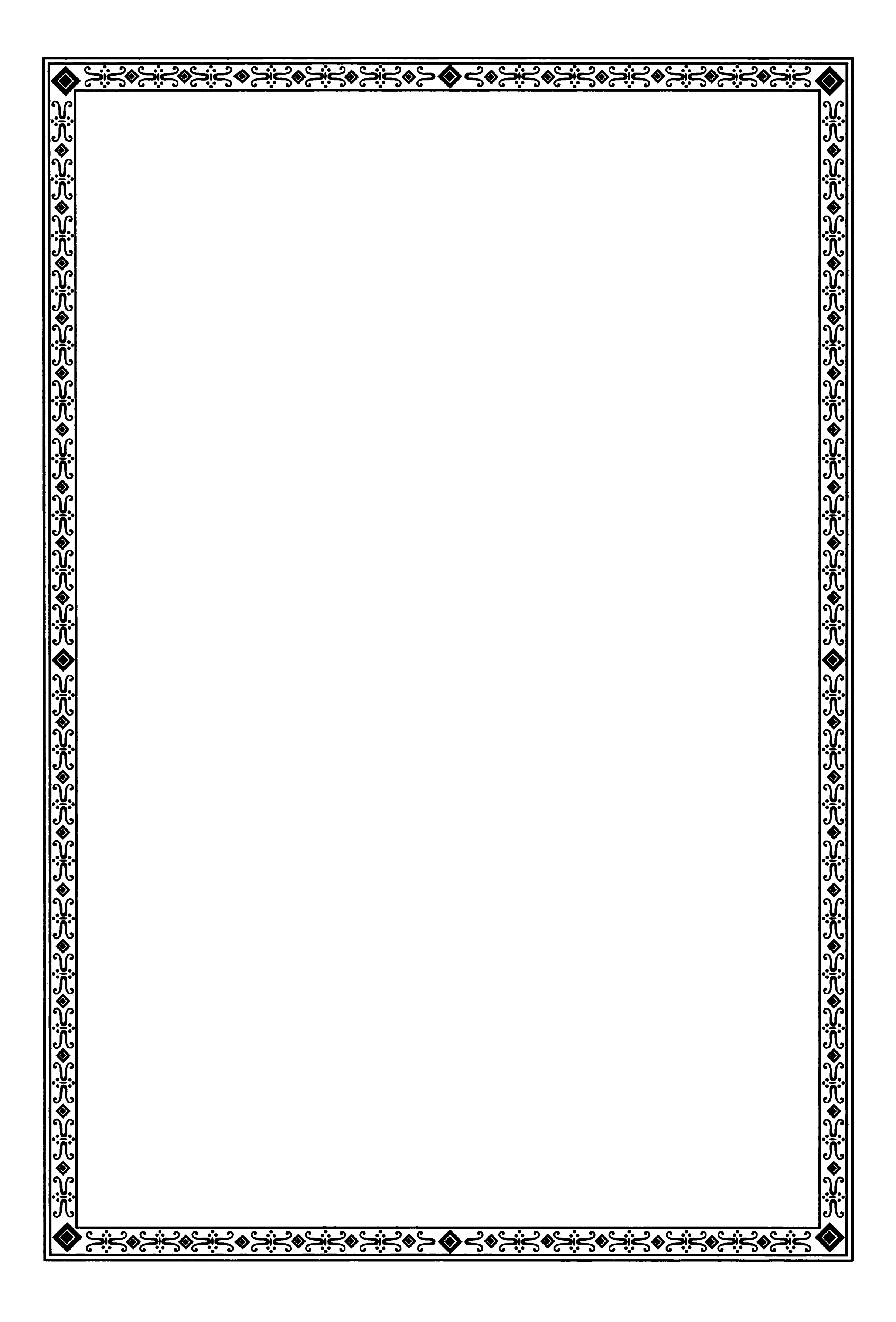
ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم .- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٨٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِسْرَاءِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الإسراء» بهذا الاسم؛ لذكر قصة الإسراء فيها في قوله- تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة بني إسرائيل»، كما تسمى: «سورة سبحان».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أنه قال: «في بني إسرائيل، والكهف، ومريم: إنهن من العتاق الأُول، وهن من تلادي[(١)]»[(٢)].

أي: أنهن السور التي أنزلت أولاً بمكة.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بني إسرائيل» و«الزمر»»[(٣)].

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله- عز وجل- سورة الإسراء بتعظيم وتنزيه نفسه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الآية: ١].

٢- إثبات نبوة موسى- عليه السلام- وإيتائه الكتاب: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٢- ٣].

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» مادة: «ت ل د»: «أي: من أول ما أخذته وتعلمته بمكة، والتالد: المال القديم، الذي ولد عندك، وهو نقيض: "الطارف"».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل (٤٧٠٨)، وفي تفسير سورة الأنبياء (٤٧٣٩)، وفي فضائل القرآن (٤٩٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٩).

٣- ذكر ما قضاه الله تعالى على بني إسرائيل من الإفساد في الأرض مرتين والعلو فيها والتجبر: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الآيات: ٤- ٨].

٤- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآيتان: ٩، ١٠].

٥- بيان طبيعة الإنسان وعجلته ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر كدعائه بالخير: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الآية: ١١].

٦- امتنان الله- عز وجل- بجعل الليل والنهار آيتين ومحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الآية: ١٢].

٧- بيان أن لكل إنسان عمله وجزاءه، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضل فضلاله على نفسه ولا تحمل نفس ذنب غيرها، ولابد من إقامة الحجة ببعث الرسل قبل التعذيب: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الآيات: ١٣- ١٥].

٨- بيان أن آثار الترف والفسق والدمار والهلاك، وبيان نفوذ إرادة الله تعالى الكونية في إهلاك القرى المكذبة، وارتباط المسببات بأسبابها، وأنه- عز وجل- لا يعاقب إلا بذنب: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الآيتان: ١٦، ١٧].

٩- بيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين مريد الدنيا ومريد الآخرة الساعي لها وهو

مؤمن، فالأول له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، والثاني سعيه مشكور ومجازى عليه بأعظم الجزاء، ولكل منهما في الدنيا ما قدر له منها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الآيات: ١٨- ٢١].

١٠- النهي عن الشرك، وبيان أن عاقبته الخذلان، والأمر بعبادة الله تعالى وحده: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الآيتان: ٢٢، ٢٣].

١١- الأمر بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما، وخاصة عند بلوغهما الكبر، والتواضع لهما والرحمة بهما، والدعاء لهما: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الآيات: ٢٣- ٢٥].

١٢- الأمر بإيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والنهي عن التبذير والبخل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الآيات: ٢٦- ٣٠].

١٣- النهي عن عدد من الكبائر والموبقات التي كانت تفعل في الجاهلية، وغير ذلك من الأخلاق السيئة. والأمر بالوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والوزن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا

بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الآيات: ٣١- ٣٩].

١٤- تأكيد النهي عن الشرك والوعيد لمن أشرك بالله، وتقريع من قالوا الملائكة بنات الله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ [الآيتان: ٣٩، ٤٠].

١٥- بيان عدم انتفاع المشركين المكذبين بالقرآن، ودحض قولهم بوجود آلهة مع الله، وتنزيه نفسه- عز وجل- عما يقولون، وبيان تسبيح السموات السبع والأرض ومن فيهن، وكل شيء له- سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الآيات: ٤١- ٤٤].

١٦- الحيلولة بين المشركين والمكذبين وبين القرآن وسماعه بالحجاب والأكنة على قلوبهم أن يفقهوه، والوقر في آذانهم ونفورهم من ذكر الله بالقرآن وحده، ورميهم له ﷺ بالسحر: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الآيات: ٤٥- ٤٨].

١٧- إنكارهم البعث وزعمهم عدم إمكانية ذلك، والرد عليهم، وبيان تمام قدرته- عز وجل- على ذلك- كما فطرهم أول مرة، وقرب ذلك: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ

عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآيات: ٤٩- ٥٢].

١٨- إرشاد المؤمنين وتوجيههم أن يقولوا التي هي أحسن، والحذر من نزغات الشيطان بينهم: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الآية: ٥٣].

١٩- بيان علمه- عز وجل- التام بالعباد، ونفوذ مشيئته فيهم إن يشأ يرحمهم وإن يشأن يعذبهم، وبيان سعة علمه لمن في السموات والأرض وتفضيل بعض النبيين على بعض وإيتاء داود ذبوراً: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الآيتان: ٥٤، ٥٥].

٢٠- توبيخ المشركين وتقريعهم وتحديهم بأن يدعوا شركاءهم لكشف الضر عنهم أو تحويله، فلا يملكون ذلك، بل إن هؤلاء المعبودين يبتغون الوسيلة إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذابه كان محذوراً، فكيف يطلب منهم ما هم بحاجة إليه.

٢١- الوعيد للمكذبين وبيان أخذه عز وجل للقرى المكذبة وإهلاكها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الآية: ٥٨].

٢٢- بيان أن السبب في عدم إرسال الآيات التي يقترحها المكذبون للرسول ﷺ: تكذيب الأولين بالآيات التي اقترحوها بعد أن جاءتهم، كما آتى- عز وجل- ثمود الناقة آية مبصرة ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الآية: ٥٩].

٢٣- بيان إحاطته- عز وجل- بالناس، وعصمته ﷺ منهم، وجعله ما أراه ليلة أسري به امتحاناً ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٦٠].

٢٤- التذكير بأمره- عز وجل- للملائكة بالسجود لآدم وسجودهم إلا إبليس، وتكبره وحسده لآدم، وتوعده بإهلاك ذريته بجعلهم يتبعونه، واستفزازهم بصوته والإجلاب عليهم بخيله ورجله ومشاركتهم في الأموال والأولاد، ووعدهم.

واستثناء الله- عز وجل- عباده ببيان أنه ليس له عليهم سلطان: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الآيات: ٦٢- ٦٥].

٢٥- بيان نعمته- عز وجل- على العباد بإزجاء الفلك في البحر ليبتغوا من فضله رحمة بهم.

٢٦- بيان تذبذب المشركين فإذا أصابهم الضر في البحر أخلصوا الدعاء لله، فإذا نجاهم إلى البر أعرضوا وكفروا، وتهديدهم بأن لا يأمنوا أن يخسف الله بهم جانب البر أو يرسل عليهم حاصباً ثم لا يجدوا لهم وكيلاً، أو يعيدهم في البحر تارة أخرى فيغرقهم بما كفروا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ [الآيات: ٦٧- ٦٩].

٢٧- تكريمه- عز وجل- لبني آدم، وإنعامه عليهم بحملهم في البر والبحر، ورزقه إياهم من الطيبات، وتفضيلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الآية: ٧٠].

٢٨- دعاء كل أناس بإمامهم يوم القيامة لأخذ كتب أعمالهم: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآيتان: ٧١، ٧٢].

٢٩- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بحفظه له ﷺ عن فتنة المكذبين له عن الذي أوحاه الله إليه، وتثبيته له في عدم الركون إليهم: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

[الآيات: ٧٣- ٧٧].

٣٠- أمره ﷺ بإقامة الصلوات في أوقاتها، والقيام من الليل، ودعاء الله أن يدخله مدخل صدق، وأن يخرجه مخرج صدق، ويجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً: ﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الآيات: ٧٨- ٨١].

٣١- بيان أن القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الآية: ٨٢].

٣٢- بيان أن الإنسان- إلا من عصم الله- إذا أنعم الله عليه أعرض وكفر النعمة، وإذا أصابه الشر قنط ويأس من الخير: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الآيتان: ٨٣، ٨٤].

٣٣- ذكر سؤال اليهود له ﷺ عن الروح، وأمر الله تعالى له أن يبين لهم أنها من أمر الله، ويبين لهم قلة علمهم: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآية: ٨٥].

٣٤- بيان نعمته- عز وجل- وفضله على النبي ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن، وأنه لو شاء لذهب به: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الآيتان: ٨٦- ٨٧].

٣٥- بيان شرف القرآن وإعجازه، وعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الآية: ٨٨].

٣٦- إقامة الحجة على الناس بالتصريف لهم في القرآن من كل مثل، وإباء كثير منهم إلا الكفر، وشدة تعنتهم وعنادهم بمطالبتهم له ﷺ بما ليس بمقدوره: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الآيات: ٩٠- ٩٣].

٣٧- بيان أنه ما منع الناس من الإيمان وتصديق الرسل إلا قولهم: كيف يكون رسول من البشر؛ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الآيات: ٩٤- ٩٦].

٣٨- من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الآية: ٩٧].

٣٩- أن الكفر بآيات الله وإنكار البعث موجب لعذاب الله- تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الآيتان: ٩٨- ٩٩].

٤٠- التنبيه على كرمه- عز وجل- وعظيم فضله على العباد، وواسع رحمته وجوده: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الآية: ١٠٠].

٤١- التأكيد على رسالة موسى- عليه السلام- وإيتائه تسع آيات بينات، وذكر تكذيب فرعون له ورميه له بالسحر، وإغراقه ومن معه، وتوريث الأرض لبني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الآيات: ١٠١- ١٠٤].

٤٢- إثبات إنزال القرآن الكريم بالحق، ونزوله بالحق، وبيان أن مهمته ﷺ البشارة والإنذار وقراءة القرآن على الناس على مكث وتبليغه إياهم: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ

نَزَّلَ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ [الآيتان: ١٠٥، ١٠٦].

٤٣- تأكيد أن القرآن الكريم حق سواء آمن به المشركون أو لم يؤمنوا: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩﴾ [الآيات: ١٠٧- ١٠٩].

٤٤- الرد على المشركين في إنكارهم اسم «الرحمن» وبيان جواز دعائه عز وجل بأي اسم من أسمائه، وأمره ﷺ بالتوسط في قراءته بين الجهر والمخافتة: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الآية: ١١٠].

٤٥- وكما افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى وتعظيمه اختتمت بالثناء عليه وحمده على غناه عن الولد والشريك والولي، وتكبيره وتعظيمه: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الآية: ١١١].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾.

قوله: ﴿سُبْحَانَ﴾ مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف، أي تنزيهًا وتعجيبًا من قدرته، وتمجيدًا لنفسه عز وجل، وتعظيمًا لشأنه.

﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ أسرى وسرى بمعنى: سار في الليل.

﴿بِعَبْدِهِ﴾ الباء للمصاحبة، أي: بعبده محمد ﷺ، بروحه وجسده، يقظةً لا منامًا، وأضافه عز وجل إليه في قوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ تشريفًا وتكريمًا له ﷺ.

وفي قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ دون: «بعث بعبده»، أو «أرسل بعبده».

وقوله: ﴿أَسْرَى﴾ دون «سرى»؛ ما يفيد مصاحبته له ومعيته له بمسراه، بعنايته به، وحفظه وتوفيقه له، إضافة لما في ﴿أَسْرَى﴾ بصيغة المبالغة من إفادة السرعة.

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «**اللهم أنت الصاحب في السفر**»[(١)]»[(٢)].

وذكر عز وجل نبيه ﷺ ووصفه بصفة العبودية؛ لأن أكمل الخلق أكملهم عبودية لله عز وجل، وأعظمهم افتقارًا إلى ربه؛ لأن العبودية أشرف وصف يوصف به البشر، من الرسل والأنبياء وغيرهم؛ ولهذا قال ﷺ في دعاء المكروب: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»[(٣)].

وكان ﷺ يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- استحباب الذكر إذا ركب دابة السفر ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر بدائع التفسير ٣/ ٧١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٤٥، من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ولهذا ذكر الله عز وجل نبيه ﷺ بوصف العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، فقال في هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية.

وفي مقام الدعاء والعبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي مقام التحدي، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿لَيْلًا﴾ تأكيد لقوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾؛ لأن السُّرى خاص بالليل.

ونُكِّر ﴿لَيْلًا﴾ للتعظيم، وفيه دلالة على أن الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن ثم رجوعه، كان في ليلة واحدة، بل في جزء من ليلة.

وفيه إيماءٌ إلى أن قطع هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت القصير خارق للعادة.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: من مسجد مكة أول بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

بناه إبراهيم الخليل عليه السلام.

و﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ في الأصل مكان السجود.

والحرام والمحرّم: الممنوع، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**»(١).

وظاهر الآية أن الإسراء به ﷺ كان من نفس المسجد الحرام، وعليه يدل حديث أنس بن مالك بن صعصعة، عن رجل من قومه، عن النبي ﷺ: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلًا يقول: أحد الثلاثة. فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا...» الحديث(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦.

لكن جاء في حديث أم هانئ رضي الله عنها في مسرى النبي ﷺ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبّنا رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: «**يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين**»(١).

قال السعدي(٢) بعد ما أشار إلى ما ثبت في حديث أم هانئ: «فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم».

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس، الكائن بـ«إيلياء» الذي بناه نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام.

وقوله: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾، أي: الأبعد، أي: الأبعد عن مكة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام.

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام**». قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»(٣).

و﴿ٱلْأَقْصَا﴾ صيغة تفضيل، وقد يكون في وصفه بهذا الوصف إيماءٌ إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم، هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه.

وعلى هذا تكون الآية تشير إلى جميع المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على جميع المساجد، كما جاء في قوله ﷺ: «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٤/ ٤١٤، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٢.

(٢) في تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٦٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢٠، والنسائي في المساجد ٦٩٠، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٩٧، وأبو داود في المناسك ٢٠٣٣، والنسائي

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ «البركة» كثرة الخير والفضل في الدنيا والآخرة.

أي: الذي باركنا حوله ببركات دينية، فجعلنا تلك الأرض المقدسة محل بعثة كثير من الأنبياء عليهم السلام، ومستقرهم وقبلتهم من لدن إبراهيم عليه السلام، ومسرى خاتم النبيين ومعراجه إلى السموات العلى.

كما باركنا حوله ببركات دنيوية، بكثرة الأنهار والأشجار، والخصب والنماء في الحروث والزروع والغروس والثمار، ووفرة المعايش والأقوات.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ اللام: للتعليل، والضمير الهاء في ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ يرجع إليه ﷺ، أي: لأجل أن نريه من آياتنا العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: ١٨]؛ تثبيتًا له ودلالةً على صدقه.

ومن ذلك ما رآه في طريقه إلى بيت المقدس، وبعد وصوله إليه من العجائب والعبر، ومن وصف المسجد الأقصى وغير ذلك، وفي هذا تأكيد على أن الإسراء كان بروحه وجسده، ويقظةً لا منامًا.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ فيه التفات من التكلم إلى الغيبة، كما في أول الآية؛ لتنبيه القارئ والسامع، و«إن» وضمير الفصل «هو» للتأكيد.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو السمع الواسع الذي وسع جميع الأصوات، السميع لدعاء عباده، ولما يقوله المشركون المكذبون لمسرى رسول الله ﷺ، ولغير ذلك.

﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: ذو البصر التام بعباده، والاطلاع الواسع على أحوالهم، فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته، حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء**

في المساجد ٧٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤٠٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحّبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل

وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف على أمتي. فحطّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى ﷺ، فقلت: حط عني خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث، أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ. فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح».

قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة.

قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى، فقال: مرحبًا بالنبي

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ ١٦٢.

الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى، فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم ﷺ».

قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام.

قال ابن حزم، وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: **«ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق. فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لديّ. فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ ليلة أسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن. قال جبريل: **«الحمد لله الذي هداك إلى الفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك»**[2].

قال ابن كثير[3] بعد أن ذكر أحاديث الإسراء: «فصل: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، كيف فرضت الصلوات الخمس ٣٤٩، ومسلم في الإيمان- قوله ﷺ: «نور أنّى أراه» ١٦٣، ورواه أحمد ٥/ ١٤٣- ١٤٤ من حديث أنس رضي الله عنه عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٠٩، ومسلم في الأشربة ١٦٨، والنسائي في الأشربة ٥٦٥٧.

(٣) في تفسيره ٥/ ٣٩.

السلام، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة، فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب».

وقال أيضًا[1]: «وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء، ومرة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر به النبي ﷺ أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرار».

الفوائد والأحكام:

١- تنزيه الله عز وجل وتمجيده لنفسه وتعظيمه لشأنه وتعجيبه من تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية. وفي ذلك تنبيه لعباده للتأمل في ذلك، وتعليم لهم أن يسبحوه.

٢- أن لله عز وجل الثناء على نفسه، والتعجيب من قدرته، وتنزيه نفسه؛ لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد، ذو القدرة التامة، المُنزَّه عن كل عيب ونقص، له المثل الأعلى في السموات والأرض، والكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، والعزة والكبرياء، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «العزة إزاري، والكبرياء ردائي»[2].

وهذا بخلاف المخلوق، فليس له مدح نفسه، والثناء عليها، وتزكيتها؛ لأنه محل الضعف والنقص والعيب.

٣- إثبات الإسراء برسول الله ﷺ، وأنه بروحه وجسده، يقظة لا منامًا، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

قال ابن كثير[3]: «قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه، فأفاد وأجاد، ثم

---

(١) في ٥/ ٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٤٢.

قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، وذكر نحو خمسة وعشرين رووه من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ثم قال: منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترضت فيه الزنادقة الملحدون: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ۝٨﴾ [الصف: ٨] ».

وقد قيل: إن الإسراء كان بروحه فقط، وأنه كان منامًا. وهذا خلاف ما دلّت عليه الآيات والأحاديث الصحيحة في الإسراء.

قال الطبري[١]: بعدما ذكر الروايات في القولين: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أسري بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلًا على نبوته، ولا حجة على رسالته».

وقال ابن كثير[٢]: «والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا منامًا، من مكة إلى بيت المقدس، راكبًا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أُتي المعراج، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع».

وقال أيضًا: «ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظمًا، ولما بادرت قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان أسلم، وأيضًا فإن «العبد» عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَىٰ

(١) في جامع البيان ١٤/ ٤٤٦.
(٢) في تفسيره ٥/ ٤٠- ٤١.

بِعَبۡدِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

قال ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ»، رواه البخاري في تفسير سورة الإسراء. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح؛ وأيضا فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وأن يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج حركتها إلى مركب تركب عليه».

كما اختلفوا متى كان الإسراء، والأشهر أنه كان قبل الهجرة بسنة فأكثر، ولا يعلم في أي شهر كان، ولا في أي يوم كان.

٤- تشريف الله عز وجل وتكريمه له ﷺ بإضافته إليه، ووصفه له بعبوديته الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾.

٥- أن أشرف وصف يوصف به البشر هو كمال العبودية لله عز وجل؛ ولهذا وصف نبيه ﷺ بذلك في أعلى المقامات: مقام الإسراء، فقال: ﴿ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ولم يقل: برسوله، كما وصفه به في مقام الدعاء والعبادة، وفي مقام التحدي.

٦- أن الإسراء كان ليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾، فالإسراء إنما يكون بالليل، وأكد ذلك بقوله: ﴿لَيۡلٗا﴾.

٧- أن الإسراء به ﷺ كان من المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وظاهر الآية أنه من المسجد نفسه، ويدل على هذا قوله ﷺ في حديث أنس بن مالك بن صعصعة: «بينا أنا عند البيت»[1].

ويحتمل أن يكون المراد بـ«المسجد الحرام»: الحرم كله، ويدل على هذا قول أم هانئ: «ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي»[1].

وقوله ﷺ في حديث أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما: **«فرج سقف بيتي وأنا بمكة»**[1].

٨- عظم مكانة المسجد الأقصى، ومباركة الله تعالى حوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- أن الله عز وجل يضع البركة حيث شاء، وأن بعض البقاع أبرك من بعض.

١٠- أن الحكمة في الإسراء به ﷺ أن يريه الله عز وجل من آياته الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

١١- إثبات اسم «السميع» لله عز وجل وصفة السمع الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٢- إثبات اسم «البصير» لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو البصر والاطلاع التام على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾.

١٣- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، وهو أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين ذكر التوراة والقرآن، وبين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: الكتاب «التوراة».

﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: هاديًا لبني إسرائيل، يهتدون به إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣﴾ [السجدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾ [غافر: ٥٣ - ٥٤].

وفرقانًا يفرقون به بين الحق والباطل، وضياءً وموعظةً وذكرًا للمتقين، وبصائر للناس، وهدًى ورحمةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: ٤٨]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ

أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣].

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ قرأ أبو عمرو بالغيبة: «ألا يتخذوا»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾، أي: لئلا تتخذوا، أو قلنا لهم: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾، أي: لئلا تجعلوا غيري معبودًا تعبدونه، وتفوضون إليه أموركم من دوني.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، «ذرية» منصوب على النداء، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، وفي هذا تذكير لهم بهذه المنة العظيمة، أي: يا سلالة من حملنا مع نوح في السفينة وأنجيناهم من الطوفان والغرق، وفيه تحريض لهم على التشبه بأسلافهم بشكر الله وعبادته وحده، والتوكل عليه دون غيره.

والناس بعد الطوفان كلهم من ذرية من أنجى الله مع نوح في السفينة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ استئناف بياني، فيه معنى التعليل لإنجائه عليه السلام، وهو أنه كان عبدًا شكورًا لربه عز وجل، معترفًا بنعمه، مُثنيًا بها عليه، مستعملًا لها في مرضاته، حامدًا لربه على كل حال وفي كل حين، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس يوم القيامة... » الحديث، وفيه: «فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك»[(١)].

ولهذا أنجاه الله ومن معه، وفي هذا ترغيب بالشكر اقتداءً به عليه السلام.

وفيه تعريض بأن هلاك من هلك منهم وإغراقهم بسبب كفرهم، وتحذير للمشركين أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك الكافرين، كما قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾، أي: وحكمنا على بني إسرائيل حكمًا كونيًا في اللوح المحفوظ، وأخبرناهم بذلك في الكتاب الذي أنزلناه عليهم، وهو التوراة، وعدّى الفعل «قضينا» بـ«إلى»؛ لتضمنه معنى أوحينا وأبلغنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦].

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، اللام لام القسم، لقسم مُقدر، أي: والله لتفسدن، وقد أكد هذا القضاء باللام، والقسم المقدر، ونون التوكيد، والإفساد ضد الإصلاح، أي: لتفسدن في الأرض بالكفر والشرك والمعاصي التي بها هلاك البلاد والعباد، والمراد بالأرض أرض فلسطين بيت المقدس.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾، أي: إفسادتين.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ معطوف على: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾. و﴿عُلُوًّا﴾ مفعول مطلق، ﴿كَبِيرًا﴾ صفة له، أي: علوًا في العصيان والطغيان، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣١]، أي: ولتعلن علوًا عظيمًا بالإفساد في الأرض بالكفر، والمعاصي، والطغيان، وقتل الأنبياء والعلماء، وكفران النعم، والتكبر على الناس والتجبر عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾، أي: فإذا جاء وعد أولى الإفسادتين، أي: إذا وقعت منكم أولى الإفسادتين. و﴿وَعۡدُ﴾ مصدر بمعنى «موعود».

﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: أرسلنا وسلَّطنا عليكم تسليطًا كونيًّا جزائيًّا.

﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، أي: جندًا من عامة عبادنا وجندنا؛ لأن المراد بالعبودية هنا العبودية العامة.

﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، أي: ذوي قوة، وأصحاب شجاعة وعدد وعدة.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أي: فانتصروا عليكم، وملكوا بلادكم، وطافوا. ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أي: وسط دياركم، ذهابًا ومجيئًا لا يخافون أحدًا، ودخلوا مسجد بيت المقدس وأفسدوه.

﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾، أي: وعدًا مقضيًّا نافذًا واقعًا لا محالة.

وقد اتفق المفسرون على أن هؤلاء المسلطين قوم كفار، سلطهم الله على بني إسرائيل لما طغوا وبغوا وتجبروا في الأرض، وأفسدوا فيها بالكفر والمعاصي، وبطروا نعم الله، وفي الأثر: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد اختلف في تعيين هؤلاء المسلطين؛ فقيل: هم من أهل العراق، وقيل: من الجزيرة، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي والزمني معًا، أي: ثم أرجعنا لكم الدولة والغلبة والظهور عليهم، و﴿ٱلۡكَرَّةَ﴾: الرجعة.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾، أي: أعطيناكم وزودناكم بأموال كثيرة وبنين كثيرين.

﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾، أي: وصيرناكم أكثر نفرًا وعددًا ممن تسلطوا عليكم، وهذا من أسباب القوة والعزة، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقد قيل في المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة». وقال الشاعر:

ولستُ بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر[1]

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾ بالإيمان بالله وعبادته وحده والإخلاص له، والإحسان إلى خلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾، أي: فنفْع إحسانكم لأنفسكم، أي: عائد إلى أنفسكم.

﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾ بالكفر والمعاصي والتمرد على أحكام الله، والتكبر على عباد الله وأذيتهم.

﴿فَلَهَاۚ﴾، أي: فلأنفسكم أسأتم، وعليها جنيتم؛ لأن ضرر إساءتكم عائد إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: موعود المرة الآخرة، أي: الإفسادة الآخرة، الثانية عددًا، والآخرة زمنًا، أي: فإذا أفسدتم في الأرض للمرة الثانية.

﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، وخلف، وأبو بكر عن عاصم بالياء ونصب الهمزة على لفظ الواحد: «ليسوءَ»، وقرأ الكسائي بالنون ونصب الهمزة: «لنسوءَ»، وقرأ الباقون بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع: ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾.

واللام هنا وفي الموضعين بعده للتعليل وليست للأمر، والضمائر في: ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾، ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ﴾ تعود إلى ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، وعلى قراءة الإفراد يعود الضمير إلى الله عز وجل.

ومعنى ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، أي: ليظهروا على وجوهكم المساءة والكآبة؛ بسبب قهرهم وإذلالهم لكم، وانتصارهم عليكم، وإهانتهم لكم.

﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾، أي: بيت المقدس.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، أي: كما دخلوه في المرة الأولى التي جاسوا فيها خلال الديار.

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾، أي: وليخربوا ويدمروا.

﴿مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ «ما» موصولة، أي: وليخربوا ويدمروا الذي علوا، أي: الذي ظهروا وغلبوا عليه ووقع تحت أيديهم من بلادكم.

﴿تَتْبِيرًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: تدميرًا شديدًا، وتخريبًا عظيمًا كاملًا، لبيوتكم ومساجدكم وحروثكم وغير ذلك.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ «عسى» من الله واجبة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]، أي: أن فيها وعدًا من الله تعالى لهم بالرحمة.

أي: عسى ربكم أن يرحمكم فيصرفهم عنكم، ويديل لكم الكرة عليهم، قال السعدي[2]: «فرحمهم، وجعل لهم الدولة، وتوعدهم على المعاصي، فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ الآية».

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الإفساد في الأرض، ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا، مع ما ندخره لكم من العذاب في الآخرة؛ ولهذا قال:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي: سجنًا لهم، لا خروج لهم منها أبدًا، وفراشًا ومهادًا، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفي الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾- ولم يقل: «لكم»- تسجيل عليهم بالكفر، وليعم هذا الوعيد غيرهم من الكافرين.

قال السعدي[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: «فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي؛ لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسُنَّة الله واحدة، لا تبدل، ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٢٦٣.

عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مكّن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- ربط القرآن الكريم بين رسالة موسى ورسالة نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما؛ لأن كتابيهما أعظم كتب الله تعالى، وشريعتيهما أفضل الشرائع السماوية.

٣- أن الله جعل التوراة هدى لبني إسرائيل من الجهل إلى العلم، ومن الباطل إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- أن أعظم ما في التوراة من الهدى لبني إسرائيل نهيهم عن الشرك، وأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، والتوكل عليه دون غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾، وهو ما أمر الله تعالى به جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٥- تحفيز بني إسرائيل وحضهم في التوراة على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والتوكل عليه دون غيره، بتذكيرهم بإنجاء آبائهم مع نوح في السفينة، وشكره لربه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

٦- أن النعمة بإنجاء من كانوا مع نوح في السفينة نعمة على جميع الخلق؛ لأن المتواجدين بعد الطوفان كلهم من ذرية من حمل مع نوح في السفينة.

٧- ثناء الله عز وجل على نبيه نوح عليه السلام، وامتداحه له بوصفه له بأنه عبد شكور، فأكرم بهذا من وصف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

٨- أن سبب إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة كونه عبدًا شكورًا.

٩- الترغيب والحض على شكر الله تعالى؛ لأنه سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

١٠- قضاء الله تعالى وحكمه الكوني على بني إسرائيل بالإفساد في أرض بيت المقدس مرتين والعلو فيها علوًّا كبيرًا، وإخبارهم بذلك في التوراة؛ لقوله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الآيات.

١١- أن ما قضاه الله وحكم به كونًا كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

١٢- إفساد بني إسرائيل في الأرض للمرة الأولى بالكفر والمعاصي، وكفران النعم، وعلوهم علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ الآية.

١٣- تسليط الله تعالى على بني إسرائيل بسبب فسادهم وإفسادهم وعلوهم في الأرض أول مرة جندًا من عباده أولي بأس شديد، ملكوا بلادهم، وطافوا وسط ديارهم، وأفسدوا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

١٤- منة الله تعالى على بني إسرائيل برد الكرّة لهم على أعدائهم، وإمدادهم بالأموال والبنين، وجعلهم أكثر عددًا من عدوهم؛ لعلهم يشكرون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

١٥- أن من أسباب القوة والعزة والتمكين كثرة الأموال والبنين وكثرة العدد، لكن هذا قد لا ينفع مع الكفر وعدم الشكر.

١٦- الإغراء والحث على الإحسان في عبادة الله تعالى والإحسان إلى خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ﴾، أي: إن من أحسن أحسن لنفسه؛ لأن نفع وثواب إحسانه يعود لنفسه.

١٧- التحذير من الإساءة بمخالفة أمر الله وارتكاب نهيه، وأذية خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾، أي: وإن أسأتم فعلى أنفسكم ضرر إساءتكم.

١٨- بلاغة القرآن الكريم وإيجازه، فإن في قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ من الإغراء والترغيب بالإحسان، والتحذير والتنفير من الإساءة ما لا يخفى.

١٩- أن كل إنسان يجازى بعمله إحسانًا أو إساءةً، فثواب إحسانه له خاصة، وعقاب إساءته عليه خاصة، فلا يعطى إحسانه لغيره، ولا يعاقَب بذنب إساءته سواه.

٢٠- غنى الله عز وجل عن الخلق، فلا ينفعه إحسان المحسن، ولا تضره إساءة المسيء.

٢١- شتان بين الإحسان والإساءة؛ ولهذا قدم الترغيب بالإحسان على النهي عن الإساءة.

٢٢- عودة بني إسرائيل للإفساد في الأرض مرة ثانية بعدما رد الله لهم الكرة على أعدائهم، وإدالة أعدائهم عليهم مرة أخرى، وإذلالهم وقهرهم لهم، وإظهارهم المساءة على وجوههم، ودخولهم بيت المقدس كما دخلوه في المرة الأولى، وتخريبهم وتدميرهم كل ما غلبوا عليه ووقع تحت أيديهم تدميرًا كاملًا عقوبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾.

٢٣- وعد الله لبني إسرائيل برحمته لهم، وإدالة الكرة لهم على أعدائهم، وتحذيرهم من العود للإفساد في الأرض، وتهديدهم بتسليط أعدائهم عليهم؛ عقوبةً لهم في الدنيا، ووعيدهم في الآخرة بجهنم لا خروج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾.

٢٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾.

٢٦- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾.

٢٧- إثبات جهنم، وأنها سجن الكافرين ومهادهم، لا خروج لهم منها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾.

٢٨- التسجيل على بني إسرائيل بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾، ولم يقل: «لكم».

٢٩- أن كل من كفر بالله فمصيره إلى جهنم خالدًا فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾، وهذا عام.

٣٠- عظم نعم الله تعالى ومننه على العباد وفضله وكرمه، وواسع عفوه عنهم، ورحمته بهم، فقد والى على بني إسرائيل النعم، ودفع عنهم النقم، ونصرهم على أعدائهم

وأداهم عليهم مرة تلو الأخرى، ولكنهم لشدة عتوهم وطغيانهم وتمردهم وكفرانهم نعم الله تعالى ومننه عليهم قابلوا ذلك بالكفر والجحود والإفساد في الأرض مرات وكرات، فكان عاقبتهم في الدنيا تسليط أعدائهم عليهم، ووعيدهم في الآخرة بجهنم خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾ [الآيات: ١- ٤]. وقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة: ٢- ٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ «إن» حرف توكيد، و«القرآن» الكتاب الذي أنزل الله تعالى على نبينا محمد ﷺ، أفضل كتب الله تعالى، وأعظمها، وأشرفها، وخاتمها، والمهيمن عليها.

سمي بـ«القرآن» لأنه مقروء متلو، تلقاه جبريل عليه السلام عن الله عز وجل، وبلغه عليه السلام لنبينا محمد ﷺ، وأقرأه إياه، وأقرأه النبي ﷺ أمته، فصاروا يقرؤونه.

وسمي أيضًا بـ«القرآن» أخذًا من «القرء» وهو الجمع؛ لأنه يجمع سورًا وآيات كثيرة، كما سمي «القرو» مجمع الماء، وسميت «القرية» لأنها تجمع أناسًا كثيرين.

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، أي: يدل ويرشد للطريق التي هي أعدل الطرق

وأصوبها، والتي هي أوضح السُّبل وأبينها في العقائد والأعمال والأخلاق، وهي سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم، كما قال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢- ٥٣].

فهو ﷺ يهدي إلى صراط الله المستقيم بهدي القرآن الكريم، الذي هو هُدى للناس كلهم، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: «أي: الطريقة، أو الحالة، أو الملة التي هي أقومها وأشدها، وأيّ ذلك قدّرت لم تجد له مع الإفصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الإبهام؛ لذهاب الوهم فيه كل مذهب، وإيقاعه على محتملات كثيرة»[1].

فمن اهتدى بالقرآن هدي إلى صراط مستقيم، وكان من أكمل الناس وأقومهم؛ عقيدةً وعملًا وخلقًا، وفي جميع أموره وأحواله، ومن أسعدهم في دينه ودنياه وأخراه؛ لأن القرآن الكريم هو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، ونوره المبين.

ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وكان من أشقى الناس في دينه ودنياه وأخراه. كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»[2].

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أي: ويبشر المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم به، وبما هداهم إليه من وجوب الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أوجب الله الإيمان به.

---

(١) انظر بدائع التفسير ٣/ ٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٣/ ٣٧١، والطبري في «جامع البيان» ١٦/ ١٩١.

﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: الذين يعملون الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وغير ذلك من الواجبات والسنن.

وحذف الموصوف، وهو الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي الصالحات؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

والمعنى ويبشر المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان باطنًا بقلوبهم، وبين العمل الصالح ظاهرًا بجوارحهم.

﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ «أن» للتوكيد، أي: أن لهم خاصة ثوابًا وجزاءً ﴿كَبِيرٗا﴾، أي: جزيلًا عظيمًا من حيث كيفه، وجزيلًا كثيرًا من حيث كمه، وغير ذلك، لا يقدر قدر كبره وعظمته وكثرته وغير ذلك إلا من منحه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ووصفه بكونه كبيرًا، وهو الكبير المتعال.

ومن ذلك توفيقهم في الدنيا للحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

وأعظم من ذلك وأجل ما أعد لهم في الآخرة من مضاعفة الأجور، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وما أعد لهم في الجنة من أنواع النعيم وألوانه، وقرة العين، مما لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ﷺ في وصف الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ الآية[1].

وأجل ذلك وأعظمه وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٥، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

الكريم، كما قال ﷺ(١).

وسمى ثوابهم أجرًا؛ لأنه عز وجل تكفل به وضمنه لهم وأوجبه على نفسه، تفضلًا منه وكرمًا، وليس ذلك واجبًا عليه مقابل عملهم، كما يجب على المستأجر دفع أجرة الأجير؛ لأن عملهم ليس عوضًا عن هذا الأجر، وإنما هو سبب له.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾، أي: ويبشر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالقيامة وبعث الأجساد والمعاد، والحساب والمجازاة للعباد على الأعمال.

﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾، أي: أعددنا وهيأنا وجهزنا لهم.

﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، وهو عذاب النار، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ [النساء: ١٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾.

قوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾، أي: ويدع الإنسان- لجهله أحيانًا- على نفسه أو ولده أو ماله، ﴿بِٱلشَّرِّ﴾، أي: بالموت والهلاك واللعنة ونحو ذلك؛ بسبب غضب ونحوه.

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ «دعاءه» منصوب بنزع الخافض، وهو الكاف، أي: كدعائه بالخير، أي: ويبادر الإنسان عند الغضب بسبب عجلته وجهله بالدعاء على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي: بالموت والهلاك واللعنة ونحو ذلك، كما يبادر في الدعاء بالخير، أي: بالتوفيق والرزق له ولولده ونحو ذلك، ولو استجاب الله له لهلك من دعا عليه بسبب دعائه، كما قال ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»(٢).

ويستعجل الشر كاستعجاله بالخير، فيستبطئ حلول الوعيد والعذاب، ويدعو على نفسه بذلك، وهذا أيضًا من جهله وظلمه وعجلته، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذۡ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٣٠١٤- من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكما في قولهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وكقول قوم نوح وقوم هود عليهما السلام لكل منهما: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠، هود: ٣٢، الأحقاف: ٢٢]، وقول قوم شعيب عليه السلام له: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، ولو أجيبوا لهلكوا في الحال.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾، أي: من صفته وجبلته الخلقية العجلة، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ٣٧]. أي: أنه يستعجل الأمور من غير روية وفكر، وقد يكون الخير له في تأجيلها.

وقد رُوي أن آدم عليه السلام لما نفخت الروح في أعلى جسده هم بالنهوض؛ لعجلته، قبل أن تصل الروح إلى رجليه(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾، أي: وخلقنا الليل والنهار آيتين، وآيتاهما الشمس والقمر، وجعلناها دالة على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، وواسع رحمته، وكمال ربوبيته ووحدانيته. كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى

(١) انظر جامع البيان، ١٤/ ٥١٤.

ﵟٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖﵞ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﵟوَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚﵞ [المؤمنون: ٨٠].

ﵟفَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِﵞ، أي: فطمسنا آية الليل، وهي القمر، وجعلنا الليل مظلمًا؛ للسكون فيه والراحة.

ﵟوَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِﵞ وهي الشمس، ﵟمُبۡصِرَةٗﵞ، أي: مضيئةً وسراجًا، كما قال تعالى: ﵟهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗاﵞ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﵟتَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ﵞ [الفرقان: ٦١]؛ ولهذا كان النهار مبصرًا، كما قال تعالى: ﵟهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚﵞ [يونس: ٦٧]، وقال تعالى: ﵟأَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚﵞ [النمل: ٨٦]، وقال تعالى: ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاﵞ [غافر: ٦١].

ﵟلِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡﵞ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تطلبوا الرزق من ربكم بالسعي في النهار، وتستعينوا بسكون الليل والراحة فيه على ذلك، كما قال تعالى: ﵟوَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦﵞ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﵟوَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓﵞ [الروم: ٢٣]، وقال تعالى: ﵟوَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ﵞ [النبأ: ١٠-١١].

ﵟوَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚﵞ معطوف على قوله: ﵟلِّتَبۡتَغُواْﵞ، أي: ولأجل أن تعلموا عدد السنين والحساب، بتميز الليل عن النهار، بمحو آية الليل، وهي القمر، وجعل آية النهار- وهي الشمس- مضيئةً.

قال تعالى: ﵟفَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ﵞ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﵟوَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ

﴿يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٣٨- ٤٠].

ولو كان الزمان على نسق واحد- ليل سرمد، أو نهار سرمد- لانتفت الحكمة من اختلاف الليل والنهار، وهي كون الليل محل السكون، والنهار محل المعاش، ولما عُلم عدد السنين والحساب؛ ولهذا خوف الله العباد من ذلك، وامتن عليهم بجعلهما على هذه الكيفية رحمةً بهم. كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾، ﴿تَفۡصِيلٗا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: وكل شيء بيّناه تبيينًا تامًّا بليغًا لا التباس فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾.

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾، أي: وكل إنسان ألزمناه ما قدر له، وما صدر وطار عنه من عمل، خيرًا كان ذلك أو شرًا، يحفظ ويكتب عليه، ويجازى به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٤].

وقوله: ﴿فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ للدلالة على ملازمة ذلك له ملازمة دائمة كلزوم القلادة، وأنه لا محيد له عنه.

﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا﴾ قرأ أبو جعفر بالياء المضمومة، وفتح الراء: «ويُخرَجُ»، وقرأ يعقوب بالياء وفتحها وضم الراء: «ويَخْرُجُ»، وقرأ الباقون بالنون

مضمومة وكسر الراء﴿وَنُخْرِجُ﴾. أي: ونظهر له يوم القيامة كتابًا فيه جميع أعماله، يؤتاه بيمينه إن كان سعيدًا، ويؤتاه بشماله من وراء ظهره إن كان شقيًّا.

﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر: «يُلَقَّاهُ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان اللام وتخفيف القاف ﴿يَلْقَىٰهُ﴾، أي: يجده.

﴿مَنشُورًا﴾ حال، أي: مفتوحًا للقراءة؛ لسرعة قراءته والاطلاع على جميع ما عمله من خير أو شر، من صغيرة أو كبيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ جملة مقول القول لقول محذوف، أي: نقول له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، الباء في قوله: ﴿بِنَفْسِكَ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿حَسِيبًا﴾ تمييز، أي: حسبك بنفسك اليوم عليك حسيبًا، أي: كفى بك اليوم على نفسك حسيبًا وشهيدًا؛ لتعلم أنك لم تُظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۝١٧﴾ [غافر: ١٧].

وهذا غاية العدل والإنصاف أن يقال للإنسان: حاسب نفسك؛ ليعرف أنه لم يظلم، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون ممّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي. قال: فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسُحقًا، فعنكنَّ كنت أناضل»[1].

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٩.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

أخبر عز وجل أنه ألزم كل إنسان طائره في عنقه، أي: ما قدر له من عمل، خيرًا كان أو شرًا، وأنه سيجازى بما عمل، ثم أتبع ذلك ببيان أن من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها؛ ترغيبًا في سلوك طريق الهدى، وتحذيرًا من سلوك طرق الضلال والردى.

قوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ «من» في الموضعين: شرطية، أي: من اهتدى بالقرآن، واسترشد به، وسلك سبيل الهدى والحق، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما» هنا وفي الموضع الذي بعده: أداة حصر، أي: فإنما اهتداؤه لنفسه خاصة، أي: فثمرة اهتدائه وعاقبته الحميدة لنفسه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾، أي: ومن زاغ وبعُد عن الحق والهدى، وسلك سبل الغواية والردى.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾، أي: فإنما ضلاله على نفسه، أي: فوبال ضلاله وجنايته على نفسه خاصة.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾، أي: ولا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة آثمة، محملة بوزرها وذنبها وإثمها.

﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾، أي: ذنب وإثم نفس أخرى.

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: لا يحمل أحد ذنب أحد غيره، بل كل يؤخذ بذنبه وجريرته، وعلى هذا فإن من دعا إلى ضلالة فإنه يحمل مع وزره، مثل أوزار من أضلهم من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأنه هو سبب ضلالهم، فضلالهم من جريرته، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال ﷺ: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص

ذلك من آثامهم شيئًا»[(١)].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أي: وما كنا معذبين أحدًا من الخلق ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أي: إلى غاية أن نرسل إليهم رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وينهاهم عن الشرك، ويبين لهم طريق الحق والهدى، ويحذرهم من طرق الباطل والضلال، فتقوم بذلك عليهم الحجة، فمن أشرك منهم وعصى بعد ذلك عذبناه، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩﴾ [الشعراء: ٢٠٨- ٢٠٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧﴾ [يونس: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك: ٨- ٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾، أي: وإذا أردنا كونًا وقدرًا، أي: شئنا.

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردنا»، أي: وإذا أردنا إهلاك قرية من القرى الظالمة واستئصالها بالعذاب، والمراد بالقرية: أهلها.

﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ قرأ يعقوب: «آمرنا» بمد الهمزة، وقرأ الباقون: ﴿أَمَرۡنَا﴾ بقصرها.

أي: أمرنا أهل الترف والرفاهية وسعة العيش فيها وشرارها، أمرًا قدريًا، وسلطناهم تسليطًا كونيًّا، ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ بالكفر والشرك والمكر والمعاصي والفجور والدعوة إلى الضلال، كما هو حال أكابر مشركي مكة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقيل: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ بالطاعة ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، أي: فخرجوا عن الطاعة بالكفر والمعاصي والفواحش والفجور.

والصحيح الأول، وهو أن المعنى: قضينا ذلك وقدرناه كونًا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا شك أنهم مأمورون- كغيرهم- بالطاعة شرعًا، لكن الله قضى وقدر كونًا أن يفسقوا بسبب ترفهم، وإذا فسق هؤلاء اغتر بهم دهماء الناس فاتبعوهم على ذلك، ولو كانوا غير مترفين، فهلكوا جميعًا.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ الفاء عاطفة، أي: فوجب عليها القول بالعذاب، أي: كلمة العذاب في النار، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزمر: ١٩]، وكما في قول الكفار: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١﴾ [الصافات: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾، أي: أهلكناهم واستأصلناهم. وفي هذا وعيد وتهديد لمشركي قريش.

قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾.

هذا تأكيد لوعيد المشركين وتهديدهم بالعذاب.

قوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ الواو: استئنافية، و«كم» خبرية

للتكثير، أي: وكثيرًا ما أهلكنا من القرون.

و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ جمع «قرن»، وهو المدة أو الحقبة الزمنية التي يعيش فيها جيل ويفنى، قُدِّر بنحو مائة سنة، ويطلق على الأمة من الناس الذين يعيشون في تلك المدة، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ [الفرقان: ٣٨]، وكما في قوله ﷺ: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١).

والمعنى: وكثير من الأمم المكذبة أهلكناهم من بعد نوح، كعادٍ وثمود وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم فرعون، وغيرهم، بسبب تكذيبهم، وكفرهم، وبغيهم، وظلمهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

وفي هذا تحذير وتهديد لمشركي مكة أن يحل بهم- بسبب تكذيبهم للنبي ﷺ- ما حل بالأمم المكذبة للرسل من بعد نوح من الهلاك؛ فليسوا أكرم على الله منهم، وقد كذبوا أشرف الرسل وأكرمهم على الله تعالى، بل هم أولى وأحرى بالعقوبة.

عن زينب رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**»، وحلق بين الإبهام والتي تليها. قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم، إذا كثُر الخبث**»(٢).

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ دلالة على أن الإهلاك إنما حصل فقط للقرون من بعد نوح بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، أما من قبل نوح فقد كانوا على التوحيد ودين أبيهم آدم عليه السلام، لم يبدلوا ولم يغيروا.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ الواو: استئنافية، و«كفى» بمعنى:

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١- من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٦، ومسلم في الفتن ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن ٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣.

حسب، «بربك» الباء زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: حسبك بربك يا محمد.

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾، أي: بجميع ذنوب عباده كلهم ﴿خَبِيرًۢا﴾، أي: ذا خبرة تامة ببواطنها ودقائقها وخفياتها.

﴿بَصِيرًا﴾، أي: بصيرًا بها مُطَّلِعًا عليها، عالمًا بظواهرها، وجلائلها، وجلياتها.

وفي هذا وعيد وتهديد للمشركين، وتسلية له ﷺ، وطمأنة بأن الله حسبه وكافيه، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن القرآن يهدي للطريق التي هي أقوم وهو سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

٢- فضيلة القرآن وشرفه؛ لأن الله امتدحه وأثنى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الآية.

٣- لا هدي أعظم من هدي القرآن، ولا أقوم سبيلًا من السبيل التي يهدي إليها القرآن، وهو سبيل الله وصراطه المستقيم.

٤- الترغيب في اتباع هدي القرآن الكريم، والتحذير من اتباع ما عداه من السُبُل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٥- بشارة القرآن الكريم للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بما أعد لهم خاصةً من الأجر الكبير والثواب الجزيل، كيفًا وكمًّا ونوعًا وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

٦- أن من أنجع أساليب الدعوة إلى الله تعالى التبشير، وهي طريقة القرآن الكريم، وطريقة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: «**بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تُعسِّروا**»[1]، وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٨٣٥ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

عنهما حين بعثهما إلى اليمن: «**وبشروا ولا تنفروا**»[1].

وهذا هو منهج العلماء الربانيين في دعوتهم إلى الله تعالى؛ شفقةً منهم بالمدعوين ونصحًا لهم، وتحبيبًا لهم في الخير، وإخلاصًا لله تعالى، وحسن ظن به عز وجل، وتأسِّيًا بمنهج القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأشهد الله عز وجل لقد لمحت هذا في منهج العلامة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، فكان في دعوته يبشر دائمًا، وكان كثيرًا ما يختم فتواه لمن يستفتيه بقوله: «وأبشر بالخير».

أسأل الله أن يجزيه عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

٧- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، أي: بين الإيمان في القلب والباطن، وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وفي هذا رد وإبطال لقول المرجئة: إنه يكفي مجرد الإيمان.

٨- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، وموافقًا لشرعه عز وجل، وسنة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٩- أن البشارة في القرآن الكريم بالأجر الكبير إنما هي خاصة بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

١٠- عظم فضل الله تعالى وما أعده للمؤمنين من الأجر، وأنه لا يقدر قدر كبره وعظمته إلا من وصفه بقوله: ﴿كَبِيرًا﴾، وهو الكبير المتعال.

١١- الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لبشارة القرآن لمن جمعوا بينهما.

١٢- تهديد القرآن الكافرين بالآخرة بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٣- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال بالجنة أو النار، وأن ذلك من أهم أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣ من حديث أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

١٤- أن النار مهيأة معدة الآن بما فيها من العذاب والأنكال للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: هيأناه لهم في النار.

١٥- شدة عذاب الكفار في النار؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلمًا موجعًا حسِّيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.

١٦- دعاء الإنسان لجهله أحيانًا، وبخاصة عند الغضب، على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، واستعجاله ذلك، كما يدعو بالخير؛ بسبب عجلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

١٧- يجب الحذر من أن يدعو الإنسان على نفسه أو ولده أو ماله ونحو ذلك بالشر، فقد يوافق ذلك من الله ساعة إجابة- كما جاء في الحديث[1]، فيندم حين لا ينفع الندم.

١٨- لا لوم على الإنسان في دعائه لنفسه بالخير، بل ذلك أمر مشروع، واجب أو مندوب أو مباح؛ لمفهوم قوله: ﴿بِالشَّرِّ﴾.

١٩- أن الإنسان خلق من عجل، وطبع على العجلة، يستعجل الأمور قبل أوانها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بخلق الليل والنهار، وآيتيهما الشمس والقمر، وجعلها من أعظم آياته الدالة على كمال قدرته وعنايته بخلقه، وتمام نعمته، وواسع رحمته، ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ﴾.

٢١- حكمة الله تعالى، وتمام نعمته، وواسع رحمته، في محو آية الليل وهي القمر؛ ليكون الليل مظلمًا ساكنًا وقتًا، وجعل آية النهار، وهي الشمس، مبصرة مضيئة؛ ليكون النهار وقتًا للسعي، وطلب الرزق، والتصرف في الأعمال، والمعايش والأسفار والتجارات، ولمعرفة عدد السنين والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ﴾.

٢٢- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٤- أن الفضل والرزق والزيادة والخير كله من ربنا عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- أن من حكمة الله تعالى في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر معرفة حساب الأيام والشهور والسنين، مما تعرف به أوقات العبادات من الصلوات والصوم والحج، ومعرفة أوقات الحروث والزروع، ومعرفة أوقات آجال الديون وحلولها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

٢٦- مشروعية طلب الرزق والفضل من الله، والسعي في أسباب ذلك، ومشروعية معرفة حساب الأيام والشهور والأعوام؛ لمعرفة أوقات الصلوات والصيام والحج، ومواقيت الحروث والزروع، وآجال الديون وحلولها وغير ذلك.

٢٧- تفصيل الله عز وجل وبيانه كل شيء، وكل ما يحتاج إليه الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

٢٨- أن ما كتب على الإنسان وقدر له ملازم له لا محيد له عنه، وما عمله من خير أو شر محفوظ محاسب عليه مجازى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾.

٢٩- إثبات كتابة الأعمال وتطاير الصحف وإيتاء كل إنسان كتاب أعماله يقرؤه منشورًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

٣٠- إلزام كل إنسان بقراءة كتابه، ليكون حسيبًا على نفسه؛ ليعلم أنه لم يظلم مثقال ذرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

٣١- كمال عدله عز وجل في محاسبة الخلائق؛ حيث جعل عز وجل الإنسان في ذلك اليوم على نفسه حسيبًا.

٣٢- أن في إيتاء كل إنسان كتاب أعماله وأمره بقراءته ومحاسبته لنفسه تهنئةً للمؤمنين وتكريمًا لهم، وتبكيتًا للكافرين وتوبيخًا لهم.

٣٣- أن من اهتدى بهدي القرآن وسلك سبيل الهدى فنفْع اهتدائه يعود لنفسه، لا لغيره، ومن ضلّ عن الهدى وسلك سبيل الردى فضرر ضلاله يعود على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

٣٤- أنه لا يحمل أحد ذنب أحد غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، لكن من سنّ سنة سيئة أو دعا إلى ضلالة فإن عليه مع وزره مثل أوزار من دعاهم من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأنه هو سبب ضلالهم.

٣٥- في مجازاة كل إنسان بعمله خاصة، من هداية أو ضلال، وعدم أخذ أحد بجريرة غيره، تأكيد لكمال عدله عز وجل.

٣٦- أن الله لا يعذب أحدًا من الخلق إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وبلوغ الدعوة إليهم، وتكذيبهم وكفرهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وهذا من تمام عدله عز وجل.

أما من لم تبلغهم الدعوة، كأهل الفترة وأولاد المشركين ونحوهم، فقد ثبت أنه ﷺ سئل عن أولاد وذراري المشركين فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[1].

ولهذا توقف بعض أهل العلم في حكمهم، وذهب أكثرهم إلى أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهذا أظهر الأقوال وأشهرها.

٣٧- أن الله عز وجل إذا أراد كونًا إهلاك قرية من القرى المكذبة للرسل، أمر مترفيها أمرًا قدريًا وسلطهم تسليطًا كونيًا بالفسق فيها، بالكفر والمكر والفجور والمعاصي، فحق عليها القول بالعذاب فأهلكها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

٣٨- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى التي هي بمعنى المشيئة.

٣٩- التهديد والوعيد لمشركي قريش إن استمروا على الفسوق والمكر والفجور والعصيان بإهلاكهم واستئصالهم.

٤٠- إثبات الأسباب، وأن لكل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الآية.

٤١- ينبغي البعد عن الترف؛ لأنه سبب للفسق والخروج عن طاعة الله تعالى،

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٧، ومسلم في القدر ٢٦٦٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري أيضًا في الجنائز ١٣٨٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويجب الحذر كل الحذر من الفسق؛ لأنه سبب للهلاك.

٤٢- أن من حقت ووجبت عليه كلمة العذاب والهلاك فلا محيد له عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

٤٣- عظم آثار الفسق والذنوب والمعاصي، فهي سبب لهلاك الحرث والنسل، والبلاد والعباد، تذر الديار بلاقع.

٤٤- شدة عقاب الله تعالى وأخذه للقرى الظالمة، واستئصاله إياها.

٤٥- إخباره عز وجل بإهلاكه كثيرًا من القرون والأمم المكذبة من بعد نوح؛ تحذيرًا للمكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك القرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

٤٦- إثبات رسالة نوح عليه السلام، وأن الإهلاك للقرون إنما كان بعد نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾؛ لأن التكذيب للرسل إنما حصل بعد نوح عليه السلام.

٤٧- كفى بالله تعالى وحسبه بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا، يحصيها عليهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

٤٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾.

٤٩- وعيد وتهديد المكذبين له ﷺ، وتسليته وطمأنته بكفاية الله تعالى له.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ «من» شرطية، أي: من كان من الناس يريد بعمله وسعيه ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾، أي: الحياة الدنيا الحاضرة الزائلة، وزينتها الفانية؛ من المكاثرة بالأموال والأولاد، وتولي المناصب والرياسات، والتفنن في المأكولات والمشروبات، والتباهي بالمنازل والمراكب والممتلكات، والتعصب للديار والبلدان والعائلة والقبيلة وغير ذلك.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾، أي: عجلنا له في هذه الدنيا العاجلة، أي: أعطيناه فيها ﴿مَا نَشَآءُ﴾، أي: الذي نشاء تعجيله له، فلا يحصل له فيها إلا ما شئنا تعجيله له فيها، لا كل ما أراده فيها.

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل بعض من قوله: ﴿لَهُۥ﴾، أي: للذي نريد التعجيل له، ممن أرادوا العاجلة، أي: فليس كل مريد للعاجلة يعجل له فيها ما يريده، وإنما ذلك حسب إرادتنا؛ فمن أردنا التعجيل له عجلنا له، ومن أردنا عدم التعجيل له لم نعجل له.

وقوله تعالى في سورة هود: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الآية: ١٥] مقيد بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ في الدار الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾، أي: النار؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة، ولم يعمل لها.

﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ويقاسي حرها، وتغمره من جميع جوانبه.

﴿مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ حالان، أي: حال كونه مذمومًا ملومًا عند الله وعند الخلق على إرادته الدنيا العاجلة، وتقديمها على الآخرة، واختيار الفاني على الباقي.

﴿مَّدۡحُورٗا﴾ مطرودًا مبعدًا عن رحمة الله تعالى وجنته، وعن كل خير، حقيرًا ذليلًا مهانًا، كما قال تعالى لإبليس لما طرده من الجنة: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٨].

فمن كان أكبر همه ومبلغ علمه إرادة الدنيا العاجلة الفانية الحقيرة وزينتها، أعطاه الله ما كتب له منها، ثم مآله إلى نار جهنم، ليس له في الآخرة سواها، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥- ١٦].

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: ومن قصد الدار الآخرة بعمله وسعيه، وما فيها من الحياة الكريمة، والسرور والنعيم المقيم في جنات النعيم.

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾، أي: وعمل لها عملها الصالح الخالص لوجه الله، الموافق للشرع.

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه مؤمن، أي: مصدق بقلبه باطنًا بأركان الإيمان، وكل ما أوجب الله الإيمان به، وهذا كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والإشارة إلى «من» باعتبار معناها، أي: فأولئك الذين أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها وهم مؤمنون. وأشار إليهم بإشارة البعيد إعلاءً لشأنهم، ورفعةً لمنزلتهم، وتنويهًا بهم.

﴿مَّشۡكُورٗا﴾، أي: مقبولًا، مضاعفًا، منمًّى، مُدخرًا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

فلابد لمن رام السلامة وأراد النجاة لنفسه من النية الصالحة بإرادة رضا الله تعالى، والدار الآخرة، والتزود لذلك من يومه- ما دام ممكنًا- بالعمل الصالح الخالص لله الموافق لشرعه، مع الإيمان بالقلب الذي لا يقبل الله عملًا بدونه؛ لأن سلعة الله غالية،

كما قال ﷺ: **«ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»**[1].

قال ابن القيم[2]:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنتِ غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... بالألف إلا واحد لا اثنان

ويجب الحذر من الاغترار بالدنيا، والأماني الباطلة، فالكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، فالسفر طويل، والعقبة كؤود.

وما أكثر من اغتر من الخلق بهذه الدنيا وخرجوا منها وهم مفلسون، بلا زاد، بل وهم مثقلون بالأوزار، زعموا أنهم يحسنون الظن بالله، وكذبوا؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، وما حال هؤلاء إلا كما قيل:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس[3]

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾.

لما بين عز وجل في الآيتين السابقتين أنه يعطي مريد الدنيا ما قدر له منها، مع ما له من العذاب في الآخرة لإعراضه عنها وعدم العمل لها، وأن من أراد الآخرة وعمل لها فسعيهم مشكور مدخر لهم أجرهم عنده، أتبع ذلك ببيان أنه سبحانه يمد كلًّا من الفريقين من عطاء الدنيا، فلا يحظر عطاءه عن أحد لإرادته الدنيا، أو يعطيه لآخر لإرادته الآخرة؛ لأن الشأن كل الشأن في عطاء الدين وعطاء الآخرة، فذلك لا يناله إلا من أراد الآخرة وعمل لها.

قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ ﴿كُلًّا﴾ منصوب على الاشتغال، أي: نمد كلًّا من

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠- وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٣٥٤.

(٣) البيت في «ديوان عبدالله بن المبارك» ص٢٦، وينسب لأبي العتاهية. انظر: «الأغاني» ٤/ ١١٢، «زهر الآداب» ٣/ ٨٧١، «مجاني الآداب» ٢/ ١٤.

الفريقين، أي: نزيدهم من العطاء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة.

﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾، أي: من رزق ربك يا محمد وفضله الدنيوي، فلا يمنع عطاءه عن أحد لكونه أراد الدنيا، ولا يعطيه لأحد لكونه أراد الآخرة.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾، أي: وما كان رزق ربك وفضله ممنوعًا عن أحد من خلقه، فكلهم راتعون في فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

وهذا لا يتنافى مع كون الإيمان والعمل الصالح سببًا للحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾[النحل: ٩٧].

كما لا يتنافى مع أن العبد قد يحرم الرزق بسبب الذنب، كما قال ﷺ: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

لأن ذلك كله مقيد بما يشاؤه الله من الإمداد لمن يريده من العباد؛ لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الآية: ١٨].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾.

لما بيّن عز وجل أنه يمد كلًّا من الفريقين من عطائه الدنيوي من غير حصر ذلك على أحد دون غيره، مع ما بينهم من التفاضل في ذلك، وجّه للتأمل في ذلك التفاضل الدنيوي؛ للتنبيه على ما هو أعظم وأجل، وهو التفاضل الأخروي.

قوله: ﴿ٱنظُرۡ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿كَيۡفَ﴾ اسم استفهام مستعمل في التنبيه.

﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾، أي: في الإمداد والعطاء في هذه الدنيا، فمنهم الغني، ومنهم الفقير، ومنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم الصحيح، ومنهم المريض، ومنهم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، وابن ماجه في المقدمة ٩٠- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

البصير، ومنهم الأعمى، ومنهم السميع، ومنهم الأصم، ومنهم من يرزق الزوج والذرية، ومنهم من يُحرم ذلك، ومنهم من يطول عمره، ومنهم من يقصر، ومنهم بين ذلك.

جل من قسم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديارا[١]

والغرض من هذا التنبيه لما هو أعظم وأهم، وهو اختلافهم في الآخرة في الدرجات والتفضيل؛ ولهذا قال:

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الواو: حالية، واللام: للتوكيد، والدرجات الرتب والمنازل. أي: وللدار الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا من درجات الدنيا وتفضيلها.

وشتان ما بين الدارين، فلا نسبة بينهما بوجه من الوجوه، فكم بين من هم في أعلى درجات الجنات في الغرف العاليات، يتنعمون بأنواع اللذات، وبين من هم في الجحيم يقاسون أشد العذاب في أسفل الدركات.

وكم بين أهل الجنة فيما هم فيه من النعيم من تفاضل في المنازل والدرجات.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهما**»[٢].

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»[٣].

وكم بين أهل الجحيم من التفاوت في شدة العذاب والدركات، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا**»[٤].

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ٢١٣.

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس إلى قسمين: مريد للدنيا، ومريد للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الآيتين، ومجازاة الله تعالى لكل منهم بما يستحق.

٢- أن من أراد الدنيا أعطاه الله منها ما شاءه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾.

٣- إنما الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى والإرادة الكونية وهما بمعنى واحد؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

٥- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على الفعل كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿أَرَادَ﴾.

٦- ليس كل مريد للدنيا يعطى منها، بل ذلك حسب إرادة الله عز وجل وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾.

٧- التقليل من شأن الدنيا، وسرعة زوالها؛ لوصفها بـ«العاجلة». قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»[(١)].

٨- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أراد الدنيا فقط، وجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه؛ والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

٩- الجمع لمن قصر إرادته على الدنيا بين العذاب الحسي بإصلائه جهنم، وبين العذاب المعنوي بالذم والعيب والتنقص له، وتخلي الناصر عنه، فهو مذموم مخذول، لا محمود ولا منصور.

١٠- أن من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فسعيه مشكور، وأجره مضاعف موفور؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٧١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾.

١١- لابد أن يكون السعي للآخرة خالصًا لله تعالى، موافقًا للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾.

١٢- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء.

١٣- أن الإيمان شرط لصحة الأعمال وقبولها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾.

١٤- التنويه بشأن من أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها مع الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بإشارة البعيد.

١٥- فضل الله تعالى على عباده المؤمنين بالإثابة على العمل القليل بالأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾، أي: مقبولًا مضاعفًا لهم أجرهم؛ لأن معنى الشكر في حقه عز وجل أنه يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

١٦- أن الدنيا والآخرة ضرتان، فمن مال لأحدهما أضر بالأخرى، مما يوجب الحذر كل الحذر من فتنة الدنيا وغرورها، والانشغال بها عن الاستعداد للآخرة التي هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقد ذمها الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه، وبيّن أنها متاع قليل، ومتاع غرور، وحذر منها ومن الاغترار بها، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: ٣٣].

وبيّن المصطفى ﷺ حقارتها، فقال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[1].

وقال ﷺ: **«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا،**

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[1].

١٧- إمداد الله تعالى من فضله بالعطاء والرزق للفريقين: من يريد الدنيا، ومن يريد الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَۚ﴾، وقد يستدل بهذا على الربوبية العامة بحمل الخطاب على كل من يصلح له.

١٩- أن عطاء الله تعالى ورزقه ليس ممنوعًا عن أحد من خلقه، بل كلهم راتعون في فضله وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾.

٢٠- أن الإمداد والعطاء والرزق كله من الله تعالى وحده، فهو الرازق ذو الفضل العظيم.

٢١- الحث على النظر والتأمل في التفضيل بين الناس في العطاء والرزق في الدنيا، والتفكر في حكمة الله تعالى في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾.

٢٢- في الأمر بالنظر في تفضيله عز وجل الناس بعضهم على بعض في العطاء في الدنيا تنبيه لما هو أعظم وأهم، وهو التفاضل بينهم في الآخرة حسب أعمالهم؛ ليكون ذلك باعثًا على التنافس في العمل الصالح.

٢٣- عظم التفاوت بين الناس في الدرجات والتفضيل في الآخرة، وأن ذلك لا يقاس به تفاوتهم في العطاء في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾، فشتان بين من هم في الجنان في أعلى عليين، وبين من هم في النيران في أسفل سافلين، وما أعظم التفاوت بين أهل الجنة في المنازل والدرجات، ويا بعد ما بين أهل النار من السفول والدركات.

* * *

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجة في الفتن ٣٩٩٧- من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ﴿ لَّا ﴾ ناهية، والخطاب لكل من يصلح خطابه من الأمة، أي: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا.

أي: لا تعبد مع الله معبودًا آخر غيره، بل أخلص العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

و«الإله» يطلق على المعبود بحق وهو الله- عز وجل- ويطلق على المعبود بغير حق، كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص: ٥].

﴿فَتَقْعُدَ ﴾ أي: فتصير بسبب ذلك.

﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ حالان، أي: حال كونك مذمومًا مخذولًا، والمذموم: المذكور بالسوء والعيب، والمخذول: الذي أسلمه ناصره وتخلى عنه.

أي: فتقعد مذمومًا على شركك عند الله عز وجل؛ لأن الله- عز وجل- ذم الشرك وأهله وحرّمه وحذر منه في جميع الشرائع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ومذمومًا أيضًا عند ذوي العقول من خلقه- عز وجل، كما قال إبراهيم- عليه السلام- لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الصافات: ٩٥].

﴿مَّخْذُولًا ﴾ أي: مخذولًا غاية الخذلان، تخلى الله عن نصرتك، ووكلك إلى من عبدته معه، وأسلمك وتخلى عنك من عبدته مع الله مما لا يغني عنك شيئًا، كما قال الخليل- عليه الصلاة والسلام- لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

فمن أشرك مع الله غيره فهو مذموم غاية الذم مخذول غاية الخذلان، لا ولي له ولا ناصر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الواو: استئنافية.

﴿وَقَضَىٰ﴾ أي: أمر وأوجب. وقضاء الله ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني بمعنى المشيئة والإرادة الكونية، لابد من وقوعه، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ [الإسراء: ٤].

والقسم الثاني: قضاء شرعي بمعنى الإرادة الشرعية، لابد أن يكون محبوبًا لله- عز وجل- ولا يلزم وقوعه، كما في هذه الآية.

ومثل القضاء في هذا التقسيم: الأمر، والحكم، والإذن، والكتب، فكل منها منه ما هو كوني، ومنه ما هو شرعي.

والخطاب في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تكريم وتشريف له ﷺ، وهو أيضًا تكريم وتشريف لمن اتبعه من المؤمنين؛ لأن الخطاب له ولهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «أن» يحتمل أن تكون مصدرية مجرورة بباء جر مقدرة، أي: بأن لا تعبدوا إلا إياه، و«لا» نافية، ويحتمل أن تكون «أن» مفسرة، لما في «قضى» من معنى القول، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، و«لا» على الحالين ناهية.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، أي: لا تعبدوا غيره.

ففي الآية نفي وإثبات؛ نفي العبادة عن غير الله، وإثباتها لله- عز وجل- وحده،

كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله».

والمعنى: وأوجب ربك يا محمد أن لا تعبدوا أيها الناس إلا هو، أي: أوجب عبادته وحده لا شريك له.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع والاستكانة.

يقال: طريق معبد، أي مذلل ذللته الأقدام بالسير عليه، ويقال بعير مذلل، أي: ذُلل بالركوب عليه.

والعبادة في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة(١).

والعبادة تطلق على نفس العبادة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك وتطلق على فعل التعبد.

والعبادة بمعناها العام تتناول جميع الأحكام التكليفية الخمسة مع استصحاب النية، ففعل الواجب عبادة، وترك المحرم عبادة، وفعل المندوب عبادة، وترك المكروه عبادة، وفعل المباح عبادة.

فمن وفق لاستصحاب النية الصالحة فحياته كلها عبادة؛ حتى أكله وشربه ونومه ويقظته وترويحه عن نفسه، وغير ذلك، حتى جماعه لزوجته؛ كما قال ﷺ: **«وفي بضع أحدكم صدقة»** قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»**(٢).

ولهذا قال أهل العلم: «الموفقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات» فانتبه لهذا وفقك الله.

وعبادة الله تعالى وتوحيده أصل الشرائع كلها وهو حق الله- عز وجل- على الخلق، وأول الحقوق وأعظمها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ معطوف على ما قبله، والباء في قول ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ للتعدية، وهو متعلق بـ﴿إِحْسَانًا﴾ وقدم عليه للاهتمام بالوالدين، و«ال» فيه للاستغراق باعتبار والدي كل مكلف ممن عمهم الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾.

و﴿إِحْسَانًا﴾ مفعول مطلق، أي: وأحسنوا إحسانًا بالوالدين.

والمعنى: وأوجب أن تحسنوا إلى الوالدين قولًا، وفعلًا وبذلًا؛ بطاعتهما، وأداء حقوقهما الواجبة والمستحبة، والتلطف معهما، وإظهار الفرح والاغتباط عند الدخول عليهما، والدعاء لهما مقابل جميل معروفهما، وعظيم صنيعهما، وتقبيل رؤوسهما والصدق في محبتهما، وطلب رضاهما، والبر بهما.

و«الوالدين» يشمل الآباء والأجداد، والأمهات والجدات، وكل من كان منهم أقرب كان حقه أعظم وألزم.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ بيان لقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: بيان وتفصيل للإحسان المأمور به في الآية.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «يبلغان» بألف مطولة بعد الغين وكسر النون على التثنية مع التشديد، وقرأ الباقون ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ بغير ألف وفتح النون على التوحيد.

و«إمّا» مركبة من «إن» الشرطية و«ما» التي للتوكيد، و﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعل الشرط والخطاب لكل ولد بمفرده، ذكرًا كان أو أنثى.

أي: إما يبلغن عندك أيها الولد الكبَر أحدُ والديك أو كلاهما، وبلوغ الكبر: الوصول إلى سن الكبر.

وخص هذه الحال- وإن كان برهما والإحسان إليهما واجب في كل حال بسبب

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)- من حديث معاذ- رضي الله عنه.

كبرهما وحاجتهما إلى مزيد من الإحسان والعطف عليهما، والعناية والتلطف بهما نظرًا لضعفهما، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وأيضًا فإن في هذه الحال يحتاج الولد إلى مجاهدة النفس أكثر لما فيها من مشقة القيام بشؤونهما، فلا يسأم من رعايتهما وخدمتهما، حتى ولو ساء خلقهما، ولا يستطيل حياتهما.

وقدم قوله ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على قوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إشارة- والله أعلم- إلى أن الغالب أن يموت أحد الوالدين إن لم يمت كلاهما قبل سن الكبر، وهذا هو الواقع، فقل أن يدرك الكبرُ الوالدين كليهما عند الولد.

وفي الآية من تحريك الشعور ما لا يخفى لمن وفقه الله، ويا غبطة من بلغ والداه الكبر عنده وسر بهما، وأحسن إليهما وخدمهما، وهذا أمر بعيد المنال.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ جواب الشرط «إن»، والفاء رابطة للجواب؛ لأنه جملة طلبية.

قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء من غير تنوين: «أُفَّ»، وقرأ نافع وأبوجعفر وحفص بكسر الفاء مع التنوين: ﴿أُفٍّ﴾، وقرأ الباقون بكسر الفاء من غير تنوين: «أُفِّ».

و«أُف» اسم فعل مضارع معناه أتضجر، وهذه الكلمة أدنى مراتب الأذى باللسان.

أي: لا تؤذهما بأي أذى مهما قل ولو كانت هذه الكلمة؛ لأنه إذا نهي عن هذه الكلمة فغيرها من الأذى بالقول والفعل مما هو أشد أولى بالنهي والتحريم.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقال: نهره وانتهره إذا زجره بالكلام، أي: ولا تزجرهما. وقال عطاء بن أبي رباح: «أي: لا تنفض يدك على والديك»(١).

عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال:**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٨).

يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»(١).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لعن الله من لعن والديه**»(٢).

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: قولًا جميلًا حسنًا طيبًا لينًا لطيفًا، بأدب وتوقير، يُدخل السرور عليهما وتنشرح به صدورهما، ويغتبطان به.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تذلل وتواضع لهما بفعلك، وليِّن جانبك لهما رحمة بهما وعطفًا عليهما.

وإذا كان الشرع رغب بالرحمة مطلقًا فمَن أولى من الوالدين بالرحمة؟! قال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله**»(٣).

وقال ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٤).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي: وقل داعيًا سائلًا الله- عز وجل: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾.

أي: يا رب ارحمهما برحمتك التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ الكاف للتعليل، أي: مجازاة لهما لأجل تربيتهما لي ورحمتهما إياي حال كوني صغيرًا.

وفي هذا اعتراف من الولد بجميلهما، وشكر لهما، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

كما أن في الآية إيذانًا بأن الدعاء لهما مستجاب؛ لأن الله- عز وجل- أمر به، وقد

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٨).

(٣) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)- من حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٨)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، وأبوداود في الجنائز (٣١٢٥)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨)- من حديث أسامة- رضي الله عنه.

قال ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**(١).

والبر بالوالدين والدعاء لهما من صفات الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام، كما قال عز وجل عن عيسى- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ [مريم: ٣٣]، وقال عز وجل عن يحيى- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾ [مريم: ١٤]، وقال إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، وقال أيضًا- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)﴾ [الشعراء: ٨٦]. وقال نوح- عليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾ [نوح: ٢٨].

والدعاء بالرحمة إنما يجوز للوالدين المؤمنين دون من كان كافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»**(٢).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيتين، السابقتين بعبادته وحده، وبالإحسان إلى الوالدين، ثم أتبع ذلك ببيان علمه- عز وجل- بما في النفوس، ومغفرته لمن كانوا صالحين، إذا

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٨٠)، والنسائي في الوصايا (٣٢٥١)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٧٦)، وأبوداود في الجنائز (٣٢٣٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٦٩).

آبوا إليه، وفي هذا إشارة إلى أنه قد لا يسلم الإنسان من التقصير وبخاصة مع والديه فعليه التوبة والإنابة إلى الله- عز وجل.

قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: خالقكم ومالككم، والمتصرف فيكم ﴿أَعْلَمُ﴾ على وزن «أفعل» صيغة تفضيل، و«ما» موصولة، أي: أعلم منكم ومن كل أحد بالذي في نفوسكم وقلوبكم من المضمرات، من قصد البر أو العقوق أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بإخلاص العمل لله- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، فهذان شرطان لصلاح العمل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو متبع الرسول ﷺ.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي: فإن ربكم كان للأوابين غفورا.

و«الأوَّابين» جمع أوَّاب، مشتق من الأوب، وهو الرجوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥]، أي: رجوعهم.

وكان ﷺ إذا رجع من سفر قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»(٢).

وقال عبيد بن الأبرص(٣):

وكل ذي غيبة يؤوب ... وغائب الموت لا يؤوب

والمراد بـ«الأوابين» التائبون المنيبون إلى الله- عز وجل، الراجعون من معصيته إلى طاعته، قال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٦)، ومسلم في الحج- ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٥)- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٣) انظر: ديوانه، ص(١٣).

وفي الحديث: «**صلاة الأوابين عندما ترمض الفصال**»[١].

﴿غَفُورًا﴾ أي: ذا مغفرة واسعة. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، فهو عز وجل يستر ذنوب الأوابين التائبين ويتجاوز عنها، فلا يؤاخذهم عليها.

فمن قصد الصلاح والبر بوالديه فإن الله يغفر له ما فرط منه في حقهما إذا آب وأناب إلى الله، ورجع عن ذلك.

وقد عظم الله عز وجل حق الوالدين في مواضع عدة من كتابه العزيز؛ لأنهما السبب الظاهر- بعد الله- عز وجل- في وجود الولد في هذه الحياة، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكيد حقهما ووجوب البر بهما، ولهذا قرن الله- عز وجل- حقهما بحقه وأوصى بهما في عدة مواضع في كتابه العزيز، فقال تعالى في هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قال: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما**

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٤٨)- من حديث زيد بن أرقم- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، والنسائي في المواقيت (٦١٠)، والترمذي في الصلاة (١٧٣).

ثم لم يدخل الجنة»[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: «**فهل أحد من والديك حي**»؟ قال: نعم بل كلاهما. قال: «**فتبغي الأجر من الله**»؟ قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»[٢].

وعنه- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك**» قال: نعم: قال: «**ففيهما فجاهد**»[٣].

وعنه- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال: «**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[٤].

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة قال أحدهم: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي يومًا طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج... الحديث»[٥].

وعن جاهمة السلمي- رضي الله عنه- أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك. فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم. فقال: «**الزمها فإن الجنة تحت رجليها**»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في البر- باب رغم أنف من أدرك أبويه (٢٥٥١)، وأحمد (٢/ ٢٤٦، ٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٤)، والنسائي في الجهاد (٣١٠٣)، والترمذي في الجهاد (١٦٧١).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣).

(٥) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)- من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٩)، والنسائي في الجهاد (٣١٠٤).

وقال ﷺ: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**»(١).

ورُويَ أن ابن عمر- رضي الله عنهما- رأى رجلًا يطوف بالكعبة حاملًا أمه. فقال الرجل: هل أديت حقها؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «لا، ولا بزفرة من زفراتها»(٢).

وفي رواية: أن هذا الرجل كان يُنشد:

إني لهـــا مطيـــة لا تـــذعر ... إذا الركـــاب نفـــرت لا تنفـــر
مـــا حملـــت وأرضـــعتني أكثـــر ... الله ربي ذو الجـــلال أكـــبر(٣)

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مالًا ووالدًا، وإن والدي يجتاح مالي. قال: «**أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم**»(٤).

ورُوي من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- من حديث طويل: أن النبي ﷺ قال للرجل: «**ائتني بأبيك**»، فلما جاء سأله النبي ﷺ: «**ماذا قلت في نفسك**»؟ فقال: لقد قلت في نفسي:

غـــذوتك مولـــودًا وعلتـــك يافعًـــا ... تُعـــلّ بـــما أَســـدي إليـــك وتنهـــل
إذا ليلـــة ضـــامك الســـقم لم أبـــت ... لســـقمك إلا ســـاهرًا أتملمـــل
كـــأني أنـــا المطـــروق دونـــك بـــالأذى ... طُرقـــت بـــه وحـــدي وعينـــي تهمـــل
تخـــاف الـــردى عينـــي عليـــك وإننـــي ... لأعلـــم أن المـــوت شيء مؤجـــل
فلـــما بلغـــت الســـن والغايـــة التـــي ... إليهـــا مـــدى مـــا كنـــت فيـــك أُؤمِّـــل

---

(١) أخرجه مسلم في العتق (١٥١٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٣٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٥٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٦٤).

(٣) انظر: «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣١٨)، «المحاسن والمساوئ» للبيهقي (١/ ٢٣٥).

(٤) أخرجه أبوداود في التجارات (٣٥٣٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩، ٢٠٤، ٢١٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨).

وقد أخرجه كثير من الأئمة من حديث جابر وعائشة وابن عمر- رضي الله عنهم وصححه جمع من أهل العلم ومنهم من حسنه وقد تقدم ذكر ذلك مستوفى في تفسير قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [الآية: ٤].

جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... عليّ بمال دون مالك تبخل

فأمسك النبي ﷺ بتلابيب ابنه، وقال: «**أنت ومالك لأبيك**»(١).

وجاء في بعض الروايات أنه لما جاء الأب وكان شيخًا كبيرًا يتوكأ على عصا، سأله النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه كان ضعيفًا وأنا قوي، وفقيرًا وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليَّ بماله، ثم التفت إلى ابنه منشدًا- وذكر الأبيات- فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «**ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى**» ثم قال للولد: «**أنت ومالك لأبيك**».

وعن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبدالله: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه**»(٢).

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه- قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما،**

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٧٠)، وفي «الصغير» (٩٤٧) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٤٥، ٢٤٦).

وهذه الرواية بذكر الشعر ضعَّفها بعض أهل العلم. أما بقية الحديث فقد أخرجه أ هل السنن وغيرهم من حديث جابر- رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» كما رواه بعضهم من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث ابن عمر- رضي الله عنهم. وقد سبق تخريجه مستوفى في تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [الآية: ٤].

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٢)، وأبوداود في الأدب (٥١٤٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٣).

وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»(١).

وعن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلقها، فأبيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**يا عبدالله، طلق امرأتك**»(٢).

بل إن الشرع أمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة(٣)، أفأصلها؟ قال: «**نعم صلي أمك**»(٤).

والأحاديث في بيان عظم حق الوالدين تجل عن الحصر، وحق الأم أعظم من حق الأب، لما لاقته من ثقل وآلام وأخطار الحمل والولادة، ومعاناة الإرضاع والتربية والرعاية والعناية؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(٥).

قال الشاعر:

لأمك حق لو علمت كثيرُ ... كثيرك يا هذا لديه يسيرُ
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها أنّة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة ... فمن غصص منها الفؤاد يطير

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٣٨)، والترمذي في الطلاق (١١٨٩)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٨).

(٣) أي: مشركة.

(٤) أخرجه البخاري في الهبة للمشركين (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة- فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٦٨)، وأحمد (٦/ ٣٤٤، ٣٤٧).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وكم غسلت عنك الأذى بيمينها وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها حنانًا وإشفاقًا وأنت صغير
فآها لذي عقل ويتَّبع الهوى وآهًا لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها فأنت لما تدعو إليه فقير[١]

ومن الطريف في هذا ما ذكر أنه جاء إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله رجل وقال له: يا شيخ، أنا بار بوالديَّ كل البر، وأنا أقوم بخدمتهما معًا، ومن ذلك أنني أُقدِّم لهما القهوة فبأيهما أبدأ؟ فقال له الشيخ: استمر على ما كنت عليه، فقال له: يا شيخ، أنا أخاف من العقوق، وألحَّ على الشيخ في هذا ثلاث مرات، فقال له الشيخ في المرة الرابعة: ما دمت ملحًّا، فالأولى أن تبدأ بأمك، فذهب الرجل كعادته ليقدم القهوة لوالديه، وأعطى أمه الفنجان قبل أبيه، فإذا بأبيه يلطمه تلك اللطمة الشديدة ليعود إلى الشيخ فيخبره بما جرى.

ولا شك أن الحق أحق أن يتبع، لكن في مثل هذا الأمر اليسير ينبغي مراعاة العرف وعدم التشديد على النفس، واستعمال الحكمة، وبخاصة إذا أدى الأمر إلى مفسدة أكبر، رحم الله شيخنا ابن باز فقد أوتي الحكمة فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن اتخاذ إلهًا آخر وإشراكه مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهذا النهي عام لكل فرد من أفراد الأمة.

٢- وجوب إفراد الله- عز وجل بالعبادة، وإخلاصها له، وتحريم اتخاذ شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٣- أن مصير وعاقبة من أشرك مع الله غيره الذم والخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فهو مذموم عند الله وعند الخلق، مآله النار، كما قال تعالى في الآية

(١) انظر: «الكبائر» للذهبي، ص(٤٨).

الأخرى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩].

٤- خذلان جميع المعبودات من دون الله- عز وجل- لعابديها؛ لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنهم من الله شيئًا.

٥- أن عبادة الله- عز وجل- وحده أول وأعظم حق على العباد؛ لأن الله بدأ بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٦- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبية الله الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ وهو تشريف وتكريم له ولأتباعه؛ لأن الخطاب له ولهم.

٧- وجوب الإحسان إلى الوالدين، بأداء حقوقهم الواجبة واستحباب الإحسان إليهم بأنواع الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٨- عظم حق الوالدين والإحسان إليهما؛ لأن الله قرن حقهما بحقه- عز وجل- في هذه الآية وفي مواضع كثيرة من كتابه الكريم.

٩- تأكد حاجة الوالدين إلى الإحسان إليهما عند كبرهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية.

١٠- الإشارة إلى أنه قد يتوفى الوالدان قبل الكبر، وقد يبلغه أحدهما، وقلّ أن يبلغه كلاهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ففي هذا إشارة إلى قلة ذلك، وفي تقديم ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على ﴿كِلَاهُمَا﴾ إشارة إلى أن بلوغهما الكبر معًا أقل وأندر وفي هذا من تحريك مشاعر الولد ما يكفي- لمن وفقه الله.

١١- تحريم أذية الوالدين بأي نوع من الأذى مهما قلّ، قولًا كان أو فعلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وإذا حرم أن يقال لهما ﴿أُفٍّ﴾ فما فوق ذلك أولى بالتحريم.

١٢- وجوب معاملة الوالدين بالقول الكريم، الجميل الحسن الطيب اللين، والتلطف معهما وتوقيرهما واحترامهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

١٣- وجوب معاملة الوالدين بالفعل الطيب بخفض الجناح ولين الجانب

والتواضع لهما رحمة بهما وعطفًا عليهما، لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾.

١٤- الترغيب بالاتصاف بالرحمة وبخاصة مع الوالدين.

١٥- إبطال القول بوجود المجاز في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾، فالسياق يدل على أن المراد بخفض الجناح لهما: لين الجانب والتواضع والتذلل لهما، وليس ذلك من المجاز أو التشبيه في شيء[1].

١٦- أن من حق الوالدين على الولد أن يدعو ربه أن يرحمهما جزاء تربيتهما له حال صغره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾.

١٨- ينبغي مكافأة الجميل بمثله، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

١٩- تحريم عقوق الوالدين والتقصير في حقوقهما والإساءة لهما؛ لمفهوم قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ الآيات.

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئًا. فقال: ألا وقول الزور» قال: فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت**»[2].

وعن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال**»[3].

وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر**»[4].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»(٢٠/ ٤٠٠، ٤٥٨، ٤٦٢- ٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض وأداء الديون (٢٤٠٨)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣).

(٤) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٦٧٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»(١).

٢٠- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه النفوس والقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾، وفي هذا وعد ووعيد.

٢١- مغفرة الله- عز وجل- للأوابين التائبين ما قد يفرط منهم في حق الوالدين، أو غير ذلك، إذا صلح العمل وحسن القصد؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

٢٢- الترغيب في الصلاح بالإخلاص والمتابعة، وبالتوبة والرجوع إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

٢٣- سعة مغفرة الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾.

٢٤- في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾، إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الإحسان والبر بالوالدين خالصاً لله تعالى، وطلباً لرضاه في رضاهما؛ وذلك بكون الإحسان إليهما والبر بهما بمبادرة من الولد، وتلمُّسًا منه لحاجتهما- دون طلب منهما- وهذا غاية الإحسان والبر، بحيث يكون الولد فرحاً مغتبطاً متلذذاً بخدمتهما؛ رحمة بهما، وشفقة وعطفاً عليهما؛ مستبشراً بذلك رجاء موعود الله تعالى.

أما أن يكون الإحسان إليهما والبر بهما موقوفاً على طلب منهما فهذا دون الأول أضعافاً مضاعفة، وشتان بين الثرى والثريا:

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان

فمبادرة الولد بنفسه للإحسان إلى والديه والبر بهما وقضاء حوائجهما، تُدخل عليهما من السرور والسعادة والاطمئنان وراحة النفس والبال والاغتباط بولدهما؛ ما لا يحيط به الوصف، بخلاف ما إذا كان الولد ينتظر بالإحسان إليهما وقضاء حوائجهما طلبهما منه ذلك؛ فإن هذا يشوبه أمور عدة؛ منها:

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٥)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٢).

أن الوالد لِما جُبل عليه من الشفقة على الولد والرحمة، قد لا يُبدي بعض حاجاته لولده رفقاً به وتخفيفاً عنه، ونحو ذلك.

ومنها: أن الولد قد لا يسلم من وجود بعض التبرُّم أوالاستثقال لطلب والده، وإن قام بذلك قام به على مضض «مكره أخاك لا بطل»، وهذا أقل أحواله: أنه يُخاف عليه ألا يؤجر على ذلك.

ومنها ما هو أشد وأعظم وأخطر، وهو: أن يمتنع من تلبية طلب والده مما هو في مقدوره، فيكون عاقًّا. فلا تسأل عن حاله ومآله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، فقد أمر- عز وجل- في الآيات السابقة بعبادته وحده، وبالإحسان إلى الوالدين، بأداء حقوقهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بإيتاء ذي القربى حقه؛ لأن القرابة متشعبة عن الوالدين، وهو أشبه بعطف العام على الخاص.

والخطاب في قوله: ﴿وَءَاتِ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، و﴿ذَا﴾ بمعنى صاحب، و«ال» في ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ للجنس، أي: وأعط القرابة حقهم الواجب والمسنون من البر والصلة والمواساة، والإحسان والإكرام، قولًا وفعلًا وبذلًا.

وقوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ولم يقل: «القريب»؛ ليصدق على كل ذي قرابة قريب أو بعيد- وإن كان القريب أولى.

وحق ذوي القربى من أعظم الحقوق فعن أبي أيوب- رضي الله عنه- أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال النبي ﷺ: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**»[1].

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣)، والنسائي في الصلاة (٤٦٨).

فقرن ﷺ بين عبادة الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصلة الرحم.

وقد أثنى الله- عز وجل- على الواصلين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١].

كما توعَّد- عز وجل- أهل القطيعة وذمَّهم فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥].

وفي الحديث القدسي أنه لما خلق الله الخلق قامت الرحم وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال عز وجل: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك**»[(١)].

ولهذا قال ﷺ: «**الصدقة على ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة**»[(٢)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول**»[(٣)].

وعن طارق المحاربي- رضي الله عنه- قال: «قدمنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «**يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»[(٤)].

وعن أنس- رضي الله عنه- أنه لما أراد أبوطلحة أن يتصدق بحائطه المسمى

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٨٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤).
(٤) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٣٢).

«بيرحاء» قال له ﷺ: **«وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»** فقال أبوطلحة: «أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه»[(١)].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»**[(٢)].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي. فقال: **«لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»**[(٣)].

وفي حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: **«ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»**[(٤)].

وعن جبير بن مطعم- رضي الله عنه- أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنة قاطع»**[(٥)] يعني قاطع رحم.

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم»**[(٦)].

﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ المحتاج الذي لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة؛

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، وأبوداود في الزكاة (١٦٨٩)، والنسائي في الأحباس (٣٦٠٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع- من أحب أن يبسط له في رزقه (٢٠٦٧)، ومسلم في البر والصلة- صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٣).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٩).

(٦) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢١١).

لأن الفقر أسكنه وأذله، فيعطى حقه من الزكاة الواجبة، ومن الصدقة المستحبة، وما يحتاجه من توجيه ورعاية أو مساعدة بدنية، أو غير ذلك مما تصلح به حاله.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع به فيعطى حقه من الزكاة، والضيافة وما يحتاجه في سفره من الدلالة على الطريق وحمل متاعه وإنزاله، ونحو ذلك.

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

﴿تَبۡذِيرًا﴾ مصدر مؤكد للنهي، والتبذير: الإسراف وتفريق المال في غير وجهه، كالإنفاق في الفساد والمعاصي ولو كان قليلًا، والزيادة في الإنفاق بالمباح، أما الإنفاق في وجوه البر فيرى طائفة من أهل العلم أنه ليس فيه تبذير مهما بلغ، وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا إلى الصدقة فجاء عمر بنصف ماله، وجاء أبوبكر- رضي الله عنهما- بكل ماله[1].

لكن مجيء جملة: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ معترضة بين قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وبين قوله: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ الآية. يدل على أن التبذير قد يكون في وجوه البر.

وقد قال ﷺ لسعد: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[2].

ولا شك أنه لا ينبغي أن ينفق الإنسان ماله على وجه يضر به بحيث يصير هو ومن تحت كفالته عالة على الآخرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ الجملة تعليل للنهي المؤكَّد عن التبذير، و«ال» في ﴿ٱلۡمُبَذِّرِينَ﴾ للجنس.

﴿إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أي: أمثال وأشباه الشياطين في كفر نعمة الله، وأتباعهم على الباطل وقرناءهم في الشر وفي النار.

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)- من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: جحودًا لربه، منكرًا لنعمه، صارفًا لها بالكفر والإفساد وإضلال الناس، وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه عليهم.

والمراد بالربوبية في قوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ الربوبية العامة لجميع الخلق، وفيه إشعار بشدة عتو الشيطان وتمرده؛ لأن الربوبية تستوجب الشكر فمقابلتها بالكفر غاية الكفران ونهاية الضلالة والطغيان.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨)﴾.

أمر عز وجل بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ونهى عن التبذير، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا لم يتمكن من الإحسان الفعلي لهم فلا يعدم الإحسان القولي.

قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الواو: للاستئناف، و«إن» شرطية و«ما» زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإن تعرضنَّ عنهم.

والخطاب في قوله: ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ للمخاطب بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الآية.

والضمير في قوله: ﴿عَنْهُمُ﴾ يعود إلى من أُمر بإيتائهم حقوقهم، وهم ذوو القربى والمسكين وابن السبيل.

والإعراض: ضد الإقبال، مشتق من «العُرض» أي: الجانب، يقال: أعرض، إذا أعطى جانبه، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣].

أي: وإما تعرضنَّ عن المذكورين حياءً من الرد لعدم الجدة، ولم يصرح بذلك بل أقام مقامه. قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ تلطفًا كأن إعراضه عنهم لأجل السعي لهم لا بسبب الفقر.

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: طلب رحمة من ربك تؤمل أن ييسرها لك.

والمراد بالرحمة هنا الرزق، فالمعنى: طلب وانتظار رزق تؤمل أن يسوقه ربك إليك فتعطيهم منه.

وإطلاق الرحمة على الرزق أمر معلوم فتطلق الرحمة على المطر وهو من أعظم الرزق، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

وقال- عز وجل- عن الجنة وهي أعظم الرزق: «**أنت الجنة رحمتي أرحم بك من**

أشاء»[١].

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: فلا تؤيسهم وقل لهم قولًا سهلًا لينًا طيبًا، فيه شيء من الاعتذار والوعد الحسن لهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

أي: فإذا لم يمكن الإحسان الفعلي إليهم لعدم الجدة، فلا يُعدم الإحسان القولي لهم بالقول الميسور الطيب، والاعتذار الجميل، والوعد الحسن جبرًا لخواطرهم، وكما قيل:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم يسعد الحال[٢]

وقيل: المعنى: وإما تعرض عنهم فلا تعطيهم طلب رحمة من ربك في المنع عنهم خوفًا أن يصرفوه فيما لا ينبغي من التبذير والفساد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة عن التبذير، ثم نهى في هذه الآية عن التقتير، مؤكدًا النهي عن التبذير؛ ليكون الإنفاق وسطًا بين التقتير والتبذير.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي: ولا تكن شحيحًا مقترًا منوعًا للنفقة والحقوق الواجبة والمستحبة، فشبه الشحيح المقتر بما عليه من النفقات بمن غُلت يده، أي: شدت وربطت، بالغل وهو القيد إلى عنقه، فلا يستطيع أن يمدها أو يتصرف فيها، أو يعطي فيها شيئًا، وغل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها، وفي هذا ما فيه من التنفير من الشح والبخل.

وقد قال ﷺ: «**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٤٨٦).

وتعفو أثره[١]**، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع»**[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك»**[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله- عز وجل: أَنفق أُنفق عليك»**[٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفا»**[٥].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[٦].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»**[٧].

﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ معطوف على ما قبله، وبين الجملتين طباق.

والبسط: المدّ، ضد «الغل» و«القبض»، أي: ولا تبسط يدك وتمدها في الإنفاق.

---

(١) أي: تمحو أثر مشيته وتطمسه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة- مثل المتصدق والبخيل (١٤٤٤، ومسلم في الزكاة- باب المنفق والبخيل (١٠٢١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة- هبة المرأة لغير زوجها (٢٥٩١١)، ومسلم في الزكاة- الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء (١٠٢٩)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٠).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٠).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩).

(٧) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٩٨).

﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: غاية ونهاية البسط، أو البسط كله، فتبذر وتسرف، بل كن وسطًا بين الأمرين، كما قيل:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميم[(١)]

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ الفاء: للسببية، و﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ حالان، أي: فتقعد بسبب جعل يدك مغلولة إلى عنقك، أو بسطها كل البسط: ملومًا محسورًا، والمراد بالقعود تحول الحال، أي: فتصير ملومًا محسورًا.

وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت وشححت بالمال ملومًا يلومك الناس، وبخاصة أصحاب الحقوق والحاجات من القرابة والفقراء وأبناء السبيل وغيرهم، ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير[(٢)]:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

وكما قيل: إن البخيل ملوم حيثما كانا.

وتقعد إن بذّرت وأسرفت ﴿مَّحْسُورًا﴾ و«محسور» على وزن «مفعول» بمعنى «فعيل». أي: وتقعد حسيرًا، والحسير: العاجز المنهوك القوى، يقال: بعير حسير، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٤].

والمعنى: فتصير حسيرًا لا شيء عندك تنفقه، حاسر اليد فارغها، نادمًا متحسرًا بسبب التبذير، عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عال من اقتصد**»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

أمر عز وجل بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ونهى عن التبذير والبخل، وفي ذلك أمر بالاعتدال بالإنفاق، ثم أخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء

---

(١) البيت لأبي سليمان الخطابي، كما في كتاب «العزلة» له (ص٩٧)، وفي «قرى الضيف» لابن أبي الدنيا (٤/ ٣٨٥).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧).

ويقدره على من يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، فلا يظن الممسك أن الشح مبق للمال، ولا يخشى المعتدل في الإنفاق العيلة، فالرزق على الله، ولا يأمن المبذر سوء عاقبة التبذير والفقر، ولا يجزع من ضيق عليه رزقه، فلله الحكمة في ذلك كله وهو الخبير البصير.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ الخطاب لكل من يصلح خطابه.

و﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ويزيده، والرزق: العطاء.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: للذي يريد من عباده، والمشيئة: الإرادة الكونية.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق الرزق على من يشاء، وكل ذلك لحكمة يعلمها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: إنه كان بعباده ذو خبرة تامة، يعلم ما بطن ودق وخفي منهم ومن أخبارهم و«الخبير» العليم بالأخبار.

﴿بَصِيرًا﴾ أي: ذو بصر واطلاع وعلم بهم، فيعلم ما ظهر وجلّ وجلي منهم ومن أحوالهم و«البصير» العليم بالمبصرات.

ولهذا فهو سبحانه أعلم بالأصلح والمناسب لكل منهم من بسط الرزق أو تقديره. وفي الحديث: «**إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه**»(١).

وبسط الرزق أو تضييقه ليس دليلًا على رضا الله عن العبد أو سخطه عليه.

عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**»(٢).

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه الطبراني وغيره- فيما ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٣). وضعفه ابن رجب وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٩٤)- عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز- رحمه الله- في تعليقه على تفسير ابن كثير عند هذه الآية: «هذا من الآثار التي لا يعلم لها سند و معناه صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧).

قـد يـنعم الله بـالبلوى وإن عظمـت ويبتلـي الله بعـض القـوم بالنعـم[(١)]

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

نهى عز وجل في الآيات السابقة عن الشح والتبذير، وبيّن أنه المتكفل بأرزاق العباد يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ثم أتبع ذلك بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر مبينًا أن رزق الجميع على الله- عز وجل.

قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ ﴾.

الإملاق: الفقر والعيلة، أي: ولا تقتلوا أولادكم خوف الافتقار والعيلة.

وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم الذكور والإناث مخافة الفقر، كما قد يقتلون البنات أيضًا مخافة العار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، فنهاهم الله عن ذلك وضمن لهم أرزاقهم فقال:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ ﴾ الجملة تعليلية معترضة بين قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

وقد قدم هنا رزق الأولاد فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ ﴾؛ لأن الإملاق متوقع فقط بينما قدم في سورة الأنعام رزق الأولياء، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وذلك لأن الإملاق واقع.

والرزق: العطاء، أي: نحن نعطيهم الرزق في الصغر والكبر، ﴿وَإِيَّاكُمْۚ﴾ الآن بإغنائكم. وفي الآية إشارة إلى أن رزق الوالدين قد يكون بسبب الأولاد.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ جملة تعليل ثان للنهي و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان.

قرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها (خِطاءً)، وقرأ أبوجعفر وابن ذكوان عن ابن عامر بفتح الخاء والطاء من غير ألف ولا مد (خَطَأً) على وزن «نبأ»، وقرأ الباقون بكسر الخاء وإسكان الطاء ﴿خِطْـًٔا ﴾.

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص ٥٧٧).

و«الخَطَأ» بفتح الخاء والطاء ضد العمد، وضد الصواب، وهو المراد هنا، و«الخِطْء» بكسر الخاء وسكون الطاء مصدر «خطئ» على وزن «فرح» إذا أصاب إثمًا متعمدًا، فالخِطْء: الإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨]، وقال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: ١٦].

والمعنى: إن قتلهم كان إثمًا كبيرًا من كبائر الذنوب، وذنبًا عظيمًا مجانبًا للصواب.
عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» قلت: ثم أي: قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ معطوف على ما قبله، فنهى عن قتل الأولاد، ثم أتبعه بالنهي عن الزنا؛ وكل منهما من أعظم الكبائر، وفيهما قطع للنسل.

والنهي عن قرب الزنا أبلغ من النهي عن الزنا مباشرة؛ لأن النهي عن قرب الزنا معناه النهي عن الزنا، وعن الوسائل المؤدية إليه وأسبابه ودواعيه، كالخلوة بالأجنبية والنظر المحرم، ونحو ذلك؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

و«الزنا» بالقصر، وبالمد «الزناء» والقصر أولى. وهو «غيبوبة حشفة الرجل في فرج امرأة لا تحل له».

أي: إتيان الرجل المرأة بطريق الحرام، كما قال ماعز- رضي الله عنه- لما سأله الرسول ﷺ: «أتعرف الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا»(٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ تعليل للنهي، أي: لأنه كان فاحشة، أي: فعلة قبيحة متناهية القبح، وفي غاية الفحش، في الشرع والعقل والفطر السليمة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبوداود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).
(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٢٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

قال ابن القيم[١]: فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان. عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم»[٢].

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقًا طريقه، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة. وقد قيل: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر ولو بعد حين».

وذلك لما فيه من ارتكاب ما حرّمه الله، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وإلحاق الضرر بالمرأة وأهلها وزوجها، والأمراض الخطيرة والمستعصية، وضياع المقاصد الشريفة للنكاح، إلى غير ذلك من المفاسد والأضرار العظيمة على الفرد والمجتمع في الدين والدنيا، وإذا كان الله- عز وجل- وصفه بأنه فاحشة وساء سبيلًا فلا يقدر قدر فحشه وقبحه وسوء مسلكه إلا هو- سبحانه وتعالى.

عن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: «إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: **«ادنه»** فدنا منه قريبًا، فقال: **«اجلس»** فجلس. قال: **«أتحبه لأمك»**؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: **«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»**. قال: **«أفتحبه لابنتك»**؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: **«ولا الناس يحبونه لبناتهم»**. قال: **«أتحبه لأختك»**؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: **«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»**. قال: **«أتحبه لعمتك»**؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: **«ولا الناس يحبونه لعماتهم»**. قال: **«أفتحبه لخالتك»**؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: **«ولا الناس يحبونه لخالاتهم»** قال: فوضع يده عليه، وقال: **«اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»**. قال: فلم يكن ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٧٨- ٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- القسامة في الجاهلية (٣٨٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٦- ٣٥٧).

قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، وهي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب الحق، أي: إلا بسبب أن الحق أوجب قتلها.

ويجوز أن يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾ حالًا من فاعل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ﴾ أي: إلا حال كونكم متلبسين بالحق، ويجوز كونه نعتًا لمصدر محذوف، أي: إلا قتلًا متلبسًا بالحق.

ومعنى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا إذا ارتكبت ما تستحق به القتل، كالقتل العمد، والزنا بعد الإحصان، والردة عن الإسلام، كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**»[١].

وقد شدد الشرع في حرمة الدماء والأنفس المعصومة؛ لأنها من الضروريات الخمس التي جاء الإسلام للحفاظ عليها وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم**»[٢].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ﴾ و«من»: شرطية و﴿قُتِلَ ﴾ فعل الشرط، و﴿مَظْلُومًا ﴾ حال، أي: حال كونه مظلومًا، أي: بغير حق.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط. و«قد»: للتحقيق.

أي: فقد جعلنا شرعًا ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لولي المقتول ظلمًا، وهم عصبته وورثته.

﴿سُلْطَانًا ﴾ أي: تسلطًا وحجة ظاهرة على القاتل في الاقتصاص منه إن شاء ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وابوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤).

(٢) أخرجه النسائي في تحريم (٣٩٨٦)، والترمذي في الديات (١٣٩٥) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

وإن شاء عفا عنه إلى الدية، وإن شاء عفا عن القصاص والدية، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال ﷺ: «**ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُفدى، وإما أن يقتل**»[١].

فالحق في القصاص للولي لكن ذلك منوط بالسلطان، فلا يتولى الولي بنفسه قتل القاتل دون حكم السلطان درءًا للفتنة والتقاتل.

﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «فلا تسرف» وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿فَلَا يُسۡرِف ﴾.

والإسراف: تجاوز الحد المباح، أي: فلا يتجاوز الولي في القصاص الحد المباح له وهو قتل القاتل قصاصًا، فلا يمثل به، أو يقتله ويقتل غيره، أو يقتل غيره.

كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا لم يتمكنوا من قتل القاتل قتلوا غيره من قبيلته. وكانوا يقتلون بالأنثى ذكرًا وبالرجل رجلين.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴾ تعليل للنهي السابق. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى الولي، أي: فلا يسرف في القتل؛ لأنه كان منصورًا معانًا شرعًا على القاتل، وغالبًا قدرًا[٢]؛ لأن الحق له؛ ولهذا لا يُقتص من القاتل إلا بإذنه، فإن عفا سقط القصاص.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ ﴾.

نهى عز وجل عن قتل الأولاد وعن قرب الزنا وعن قتل النفس بغير حق، ثم أتبع ذلك بالنهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وكل هذه المنهيات من الكبائر العظيمة التي اتفقت الشرائع على تحريمها، من أحوال أهل الجاهلية.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١٢)، ومسلم في الحج (١٣٥٥)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٧١).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

﴿ٱلْيَتِيمِ﴾ من فقد أباه وهو دون البلوغ ذكرًا كان أو أنثى، فإذا بلغ زال يتمه، لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١).

﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والمعنى: لا تقربوا مال اليتيم بحال من الأحوال إلا بالحال التي هي أحسن، وهي حفظه وصيانته والمتاجرة به لمصلحة اليتيم ونحو ذلك.

والنهي عن قرب مال اليتيم أبلغ من النهي عن أخذه وأكله، لأنه نهى عن ذلك وعن الأسباب المؤدية إليه.

فلا يجوز التصرف في مال اليتيم لمصلحة غيره، ولا تجوز المخاطرة به، كما لا يجوز أكله. قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى متوعدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وقال ﷺ: «**إني أُحَرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»(٢).

وقال ﷺ لأبي ذر- رضي الله عنه: «**يا أبا ذر، إنك إنسان ضعيف، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَولينَّ مال يتيم**»(٣).

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية لجواز التصرف بمال اليتيم على الوجه الحسن.

أي: إلى غاية بلوغه أشده، ببلوغه النكاح، ورشده وحسن تصرفه بتدبير ماله، فتزول وترتفع عنه الولاية، ويصير ولي نفسه، ويدفع إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ [النساء: ٦].

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣)- من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه- وله شاهدان- من حديث جابر وأنس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٧٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٨)، وأحمد (٥/ ٧٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ «ال»: للجنس، أي: أوفوا بجميع العهود والعقود مما عاهدتم الله عليه، ومما عاهدتم عليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، والوفاء بالعهد إتمامه وعدم نقضه وهو واجب؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ الجملة تعليلية، وأظهر في مقام الإضمار بإعادة لفظ «العهد» فلم يقل: «إنه كان مسؤولًا»، للاهتمام به، أي: إن العهد كان مطلوبًا الوفاء به، ومسؤولًا صاحبه عن نقضه إياه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ۝٣٥﴾.

قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ أي: وأتموا الكيل إذا كلتم للناس ولا تنقصوه وتبخسوه وتطففوه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: ٨٤، ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣].

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون «القُسطاس» بضمها.

والقسطاس: اسم للميزان الحسي آلة الوزن، واسم للعدل المعنوي.

﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ السوي المعتدل بلا اعوجاج، ولا خديعة.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ الإشارة إلى الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

وقوله: ﴿خَيۡرٞ﴾ أي: الوفاء بالكيل، والوزن بالعدل خير خيرية مطلقة لما يترتب على العدل من قيام أمور الدين والدنيا، وإعطاء الحقوق لأربابها، وانتظام الحياة

والمعاش، وحصول البركات وكثرة الخيرات.

كما أن نقص الكيل والوزن والظلم سبب لمحق البركات وقلة الخيرات، وظهور الفساد، قال ﷺ: «**ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان**»(١).

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن مآلًا وعاقبة في الآخرة؛ لما يترتب عليه من الثواب العظيم، والسلامة من مغبة البخس والجور والظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا تبعه مشتق من «القفا»، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: ٢٧].

ومنه سُمي نبينا ﷺ «المُقَفِّي»(٢)؛ لأنه جاء آخر الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام، وسمي القافة؛ لأنهم يتتبعون الآثار، وسمي القائف لأنه يتبع أثر الشبه، وسميت قافية الشعر؛ لأنها تقفو البيت.

قال الكميت(٣):

فلا أرمي البريء بغير ذنب ... ولا أقفو الحواصن إن قُفينا

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أي: الذي ليس لك به علم.

قال قتادة: «لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله»(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)- من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣٥٥)، وأحمد (٥/ ٤٠٥)- من حديث حذيفة- رضي الله عنه.

(٣)انظر: «ديوانه» (ص٤٦٦).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٤).

والمعنى: لا تتبع ما لا علم لك به، فلا تقل ما لم تعلم، ولا تعمل بما لا تعلم.

ولا تتدخل فيما لا يعنيك، كما قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[(١)].

وقال ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[(٢)].

ويدخل في الآية دخولًا أوليًا شهادة الزور وقول الزور والزعم الباطل والقذف، وتحقيق الظن الكاذب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تر**»[(٤)]، وقال ﷺ: «**بئس مطية الرجل زعموا**»[(٥)].

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

المراد بـ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ جارحة السمع والبصر، والفؤاد، وهو القلب. وأشير إليها بإشارة من يعقل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنزيلًا لها منزلة من يعقل، لأنها طريق العقل.

وأيضًا فإن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قد تستعمل لغير العاقل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال الشاعر[(٦)]:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

والمعنى: إن كل هذه الجوارح يسأل الإنسان عنها يوم القيامة. هل استعملها في

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٧١١)، والترمذي في صفة لقيامة (٢٥١٨)، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٣)- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٧٢) من حديث حذيفة أو أبي مسعود- رضي الله عنهما.

(٦) البيت لجرير، انظر: «ديوانه» ص(٤٥٢)، وانظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ١٨٥)، «شرح شواهد الكافية» (٤/ ١٦٧). والبيت في ديوان جرير: والعيش بعد أولئك الأقوام وعلى هذا لا شاهد فيه.

طاعة الله- عز وجل- وما خلقت له، أو استعملها بضد ذلك.

فيسأل الإنسان عن سمعه، هل استمع به لنداء الحق ودعوته أم لا؟ ولماذا استمع به إلى اللغو والباطل وما لا يعنيه؟

قال ﷺ: «**من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يفرون منه صب في أذنيه الآنك يوم القيامة**»(١).

كما يسأل الإنسان عن بصره وهل أبصر به آيات الله الشرعية والكونية، أم لا؟

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

ويسأل لماذا نظر به إلى ما حرمه الله عليه من عورات الناس، ومما يفسد العقائد والأخلاق، قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

كما يسأل الإنسان عن فؤاده وقلبه يوم يُحَصَّل ما في الصدور، بل المسؤولية على القلب أعظم لأنه أمير الجوارح كما قال ﷺ: «**إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٢).

يسأل عن قلبه، وهل فكر فيه وتأمل في آيات الله الشرعية والكونية، أم لا؟ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

ويسأل عن قلبه لماذا جعله تبعًا لهواه، وجعله مرتعًا لأمراض الكفر والشك والنفاق والحقد والحسد وسوء الظن، وقد قال الله- عز وجل: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، وأبوداود في الأدب (٥٠٢٤)، والترمذي في اللباس (١٧٥١- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، أي: سليم بإخلاص العمل لله، وسليم من الحسد والحقد وغير ذلك على عباد الله.

وقد قيل:

وآفـة العقـل الهـوى فمـن عـلا ... علـى هـواه عقلـه فقـد نجـا(١)

وإنما خصت هذه الجوارح الثلاث بالذكر وهي السمع والبصر والفؤاد، لأنها أعظم الجوارح، وبقية الجوارح تبع لها، فالقلب عليه مدار صلاح الجسد وفساده، والسمع والبصر هما الطريقان المؤديان إليه الخير أو الشر.

ولهذا ذم الله- عز وجل- المنافقين والكفار، لعدم انتفاعهم بهذه الجوارح، قال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وكما أن الإنسان مسؤول عن هذه الجوارح فهي أيضًا مسؤولة عما عمل فيها، وكذا بقية الجوارح، قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه الوصايا والمنهيات الخمس عشرة من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى هنا بالنهي عن الاختيال والمشي في الأرض مرحًا، وهو أمر يتعلق بهيئة الإنسان، وما قبله يتعلق بأقواله وأفعاله.

قوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ ﴿مَرَحًاۖ﴾ حال، أي: مختالًا معجبًا بنفسك متكبرًا.

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ تهكم بهذا المرح المختال في مشيته، أي:

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣)، وانظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

إنك لن تخرق الأرض التي تحتك بوطء قدميك عليها مهما شددت، ولن تبلغ بتطاولك في مشيتك طول الجبال مهما تطاولت، فما الذي يغريك بهذه المشية؟ وما هذا الغرور؟

وفي هذا ذم وتحقير للمرح المختال المتكبر في مشيته، وتقليل من شأنه، أي: أين أنت من الأرض ذات العمق العظيم، وأين أنت من الجبال ذات الطول والشموخ، لست بشيء بالنسبة لذلك، فهوّن على نفسك، واعرف ضعفك.

ويكفي ذمًا للاختيال والكبر أنه صفة إبليس لعنه الله، حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، وأبى السجود لآدم وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، يغشاهم الذل**»[١].

وقال ﷺ: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[٢].

وقد أحسن القائل:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع[٣]

وقال الآخر:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ... فإن رفيع القوم من يتواضع[٤]

وقال الآخر:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا ... فكم تحتها قوم هُمُ منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم همُ منك أمنع[٥]

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيتان لموسى بن علي بن موسى الزرزاري، كما في «أعيان العصر وأعوان النصر» (٥/ ٤٧٩).

(٤) البيت بلا نسبة في «جواهر الأدب» (٢/ ٤٨٠).

(٥) البيتان للكريزي، كما في «روضة العقلاء» (ص٦١).

قال القاسمي[1]: «قال الناصر: ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينما أحدهم قد عرف مسألتين، أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفًا من رياسة الدنيا، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون. وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل والله ولي التوفيق».

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وخلف ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ بضم الهمزة وهاء ضمير في آخره، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتاء تأنيث منصوبة في آخره «سيئَةً».

والإشارة ترجع إلى كل ما نهى الله عنه من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿مَكْرُوهًا﴾، وقدم عليه للاهتمام، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

والمعنى على القراءة الأولى ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة: كل الذي ذكرنا من الأوامر والنواهي ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ أي: قبيحه، وهو مخالفة المأمور وارتكاب المنهي مكروهًا عند الله، يكرهه ويأباه ولا يرضاه.

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: كل الذي نهينا عنه في هذه الآيات «سيئة» أي: فعلة قبيحة وعمل سيئ يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره، ويكرهه الله ويأباه ولا يرضاه.

قال ابن القيم: «﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها، والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم الآية بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: مخالفة هذه الأوامر، وارتكاب هذه المناهي سيئة مكروهة لله»[2].

(١) في «محاسن التأويل» (٦/ ٤٦١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٧٧).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

ختم الله- عز وجل- ما ذكره من الوصايا في هذه الآيات بالإشارة إلى عظمة ذلك وامتدحه، وأنه مما أوحاه إلى نبيه ﷺ من الحكمة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق في الآيات من الوصايا وأشار إليه بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيمًا له. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة.

أي: ذلك من الذي أوحاه وأنزله إليك ربك من الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ وهي معرفة الحقائق على ما هي عليه، من بيان الخير والشر، والضار من النافع، والأمر بالخير والنهي عن الشر، والأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق، والنهي عن مساوئ الأعمال وأراذل الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[1].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»[2].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ تأكيد وتفسير، لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨).

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، اهتمامًا بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده.

أي: ولا تتخذ مع الله معبودًا آخر، أي: أخلص العبادة لله وحده، وهو نهي له ﷺ- ولأفراد أمته، قال ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١].

وقال تعالى مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وقال تعالى لما ذكر هدايته لأنبيائه ورسله ومن شاء من عباده: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فترمى وتطرح في جهنم، والإلقاء: رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

﴿مَلُومًا﴾ حال، أي: حال كونك ملومًا تلومك نفسك على الإشراك بالله، وإيقاعها في الهلاك والنار، ويلومك الناس والملائكة وغيرهم.

﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا عن رحمة الله وجنته، وعن كل خير.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إيتاء ذي القربى حقه ببره وصلته والإحسان إليه؛ قولًا وفعلًا وبذلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

٢- وجوب إيتاء المسكين حقه والعطف عليه ومساعدته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾.

٣- وجوب إعطاء ابن السبيل وهو المسافر حقه من الضيافة والمساعدة والدلالة وما يحتاجه في سفره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٤- أن الدين الإسلامي دين التكافل الاجتماعي بأسمى صوره ومعانيه.

٥- تحريم التبذير والإسراف بالإنفاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ وهذا يشمل الإنفاق في الفساد والمعصية وإن قل، كما يشمل تجاوز الحد في الإنفاق في المباح، بل ويشمل تجاوز الحد في الإنفاق في المندوب إذا أدى ذلك إلى احتياج الشخص إلى

الآخرين، وكونه عالة عليهم وما دون ذلك لا يعد تبذيرًا.

٦- تأكيد تحريم التبذير والتنفير منه بوصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين وأمثالهم وأتباعهم وقرناؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

٧- كفر الشيطان بربه- عز وجل- وبشرعه ونعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

٨- التحذير من اتباع الشيطان وخطواته، وأعوانه.

٩- إذا لم يستطع الإنسان الإحسان الفعلي لذي القربى والمسكين وابن السبيل بالبذل لهم بسبب فقره فلا يعدم الإحسان القولي بالاعتذار لهم بالقول الطيب، والوعد الحسن بإعطائهم إذا رزقه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

١٠- لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها وما آتاها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١١- ينبغي أن يكون المسلم راجيًا رحمة الله- تعالى، وأن يكون أوثق بما عند الله تعالى مما في يده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: رجاء أن يرزقك الله فتعطيهم.

١٢- لا رازق إلا الله- عز وجل- وحده، ولا راحم سواه.

١٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمن وتشريفه وتكريمه بخطاب الله له وإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، ويجوز حمل الخطاب على العموم فيستدل به أيضاً على إثبات الربوبية العامة، كما في قول: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

١٤- أن الإحسان كما يكون بالفعل يكون بالقول أيضًا، والأولى الجمع بينهما، فإن عدم الإحسان بالفعل فلا أقل من الإحسان بالقول.

١٥- ينبغي أن يكون الإنسان في نفقاته وسطًا فلا يبخل ويقتر، ولا يسرف ويبذر، وخير الأمور الوسط؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ

﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾.

١٦- التنفير الشديد من البخل، بوصف البخيل بمن غلت يده إلى عنقه فلا يستطيع لها حراكًا.

١٧- في وصف البخيل بمن غلت يده إلى عنقه، ووصف المسرف في الإنفاق بمن بسط يده كل البسط ما يدل على أن البخل أشد.

١٨- أن البخل والتقتير سبب للملامة من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾.

١٩- أن بسط اليد كل البسط في الإنفاق سبب للفقر والعوز والحسرة على ذهاب ما بيد الإنسان، حتى لا يجد ما ينفقه ولا على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّحۡسُورًا﴾.

٢٠- أن الأرزاق كلها بيد الله- عز وجل- يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء- لحكمة يعلمها؛ لقوله- عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾.

٢١- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله- عز وجل: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٢٢- إثبات كمال خبرة الله- عز وجل- وعلمه وبصره بعباده واطلاعه عليهم وعلى أحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾.

٢٣- أن الله- عز وجل- قسم الأرزاق بين عباده، فبسط رزق من شاء منهم، وضيق رزق من شاء؛ لخبرته التامة بهم، وبصره واطلاعه عليهم وعلى أحوالهم، وما يناسب ويصلح لكل منهم، مما يوجب الرضا بما قدره الله.

٢٤- تحريم قتل الأولاد مخافة الفقر، وأن ذلك خطأ ومن كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾.

٢٥- أن رزق الأولاد ووالديهم على الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ بل إن في الآية ما يشير إلى أن رزق الآباء قد يكون بسبب الأولاد أو تبعًا لرزق الأولاد.

٢٦- النهي عن قرب الزنا، وتحريمه والوسائل المؤدية إليه، كالخلوة بالأجنبية، والنظر المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾.

٢٧- شناعة الزنا وفحشه وشدة قبحه، وسوء سبيله ومسلكه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٢٨- تحريم قتل النفس التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، نفس المؤمن، ونفس الذمي والمعاهد والمستأمن، إلا بما يوجب قتلها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٩- إذا ارتكب ذو النفس المعصومة ما يوجب قتله زالت عصمته وحرمة دمه ووجب قتله، كالمرتد والزاني المحصن، والقاتل عمدًا ما لم يعف عنه ولي الدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بما يوجب قتلها.

٣٠- صيانة الإسلام للأنفس والدماء.

٣١- انتصار الشرع لولي من قُتل مظلومًا بتمكينه من القصاص من القاتل- إن شاء ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ وإن شاء العفو إلى الدية، أو العفو مطلقًا فله ذلك وهو أفضل.

٣٢- أن القتل بغير حق ظلم، بل هو من أعظم الظلم، وجمهور أهل العلم على أن القتل العمد أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

٣٣- كمال عدل الإسلام وإنصافه للمقتول بالقصاص من قاتله، إذ لا عدل ولا إنصاف يفوق هذا.

٣٤- لا يجوز لولي المقتول الإسراف في القتل؛ كأن يمثل بالقاتل، أو يقتل غير القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

٣٥- تحريم قرب مال اليتيم والتصرف به إلا بما هو أحسن له وأصلح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٣٦- جواز التصرف بمال اليتيم بما هو أحسن له وفيه مصلحته؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بل قد يجب ذلك.

٣٧- إذا بلغ اليتيم أشده ورشده وجب رد ماله إليه، وجاز تصرفه فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

٣٨- وجوب الوفاء بالعهود والعقود مما بين العبد وبين ربه، وفيما بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾.

٣٩- أن الإنسان مسؤول يوم القيامة عما التزم به من عهود وعقود؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

٤٠- وجوب الوفاء بالكيل، والوزن بالعدل الحسي والمعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

٤١- أن الوفاء بالكيل والوزن بالعدل خير مطلقًا في الدين والدنيا، وأحسن مآلًا وعاقبة في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٤٢- قيام الإسلام على الوفاء والعدل الحسي والمعنوي، والذي قامت عليه السموات والأرض، والكون كله بأمر الله- عز وجل.

٤٣- أن في الوفاء والعدل الخير كل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وفي الغدر والخيانة والظلم الشر والشقاء والخسران والبوار في الدنيا والآخرة.

٤٤- النهي عن أن يقفو الإنسان ويتبع ما ليس له به علم بسمعه أو بصره أو قلبه، بقول أو فعل أو ظن، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٤٥- جواز الحكم بالقافة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأن القائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه، وهو أمر معلوم إلى حد كبير، ولهذا سُرَّ النبي ﷺ لما قال: «مجزِّز» وكان قائفًا لما نظر إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة وقد غطيت رؤوسهما وبدت أقدامهما: «إن هذه الأقدام بعضها من بعض»[(١)].

٤٦- مسؤولية الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده، وسؤال هذه الجوارح وغيرها

---

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٧٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٦٧)، والنسائي في الطلاق (٣٤٩٣)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٩)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

عما عمل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

٤٧- النهي عن الاختيال والمشي في الأرض مرحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾.

٤٨- تحقير المختال في مشيته المتكبر والتهكم به؛ لقوله- تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾.

٤٩- أن كل ما نهى الله- عز وجل- عنه في الآيات السابقة سيئ مكروه عند الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾.

٥٠- أن المعاصي والذنوب تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لهذا سميت سيئات.

٥١- أن الكراهة تطلق على ما يحرم فعله، ويجب اجتنابه؛ لقوله تعالى: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾.

٥٢- تعظيم الله- عز وجل- وامتداحه ما أوحاه إلى رسوله ﷺ من الحكمة في هذه الآيات وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

٥٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ﴾.

٥٤- النهي عن اتخاذ معبود مع الله وتحريم ذلك، ووجوب إخلاص العبادة لله- عز وجل- وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٥٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أشرك بالله بإلقائه وطرحه في النار ملومًا على شركه، مبعدًا عن رحمة الله وجنته وعن كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتهكم، والخطاب للمشركين المكذبين المفترين القائلين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

أي: أفخصّكم ربكم ونفّلكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: بالذكور، فاختار لكم الصفوة من الأولاد.

﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾، أي: وجعل لنفسه واختار لها ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾، أي: بناتًا كما تزعمون؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ تقرير لمعنى الإنكار، وبيان وتأكيد له، فـ«إن» واللام للتوكيد، ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق منصوب، وبينه وبين «تقولون» جناس اشتقاق، ﴿عَظِيمًا﴾ صفة له، وفي هذا أشد الإنكار عليهم، أي: إنكم لتقولون في نسبتكم الولد إلى الله عز وجل، وزعمكم أن ربكم أصفاكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثًا: ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾، أي: قولًا خطيرًا بلغ الغاية في عِظَمه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

وذلك لما في قولهم من الجرأة على الله تعالى من وجهين:

الأول: نسبة الولد إليه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهو سبحانه الأحد الفرد

الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

الوجه الثاني: أنهم مع بطلان قولهم لم ينصفوا في القسمة، فاختاروا البنين الذين يشتهون لأنفسهم، وجعلوا لله تعالى البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١- ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مع تخفيفها: «ليذْكُروا»، وقرأ الباقون بفتح الذال والكاف وتشديدهما: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

والواو في قوله «ولقد»: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر؛ و«قد»: حرف تحقيق.

﴿صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: صرفنا الآيات في القرآن، وبيّنا الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى، ونَوَّعنا الأساليب والوعد والوعيد، وضربنا الأمثال والعبر، وبشرنا وأنذرنا بذكر عاقبة المؤمنين وعقوبات المكذبين في الدنيا والآخرة.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ اللام: للتعليل، أي لأجل أن يتذكروا، أي: يتعظوا ويعتبروا بما فيه من الآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعة، والمواعظ البليغة، فينزجروا عما هم عليه من الشرك والإفك والافتراء على الله، كما قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: وما يزيد هؤلاء المشركين المفترين ما جاءهم من تصريف القرآن والآيات ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: إلا نفورًا عن الحق وبعدًا عنه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن

كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾﴾ [الآية: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾، قرأ ابن كثير، وحفص بالغيب ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب: «كما تقولون».

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أو للناس عامة: لو كان مع الله آلهة وشركاء من خلقه كما تقولون، أو كما يقولون.

﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾، «إذًا»: حرف جواب، واللام: رابطة لجواب «لو»، أي: إذًا لابتغى أولئك الآلهة الذين يعبدونهم مع الله.

﴿إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: إلى الله عز وجل، ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي: صاحب العرش، وفي هذا تعظيم لنفسه عز وجل، وتعظيم لعرشه، أي: لابتغوا إلى العظيم، ذي العرش العظيم، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو العرش﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤- ١٥].

﴿سَبِيلٗا﴾، أي: طريقًا يتقربون به إلى الله تعالى، ووسيلة يتوسلون بها إليه، وإلى مرضاته، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٧- ١٨].

أي: لو كان مع الله آلهة- كما يقولون ويزعمون- لطلب هؤلاء الآلهة إلى الله الوسيلة والقربة؛ لحاجتهم إليه، فكيف يعبدونهم من دونه ويتوسلون بهم، ويتركون عبادته وحده، مع حاجتهم مثلهم إليه عز وجل.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، أي: لسعوا وطلبوا إلى ذي العرش طريقًا لمغالبته، كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقد يقوي هذا التعبير بقوله: ﴿إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، ولم يقل: إلى الله، فكأنه يقول: لطلبوا إلى ذي العرش طريقًا للمغالبة، وأنّى لهم ذلك؟ فهو عز وجل مستوٍ على عرشه بائن من خلقه عالٍ عليهم.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو الطيب عن التمار عن رويس بالخطاب: «تقولون»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تنزه وتقدس وتعاظم.

﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: عما يقوله هؤلاء المشركون الظالمون وأمثالهم؛ من نسبة الولد له، وتخصيصه دونهم بالإناث، والزعم أن معه آلهة أخرى.

﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾، ﴿عُلُوّٗا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، فهو اسم مصدر منصوب، ﴿كَبِيرٗا﴾ صفة له، أي: تعاليًا كبيرًا عظيمًا.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو الطيب عن التمار عن رويس بالياء على التذكير: «يسبح»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تُسَبِّحُ﴾.

أي: تقدسه السموات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن من العوالم والمخلوقات؛ من الملائكة، والإنس، والجن، والحيوانات، والنبات، والجماد، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١، التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: ١]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحشر: ١، الصف: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ

﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾ [ص: ١٨- ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: سبّحي.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، الواو: عاطفة، و«إن»: نافية، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، و«شيء»: نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، و«إلا»: أداة حصر.

أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمده، أي: متلبسًا بحمده، أي: إلا يسبحه تسبيحًا مقرونًا بحمده عز وجل والثناء عليه. ففي التسبيح: التنزيه ونفي النقص، وفي الحمد: إثبات صفات الكمال؛ لأن معنى الحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، أي: ولكن لا تفقهون- أيها الناس- تسبيحهم، فكل المخلوقات تسبح الله تسبيحًا حقيقيًّا بالقول، وإن كنا لا نفقه تسبيحهم.

وقد قيل: إن المراد بتسبيح من في السموات والأرض والطير وجميع المخلوقات: انقيادها لأمر الله الكوني، ودلالتها على وجود الله وعظمته، وهذا خلاف ما دلّ عليه ظاهر الكتاب والسنة.

قال القرطبي[1]: «فالصحيح أن الكل يسبح؛ للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي اختصاص لداود؟- يعني: في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾[الأنبياء: ٧٩]، وما في معناها- وإنما ذلك تسبيح المقال».

وقال ابن تيمية: «والصواب أن لها تسبيحًا وسجودًا بحسبها»[2].

وقد ردّ ابن القيم القول بأن المراد بالتسبيح دلالتها على صانعها من ثلاثين وجهًا[3].

وقد ثبت في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٢٣٤.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى»، ١/ ٤٧.

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٢٦.

الطعام وهو يؤكل»(١).

ولاشك أن وجود هذه المخلوقات وانقيادها كونًا لأمر الله تعالى شهادة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وكمال عظمته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، لكن هذا أمر غير تسبيحها.

ويدل على هذا قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الآية: ١٨]، فهذا سجود حقيقي وإن كنا لا نعلم كيفيته، ولو كان المراد بالسجود دلالة هذه المخلوقات على وجود الله وانقيادها الكوني له لما استثنى منه كثيرًا من الناس في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾؛ لأن هؤلاء أيضًا دالون على وجود الله، ومنقادون لأمره الكوني كغيرهم من المخلوقات.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾، أي: ذا حلم واسع عظيم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله ولا يهمله.

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لذنوب عباده، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبته.

ومن واسع حلمه وسعة مغفرته أنه لم يعاجل من نسبوا له الولد، بل وجعلوا نصيبه الإناث، فقالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: معه آلهة أخرى، مع عظم هذا القول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم ٨٩- ٩١].

فلولا حلمه ومغفرته لعاجلهم بأشد العقاب، ولما ترك على ظهرها من دابة، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب- علامات النبوة ٣٥٧٩، والنسائي في الطهارة ٧٧، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣.

مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤١- ٤٥].

فأمهلهم عز وجل ليتوبوا فيغفر لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

أو يغتروا بإمهاله فيكون ذلك استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢- ١٨٣، القلم: ٤٤- ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار الشديد على المشركين في قولهم الباطل وزعمهم الكاذب بنسبة الولد إلى الله تعالى، وأنه خصهم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُم﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- تهديد المشركين ووعيدهم لجرأتهم على الله تعالى، وعظم قولهم وافترائهم على الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

٤- اصطفاء البنين على الإناث؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾.

وهذا من حيث العموم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولا يقلل هذا من شأن الإناث فقد قال عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**».

ويكفي النساء فخرًا أن منهن أمهات المؤمنين، وفاطمة الزهراء، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وعددًا من الصحابيات الفاضلات، كأم سليم امرأة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنها، وغيرها.

وكم من امرأة خير من كثير من الرجال، وكم من زوجة هي أفضل من زوجها، وهكذا.

٥- إقامة الحجة على الناس في تصريف الآيات في القرآن، وبيان الحجج والبراهين، وتنويع الأساليب والمواعظ، والوعد والوعيد، وضرب الأمثال، والبشارة والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾.

٦- أن الحكمة من التصريف في القرآن: ليتذكر الناس، وبخاصة المكذبون المعاندون؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾.

٧- شدة عتو المشركين واستكبارهم وعنادهم وازديادهم بتصريف القرآن بعدًا عن الحق، ونفورًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٨- أن من كتب الله عليه الضلال والشقاء فلا سبيل إلى هدايته وإسعاده.

٩- إبطال قول المشركين وزعمهم الكاذب أن مع الله آلهة أخرى، ببيان أنه لو كان معه آلهة- كما يقولون- لطلبوا إليه عز وجل طريقًا يتقربون بها إليه وإلى مرضاته؛ لحاجتهم إليه عز وجل، فكيف يعبدهم هؤلاء المشركون ويتركون عبادة الله تعالى

وحده؟! لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، ويحتمل أيضًا: لابتغوا إليه سبيلًا لمغالبته.

١٠- إثبات العرش، وإثبات استوائه عز وجل على عرشه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾.

١١- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعاليه عما يقوله المشركون المفترون- من نسبة الولد له، وتخصيصه بالإناث دونهم، وقولهم: إن معه آلهة أخرى- تعاليًا كبيرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

١٢- إثبات تسبيح السموات السبع والأرضين السبع وجميع من فيهن من المخلوقات والعوالم؛ من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك، لله عز وجل، تسبيحًا حقيقيًّا بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

١٣- أنه ما من شيء في الكون إلا يسبح الله عز وجل، متلبسًا بحمده، أي: قارنًا بين التسبيح والحمد، أي: بين تنزيه الله عز وجل عن النقص بالتسبيح، وإثبات كماله عز وجل بالحمد، وإن كنا لا نفقه تسبيحهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

١٤- وجوب التصديق بما أخبر الله عز وجل به في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ في سنته الثابتة الصحيحة، وإن كنا لا ندرك ذلك.

١٥- إثبات وصف الحلم لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو الحلم الواسع، الذي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾.

١٦- أنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة، يستر ذنوب عباده ويتجاوز عنها؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾.

١٧- أن من أثر واسع حلمه ومغفرته أنه لم يعاجل هؤلاء المفترين الذين نسبوا له البنات والشركاء، مع عظم ما اقترفوه من القول العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين المكذبين وغيرهم.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: صيّرنا بينك وبين هؤلاء المكذبين الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿حِجَابًا﴾، أي: حاجزًا و حائلًا ومانعًا، يمنعهم من رؤية الحق، ومن الوصول إليك بأذى.

﴿مَّسْتُورًا﴾، أي: مستورًا عن الأبصار فلا تراه.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في تفسير سورة المسد، لما جاءت امرأة أبي لهب أم جميل تريد أذية النبي ﷺ هو وأبو بكر، فقرأ ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، فلم تره ﷺ الحديث[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، ١٠/ ٣٤٧٢. وأخرجه أبو يعلي الموصلي- فيما ذكره ابن كثير في

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أي: وصيرنا على قلوبهم وأفئدتهم- كونًا وقدرًا- أغطية.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ «أن»: تعليلية، أي: لئلا يفقهوه، أي: لئلا يفهموا القرآن ويعوه.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: وجعلنا في آذانهم وقرًا، أي: ثقلًا وصممًا، يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينتفعون ويهتدون به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥].

وهذه الثلاثة هي أسباب الحيلولة دون الحق، فالحجاب يمنع من رؤيته، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه، وهي الختم على القلوب والسمع، والغشاوة على الأبصار، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [الآية: ٧]، وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٣].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾، أي: إذا تلوت الآيات الدالة على وحدانيته، داعيًا لتوحيده في الإلهية، ناهيًا عن الشرك.

﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾، أي: رجعوا على أدبارهم، أي: أدبروا راجعين. وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ للتشنيع عليهم.

«تفسيره» ٤/ ٧٦، وانظر: ٨/ ٥٣٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، تفسير سورة تبّت ٧/ ١٤٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿نُفُورًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: نفورًا عن ذكر الله، أو نافرين عن ذكر الله، أي: متولين بأبدانهم، معرضين بقلوبهم عن ذكر الله تعالى وتوحيده؛ لبغضهم لذكر الله وتوحيده ومحبتهم للشرك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥].

وهذه حال إخوانهم من الشياطين عند سماع ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ١- ٤]، أي: الذي إذا ذكر الله انخنس وهرب.

وقال ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط؛ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل، حتى إذا ثوّب بالصلاة أدبر.. الحديث»[(١)].

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٤٨﴾.

لما ذكر تولي المشركين على أدبارهم ونفورهم وإعراضهم عند ذكره ﷺ لربه في القرآن وحده، فضح حالهم حين استماعهم له، وأنه استماع تناجٍ بينهم؛ للسخرية والتنقص، لا للفائدة، فقال:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، أي: نحن أعلم بالذي يستمعون به- يعني كفار قريش- إلى قراءتك، حيث كان نفر منهم: أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق الثقفي، وغيرهم، يأتون بالليل سرًّا يستمعون إلى قراءة النبي ﷺ وهو يصلي في بيته.

﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾، أي: حين يستمعون إليك، أي: إلى قراءتك.

﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ الواو: عاطفة، أي: وحين هم نجوى، و«نجوى»: مصدر، أو جمع

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٠٨، ومسلم في الصلاة ٣٨٩، وأبو داود في الصلاة ٥١٦، والنسائي في الأذان ٦٧٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«نجي» كقتلى، أي: وحين تناجيهم وتسارُّهم فيما بينهم.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: حين يقول الظالمون في نجواهم، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «إذ يقولون»، بل قال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للتسجيل عليهم بالظلم؛ لشركهم وسعيهم في أذية الرسول ﷺ والمؤمنين، والصد عن دين الله، وأن ذلك هو باعث قولهم:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا، أي: إنكم إن اتبعتم محمدًا ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا، أي: إلا رجلًا قد سُحر، فهو يهذي ولا يدري ما يقول.

ومفاد هذا القدح في عقله وعدم اعتبار قوله، والقدح فيما يتلوه من القرآن ويدعو إليه وأنه سحر، ومرادهم التحذير والنهي عن اتباعه، أي: لا تتبعوا محمدًا فهو رجل مسحور، ولهذا قال:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الاستفهام: للتعجيب، أي: كيف ضربوا لك الأمثال السيئة التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب، من قولهم: مسحور، أو ساحر، أو مجنون، أو كاهن، أو شاعر، ونحو ذلك، وسميت أمثالًا؛ لأنهم تحيّروا فيما يصفونه به للناس.

﴿فَضَلُّوا۟﴾ في قولهم فيك، وضلوا بسبب ذلك عن الصراط المستقيم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: فلا يجدون طريقًا إلى الهدى والصواب فيما يصفونك به، ولا يجدون طريقًا إلى الحق والهدى يتبعونه ويسلكونه، قد انسدت عليهم السبل بسبب شركهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

ذكر إنكارهم توحيد الله تعالى، وتكذيبهم له ﷺ، ثم أتبع ذلك بذكر إنكارهم

للبعث وتكذيبهم به.

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩﴾ الاستفهام للإنكار، أي: وقال هؤلاء المشركون المكذبون لك، المنكرون لوحدانية الله تعالى إنكارًا منهم للبعث وتكذيبًا به واستبعادًا له: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، أي: فتاتًا ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾، أي: كيف نبعث خلقًا جديدًا؟! لا يمكن هذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾ [النازعات: ١٠- ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ جواب عن قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ الآية. أي: كونوا حجارة أو حديدًا، وهما أشد امتناعًا، وأبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات.

﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ معطوف على «حجارة»، أي: أو كونوا خلقًا مما يكبر في صدوركم، أي: من أي شيء يكبر في صدوركم وتستعظمونه، سواء كان الموت أو السماء والأرض كما قيل، أو غير ذلك، أي: كونوا ما شئتم فستبعثون خلقًا جديدًا.

والمعنى: كونوا إن قدرتم حجارة أو حديدًا أو خلقًا أعظم من ذلك، أو صوروا أنفسكم وقدروها خلقًا لا يضمحل ولا ينحل، فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقًا جديدًا.

قال ابن القيم: «**فالمعنى الأول**: يقتضي أنكم لو قدرتم على نقل خلقتكم من حالة إلى حالة هي أشد منها وأقوى، لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم ولم تعجزونا، فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك؟

والمعنى الثاني: يقتضي أنكم صوروا أنفسكم ونزلوها هذه المنزلة، ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا، أم قدرتنا ومشيئتنا محيطة بكم ولو كنتم كذلك؟»(١).

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ إنكارًا منهم للبعث بعد إنكار، أي: من الذي يعيدنا،

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ٣/ ٨٣- ٨٤.

أي: من الذي يقدر على إعادتنا بعد أن نكون عظامًا ورفاتًا، أو بعد كوننا حجارة أو حديدًا، أو خلقًا أكبر من ذلك؟! فأجابهم بقوله:

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾، أي: قل لهم: يعيدكم الذي فطركم أول مرة، أي: الذي خلقكم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى في جواب من قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلًا، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به:

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ الإنغاض: التحريك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، فإنغاض الرأس تحريكه، أي: يحركون رؤوسهم استهزاءً، أي: مستهزئين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ تهكمًا منهم وإصرارًا على استبعاد البعث وإنكاره والتكذيب به، أي: متى نبعث ونعاد خلقًا جديدًا؟! كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: قل لهم: عسى أن يكون بعثكم قريبًا، و«عسى» من الله واجبة، أي: أنه قريب، فاحذروا من ذلك؛ لأنه آتٍ لا محالة، وكل آتٍ قريب، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ «يوم»: ظرف زمان منصوب بدل من «قريبًا»، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر. أي: يوم يدعوكم ربكم للبعث والنشور، فيأمر إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الثانية، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٤، ومسلم في الفتن ٢٩٥١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، و«تستجيبون» أبلغ من «تجيبون»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أي: فتستجيبون لدعائه لكم، وتخرجون من قبوركم، وتقومون لرب العالمين مسرعين إلى الداعي، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨].

﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ متعلق بحال من فاعل «تستجيبون» بتضمينه معنى «تسبحون»، أي: فتستجيبون له، مسبحين بحمده.

وقيل: معنى «بحمده»، أي: بأمره وطاعته ودعائه إياكم وقدرته، ولله الحمد في كل حال، وعلى كل حال، كما قال الشاعر:

إني بحمد الله لا ثوب فاجر لبستُ، ولا عن خزية أتقنَّعُ(١)

أي: فإني ولله الحمد لا ثوب فاجر لبست..

﴿وَتَظُنُّونَ﴾، أي: تعتقدون.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾، أي: إن أقمتم في الدنيا.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾، «إلا»: أداة، أي: إلا وقتًا قليلًا، أي: تستقصرون مدة لبثكم في الحياة الدنيا، من سرعة وقوع البعث، وأن الذي مرّ عليكم من التنعم في الدنيا كأنه ما كان، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات:

---

(١) اختلف في نسبة هذا البيت فنسبه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٣/ ٤٠٥، ٤٠٦) لغيلان بن سلمة الثقفي، ونسبه في «الأغاني» (١٦/ ٢٥١، ٢٥٢) لبرزع بن عدي، ونسبه ابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ١٣٥) لحسان بن ثابت. وليس في ديوانه.

٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾ [طه: ١٠٢- ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٤].

الفوائد والأحكام:

١- الحيلولة بينه ﷺ عند قراءته القرآن، وبين المكذبين بالبعث المنكرين للآخرة، بحجاب مستور يمنعهم من رؤية الحق، ومن الوصول إليه ﷺ بأذى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

٢- تشريف الله عز وجل للنبي ﷺ بخطابه له، وإثبات ربوبيته الخاصة له، وعنايته به، وحفظه له.

٣- عقوبة المكذبين بالآخرة بالحيلولة قدرًا بينهم وبين رؤية الحق، وفهم القرآن وسماعه سماع انتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾.

٤- إثبات الآخرة والمعاد والحساب والجزاء.

٥- أن أسباب الحيلولة دون الوصول إلى الحق ثلاثة: الحجاب الذي يمنع من رؤيته، والأكنة التي تمنع من فهمه، والوقر الذي يمنع من سماعه.

٦- تولي المكذبين على أدبارهم، عند ذكره ﷺ ربه في القرآن، ودعوته إلى توحيد الله تعالى، والنهي عن الشرك، ونفورهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

٧- فضح حال المكذبين والمشركين في سوء قصدهم في استماعهم إلى قراءته ﷺ، وأنهم لا يقصدون بذلك الانتفاع، وإنما يقصدون التماس القدح فيه؛ ولهذا كان غاية ما وصلوا إليه- لما أخرسهم وبهرهم ذلك بعد التناجي بينهم في أمره ﷺ- القول بأنه

مسحور؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

٨- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه التام على أحوال العباد؛ علانيتها وسرها.

٩- بلوغ هؤلاء المكذبين غاية الظلم؛ لشركهم بالله تعالى، وسعيهم في أذية الرسول ﷺ والمؤمنين، وصد الناس عن اتباعه ﷺ.

١٠- جرأة كفار قريش على اتهامه ﷺ بالسحر، كما هي عادة المكذبين قبلهم للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

١١- التعجيب فيما ضربوه له ﷺ من الأمثال السيئة، التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب، والتي هي سبب ضلالهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾.

١٢- انسداد طريق الهدى والصواب أمام هؤلاء المكذبين، فلم يجدوا طريقًا للصواب فيما يصفونه به ﷺ، ولم يجدوا طريقًا للهدى يسلكونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وهذا عقوبة من الله تعالى لهم بسبب شركهم وظلمهم.

١٣- إنكار المشركين وتكذيبهم بالبعث واستبعادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

١٤- إثبات قدرة الله تعالى التامة على إفناء الناس وبعثهم مهما تحولت أحوالهم، ومهما كانوا عليه من عظم الخلقة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾.

١٥- إنكار المشركين قدرة الله تعالى على البعث، بعد بيانه عز وجل قدرته على ذلك مهما كانوا عليه من عظم الخلقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾.

١٦- الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، وأن من قدر على بدء الخلق فهو أقدر على إعادته من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٧- إصرار المشركين على إنكار البعث واستبعاده، وسخريتهم واستعجالهم

لذلك، بعد أن دلل عز وجل على تمام قدرته عليه بخلقه إياهم أول مرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾.

١٨- قرب البعث؛ لأنه آتٍ، وكل آتٍ قريب، ولأن عمر الدنيا كلها لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

١٩- أن بعث الخلائق من قبورهم يسير على الله عز وجل، فبدعوته عز وجل لهم يستجيبون جميعًا لأمره، ويخرجون من قبورهم للقيام بين يديه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾؟

٢٠- أن لله عز وجل الحمد في كل حال، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾.

٢١- استقصار الناس مدة بقائهم في الدنيا، وبخاصة المكذبين عند بعثهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وقل يا محمد لعبادي المؤمنين.

﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: يقولوا القول الأحسن، والكلام الطيب، والأسلوب اللين اللطيف، في مخاطباتهم ومحاوراتهم فيما بينهم؛ حفاظًا على الصلة والمودة والأخوة الإيمانية بينهم.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم خبُثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي**»(١). فكره ﷺ لفظ «الخبث»؛ لبشاعته، فأرشدهم إلى

(١) أخرجه البخاري في الأدب- لا يقل خبثت نفسي ٦١٧٩، ومسلم في الألفاظ من الأدب- كراهة قول

لفظ أحسن منه- وإن كان بمعناه- ؛ تعليمًا للأدب بالمنطق، وإرشادًا إلى استعمال الحسن وهجر القبيح في الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الشيطان يفسد بينهم، إذا كلم بعضهم بعضًا بغير التي هي أحسن، فيحملهم على سيئ المقال، ثم يخرجهم بسبب ذلك من سيئ المقال إلى سيئ الفعال، فيقع الشر بينهم والمخاصمة والمنازعة، والشجار والاقتتال؛ ولهذا أمر عز وجل بالاستعاذة بالله من نزغاته، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ تعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، أي: لأن الشيطان كان- منذ القدم- للإنسان عدوًّا مبينًا، أي: بيّن العداوة ظاهرها، وذلك منذ امتناعه عن السجود لآدم، فعداوته لآدم وذريته بيّنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

ولهذا قال ﷺ: «لا يُشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار»(١).

وفرقٌ مثل ما بين الثرى والثريا والأرض والسماء الفرق بين أحسن القول وسيئه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت: ٢٤- ٢٦].

ولهذا حذر ﷺ من خطر الإنسان وعثراته، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه وقد أخذ ﷺ بلسانه: «**كفّ عليك هذا**». قال معاذ: فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم

الإنسان: خبثت نفسي ٢٢٥٠، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٩.

(١) أخرجه البخاري في الفتن- من حمل علينا السلاح فليس منا ٧٠٧٢، ومسلم في البر والصلة والآداب- النهي عن الإشارة بالسلاح ٢٦١٧، وأحمد ٢/ ٣١٧.

به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟**»[(١)].

فاللسان عدو الإنسان، فكم حروب اشتعلت وأكلت الأخضر واليابس بسبب سيئ الكلام. قال نصر بن سيار:

وإن النـــار بـــالعودين تـــذكى   وإن الحـــرب أولهـــا كـــلام[(٢)]

وناهيك بما يفعله الإعلام اليوم بوسائله المختلفة من إشعال الفتن والحروب والعداوة والبغضاء بين الدول والطوائف والقبائل وغير ذلك، وكم من دماء أهرقت ونفوس أزهقت بسبب سيئ الكلام، وكم من زوجات طلقت، وأسر شردت، وأطفال ضيعت بسبب سيئ الكلام، وكم من عداوات وإحن وبغضاء بين الأقارب والجيران والأسر والجماعات والأفراد: الأقارب والأباعد، بسبب سيئ الكلام.

وقد قيل:

جراحـــات الســـنان لهـــا التئـــام   ولا يلتـــام مـــا جـــرح اللســـان[(٣)]

وقال الآخر:

احفـــظ لســـانك أيهـــا الإنســـان   لا يلـــدغنك إنـــه ثعبـــان

كـــم في المقـــابر مـــن قتيـــل لســـانه   كانـــت تخـــاف بقـــاءه الشـــجعان[(٤)]

وبالمقابل: فكم من حروب أطفئت، وثارات أخمدت بسبب القول الحسن والكلام الطيب، وكم من منازعات ومشاجرات وخصومات انتهت بسبب طيب المقال، وحسن الكلام. وصدق المصطفى ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣- من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) البيت لنصر بن سيار، كما في «عمدة الكتاب» لأبي جعفر النحاس (١/ ٣٩)، «التذكرة الحمدونية» (١/ ٤٣٢).

(٣) البيت بلا نسبة، كما في «فصل المقال» (ص٢٤).

(٤) انظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ٥٩).

وقال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾.

قوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ الخطاب عام لجميع الناس، أي: ربكم- أيها الناس- أعلم بجميع أحوالكم: بواطنكم وظواهركم، ومن هو أهل للهداية منكم، ومن ليس أهلًا لها، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤].

﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾، أي: إن يُرد كونًا يرحمكم، فيوفقكم للإيمان به، والإنابة إليه، والعمل الصالح، فيسعدكم في الدنيا بطاعته، وفي الآخرة بجنته.

﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ أو إن يُرد كونًا يعذبكم، فيخذلكم باختياركم الكفر والضلال المفضي إلى الشقاء في الدنيا، وإلى نار جهنم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾، أي: وما أرسلناك يا محمد على هذه الأمة «وكيلًا»، أي: موكولًا إليك أمرهم، تدبرهم وتقسرهم على الإيمان، أو تُسأل عمن ضل منهم، وتجازيهم.

أي: إنما أرسلناك مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار، والله هو الوكيل عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٣، ٢٥٩٤- من حديث عائشة رضي الله عنها.

عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ معطوف على قوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ من عطف العام على الخاص، فبيّن أولًا علمه تعالى بهم، ثم بيّن علمه العام بكل ما في السموات والأرض، أي: وربك يا محمد أعلم بالذي في السموات والأرض، من جميع المخلوقات، وبأحوال العباد وأعمالهم، ومن هو أهل للرحمة ومن هو أهل للعذاب، وغير ذلك.

﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾، أي: جعلنا- بمقتضى علمنا وحكمتنا- بعضهم أفضل من بعض، فأفضلهم على الإطلاق وسيدهم خاتمهم نبينا محمد ﷺ، وأفضلهم بعده بقية أولي العزم من الرسل، وهم: إبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى عليهم السلام، وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ: إبراهيم ثم موسى عليهما السلام، ثم نوح وعيسى عليهما السلام، على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل نوح أو عيسى، ثم بقية الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا لا يتنافى مع قوله ﷺ: «**لا تفاضلوا بين الأنبياء**»(١)؛ لأن النهي في الحديث عن التفضيل بينهم بمجرد الرأي والهوى بلا دليل.

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾، أي: وأعطينا داود عليه السلام وأنزلنا عليه «زبورًا»، وخصه بالذكر وذكر ما آتاه؛ تنبيهًا على فضله عليه السلام، وفضيلة الزبور.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خفف على داود عليه السلام**

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١٢، ومسلم في الفضائل- من فضائل موسى ٢٣٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٨، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه»(١).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾.

قوله: ﴿قُلِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا آلهة غير الله.

﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾، أي: نادوا الذين زعمتم وادعيتم كذبًا وزورًا أنهم آلهة لكم.

﴿مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد، وارغبوا إليهم، فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون الضر عنكم، تجدون أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾، أي: لا يملكون إزالة الضر ودفعه عنكم، من مرض أو فقر أو شدة أو غير ذلك.

﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، أي: ولا يملكون أيضًا: تحويل الضر من شدة إلى ما دونها، ولا من موضع إلى موضع، ولا من شخص إلى آخر، فلا قدرة لهم على رفع الضر بالكلية، ولا على تحويله.

قال ابن تيمية: «لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال، كتغير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، فذكر نكرة تعم أنواع التحويل»(٢).

أي: أن الذي يملك ذلك كله ويقدر عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر، كما قال ﷺ فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧﴾ [الأعراف: ١٩٦-١٩٧].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤١٧.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٣.

﴿رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم أولئك الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾»(١).

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أي: أولئك الآلهة الذين يعبدهم المشركون من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، أي: يطلبون إلى ربهم القربة، بالإيمان والطاعة والأعمال الصالحة.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أيهم: اسم موصول مبني على الضم في محل رفع بدل من فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أو اسم استفهام مبتدأ خبره ﴿أَقْرَبُ﴾؛ أي يتسابقون في التقرب إلى ربهم، أيهم يكون إليه أقرب، ويتنافسون في ذلك.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾، أي: ويأملون رحمة الله تعالى.

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ الذي توعّد به المكذبين والكافرين، أي: فيعملون ما يكون سببًا لرحمته، ويجتنبون ما يوجب عذابه، من ترك أمره، أو ارتكاب نهيه.

والمعنى: أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين من خواص عباده، جمعوا بين المقامات الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء، فهم يتقربون إلى ربهم، ويخافونه، ويرجونه، فهم عبيده، كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له(٢)؟

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: إن عذاب ربك يا محمد كان محذورًا مخوفًا، أي: يجب الحذر منه كل الحذر، والخوف من وقوعه، بتوقي أسبابه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، ٤٧١٤، ومسلم في التفسير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، ٣٠٣٠.

(٢) انظر: بدائع التفسير ٣/ ٨٥.

حذّر في الآية السابقة من عذاب الله، وبيّن وجوب الحذر منه، ثم أتبع بالتهديد والوعيد للمكذبين بالهلاك والعذاب.

قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الواو: استئنافية، و«إن» نافية بمعنى «ما»، أي: وما من قرية من القرى المكذبة للرسل، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لاستغراق النفي لعموم القرى المكذبة، بما في ذلك مشركو مكة المكذبين للنبي ﷺ.

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا نحن مبيدوها قبل يوم القيامة، بالموت أو بعذاب مستأصل.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بقتل أو ابتلاء بما نشاء، بسبب كفرهم وتكذيبهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ [الطلاق: ٧- ٨].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾، أي: إهلاك القرى المكذبة قبل يوم القيامة أو تعذيبها عذابًا شديدًا.

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾أي: في اللوح المحفوظ.

﴿مَسْطُورًا﴾، أي: مسطرًا مكتوبًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾.

لما ذكر عز وجل قضاءه وحكمه بإهلاك القرى المكذبة قبل يوم القيامة أو تعذيبها عذابًا شديدًا، أتبع ذلك ببيان السبب الذي منع من إرسال الآيات التي طلبها المشركون من الرسول ﷺ؛ تعنتًا وعنادًا، وهو مخافة أن يكذبوا بها، فتكون سببًا لهلاكهم كحال المكذبين قبلهم.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحّي الجبال عنهم فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: «**لا، بل أستأني بهم**». فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[1].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «**وتفعلون؟**» قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: «**بل باب التوبة والرحمة**»[2].

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف.

والباء: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما منعنا من إرسال الآيات التي يقترحها المكذبون.

ويحتمل كونها للمصاحبة والملابسة، أي: وما منعنا أن نرسل رسلنا بالآيات التي يقترحها المكذبون.

كما في قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وكما في قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ [القصص: ٤٨].

﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين بها.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٨، والطبري في جامع البيان ١٤/ ٦٣٥.

(٢) أخرجها أحمد ١/ ٢٤٢.

أي: فصارت سببًا لهلاكهم، فلو أرسلنا لهؤلاء ما سألوه من الآيات ثم كذبوا بها لأهلكوا، كما هي سنة الله في المكذبين قبلهم، كما قال تعالى في المائدة: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الآية: ١١٥].

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ آية حين طلبوها.

﴿مُبْصِرَةً﴾، أي: بيّنة واضحة، موجبة للتبصر.

قال ابن القيم: «مبيّنة موجبة للتبصر، وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًا، يقال: أبصرته بمعنى أريته، وأبصرته بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية بمعنى: مرئية، لا بمعنى رائية»(١).

والمعنى: أنها واضحة الدلالة على وحدانية الله تعالى، وصدق نبيه صالح عليه السلام، تجعل من رآها يكون ذا بصيرة بتوفيق الله، بخلاف من خذله الله، كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل: ١٣].

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، الباء: للسببية، أي: فظلموا بسببها، أي: كذبوا وكفروا بسببها، وكذبوا نبي الله صالحًا عليه السلام، ومنعوا الناقة شربها وعقروها، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤- ١٥].

وخص بالذكر ثمود وآيتها؛ لشهرة أمرهم عند العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكة، يبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكة والشام.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الباء: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما نرسل الآيات إلا تخويفًا.

ويجوز كونها للمصاحبة والملابسة، أي: وما نرسل رسلنا بالآيات إلا تخويفًا. و«إلا» أداة حصر ﴿تَخْوِيفًا﴾ مفعول لأجله.

أي: وما نرسل بالآيات إلا لأجل التخويف من عذاب الله وعقابه لمن عصى الله

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨٦.

وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره**»، ثم قال: «**يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته، يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بفعل محذوف تقديره: اذكر، أي: واذكر يا محمد حين قلنا لك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أي: قد عصمك من الناس، ومنعك منهم، حتى تُبلّغ رسالة ربك؛ لأنه عز وجل محيط بهم علمًا وقدرة وقهرًا.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: ١٢٦].

وفي هذا تذكير له ﷺ بوعده له بحفظه ونصره، وأنه محل عنايته عز وجل؛ تقويةً لقلبه، فلا يحزن، فإن الله سينصره وينتقم من أعدائه، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾، أي: ما رأيته ليلة الإسراء بعينك من العجائب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ هي: شجرة الزقوم»(٢).

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا ابتلاءً واختبارًا للناس وامتحانًا لهم، حيث ارتد بعض ضعاف الإيمان، واستلج المشركون بكفرهم، وازدادوا عتوًّا ومكابرة وتكذيبًا وكفرًا، لما أُخبروا بالرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٤٤، ومسلم في صلاة الكسوف ٩٠١، والنسائي في الكسوف ١٤٧٤، وأحمد ٦/ ٨٧، ١٦٨- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٣٤.

بيت المقدس، وما فيها من خوارق العادات، ومن وصفه ﷺ لبيت المقدس، وذكره أنه مرّ بعيرهم في مكان كذا، ووصف حال رجال فيها وغير ذلك.

ومن هنا تُعلم الحكمة في عدم التصريح في القرآن والسنة بذكر الأمور التي حدثت في هذه الأزمنة المتأخرة، والاكتفاء بألفاظ عامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨].

فقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعم كل ما وصل إليه العلم من التقدم في الصناعات والاختراعات ووسائل النقل والتواصل وغير ذلك، وما سيصل إليه بعد، والعلم عند الله.

ولو ذكر للناس في ذلك العهد شيئًا مما وصل إليه العلم في هذا العصر لكان ذلك فتنة لهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ معطوف على «الرؤيا»، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. والمراد بالشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. ووجه كونها فتنة للناس خروجها في أصل الجحيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾ [الصافات: ٦٤- ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦].

ولهذا روي أن أبا جهل قال: «يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرًا وزبدًا فتزقّموا»[(١)].

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾، أي: ونخوف المشركين بالآيات، وذكر ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات والهلاك.

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، أي: فما يزيدهم التخويف بالآيات والعقوبات.

﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا زيادةً وتماديًا عظيمًا في الكفر

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٦٤٨). وسنده ضعيف.

والضلال والعتو والعناد، وذلك من خذلان الله تعالى لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى، لا ينطق عن الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾.

٢- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّعِبَادِى﴾.

٣- الحث والترغيب في اختيار القول الأحسن والكلام الطيب في المخاطبات والحوارات بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾.

٤- أن عدم اختيار الأحسن من القول سبب لنزغ الشيطان وإفساده على العباد أمر دينهم ودنياهم، يجب الاحتراز منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

٥- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى، وأفعاله.

٦- حرص الشيطان على الإفساد بين المؤمنين، وانتهاز الفرص لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

٧- شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ﴾.

٩- أن الله تعالى أعلم بالعباد، وأحوالهم: بواطنهم وظواهرهم، ومن هو أهل للهداية ومن ليس أهلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾.

١٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾.

١١- نفوذ مشيئة الله تعالى في خلقه، فمن شاء رحمه فوفقه وأثابه، ومن شاء خذله وعذبه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ

إن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

١٣- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه، وليس وكيلًا على الناس يلزمهم الهداية ويحاسبهم ويجازيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ حتى لا تذهب نفسه حسرات على المكذبين من قومه.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وربوبيته الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾.

١٥- أن الله عز وجل أعلم بجميع من في السموات والأرض من المخلوقات، وبأحوال العباد وأعمالهم، ومن هو أهل للهداية، ومن ليس أهلًا لها.

١٦- تفضيل الله عز وجل بعض النبيين على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٧- تشريف نبي الله داود عليه السلام بتخصيصه بالذكر، والتنويه بإيتائه الزبور الذي هو من أفضل كتب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

١٨- تأنيب المشركين في عبادتهم من دون الله من لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلًا، وفي ذلك تسفيه لعقولهم، وإبطال لإشراكهم هذه المعبودات مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

١٩- أن الذي يملك ويقدر على كشف الضر وتحويله هو الله عز وجل وحده.

٢٠- أن الملائكة والأنبياء والصالحين الذين يدعوهم المشركون من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة والقربى، فكيف يعبدهم المشركون من دون الله، ويجعلونهم وسائط بينهم وبين الله؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وفي هذا أيضا إبطال لإشراكهم مع الله، وتسفيه لعقول المشركين بعبادتهم مع الله خلقًا من خلقه، مثلهم محتاجين إلى الله.

٢١- حاجة الخلق كلهم إلى الله تعالى، وغناه عز وجل عنهم.

٢٢- تنافس الملائكة والأنبياء والمؤمنين الذين عرفوا الله حق معرفته، في التوسل أو التقرب إليه بالإيمان والأعمال الصالحة؛ رجاء رحمته وخوفًا من عذابه؛ لقوله تعالى:

﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾.

٢٣- أن رضى الله والقرب منه إنما ينال بالتوسل إليه بالإيمان والأعمال الصالحة، والجمع بين الرجاء والخوف.

٢٤- وجوب الحذر والخوف من عذاب الله تعالى؛ لشدته وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾.

٢٥- قضاء الله تعالى- كونًا وقدرًا- بإهلاك جميع القرى المكذبة للرسل قبل يوم القيامة، أو تعذيبها عذابًا شديدًا، وتسطيره عز وجل ذلك في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾.

٢٦- تهديد مشركي مكة وتحذيرهم من الإهلاك والعذاب الشديد، كما هو قضاء الله وسنته في المكذبين قبلهم، وهكذا أهلكهم الله في بدر الكبرى.

٢٧- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء.

٢٨- إثبات اللوح المحفوظ الذي كتب الله تعالى فيه مقادير كل شيء.

٢٩- أن ما قدره الله تعالى وقضاه كونًا كائن لا محالة.

٣٠- أن الحكمة والسبب في عدم الإرسال بالآيات التي يقترحها المكذبون، هو أن الأولين طلبوها من رسلهم، فلما أعطوها كذبوا بها، فأهلكوا بسبب ذلك، كما هي سنة الله تعالى فيمن اقترحوا الآيات ثم كذبوا بها، ولا تجد لسنة الله تبديلًا.

٣١- أن من فضل الله عز وجل على نبينا محمد ﷺ وعلى أمته، عدم الإرسال بالآيات التي اقترحها المكذبون؛ إذ لو أرسلها ثم كذبوا بها لأهلكوا عن آخرهم.

٣٢- إيتاء ثمود الناقة آية مبصرة، وظلمهم وكفرهم بها وتكذيبها، ومنعها شربها، وعقرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾.

٣٣- أن الحكمة من إرسال الآيات هو التخويف والتحذير للمكذبين من عذاب الله تعالى وانتقامه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾.

٣٤- تشريف الله عز وجل لنبيه ﷺ بخطابه له، وعنايته به، وتكفله بعصمته من الناس، وحفظه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾.

٣٥- إحاطته عز وجل بالناس بعلمه وتقديره، وقدرته وتدبيره وقهره.

٣٦- ابتلاء الله عز وجل للناس وامتحانه لهم بالرؤيا التي أراها نبيه ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة التي ذكرت في القرآن تخرج في أصل الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

٣٧- تخويف الله للمكذبين ليؤمنوا، وما يزيدهم التخويف إلا عتوًّا وتماديًا بالباطل وطغيانًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

٣٨- أن من قدر الله عليهم الكفر والطغيان لا ينفع فيهم التحذير والتخويف، كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، أي: حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم؛ تكريمًا واحترامًا له وتشريفًا.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي: فبادروا كلهم بالسجود، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣]؛ استجابة لله تعالى، وطاعةً له، لأنهم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧].

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«إبليس»: منصوب على الاستثناء المتصل أو المنقطع، أي: لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، أي: لم يكن من الساجدين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ١١٦].

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: قال مبررًا عدم سجوده لآدم بقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، ﴿طِينًا﴾ منصوب بنزع

الخافض، أي: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين، كما قال في سورة الحجر: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الآية:٣٣]؛ وذلك استكبارًا منه وافتخارًا، واحتقارًا لآدم عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٤- ٧٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾، أي: أخبرني.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، «هذا» مستعمل في التحقير، كما في قول المشركين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أي: أهذا الذي كرّمت عليّ؟ أي: فضلته عليّ بأن أمرتني بالسجود له، لِمَ كرّمته عليّ؟ من كِبره وغروره وجهله وشدة كفره وجرأته على الله، والرب يحلم ويُنظِر.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرتني إلى يوم القيامة.

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لأتسلطنّ على ذريته، ولأستأصلنهم في الإضلال، ولأغوينهم، كما قال تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨- ١١٩].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، «قليلًا»: منصوب على الاستثناء.

فطلب النظرة؛ لأجل أن يُغوي جميع بني آدم، وأقسم على ذلك، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الآيات: ٣٦- ٤٠].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الآيات: ٧٩- ٨٣].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الآيات: ١٦- ١٧].

ومن هنا يُعلم شدة عداوته لآدم وذريته، وأنها عداوةٌ قديمة؛ مما يوجب الحذر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

لما طلب إبليس النظرة أعطاها عز وجل له، ولله الحكمة في ذلك؛ ليزداد مع إثمه آثام من أغواهم وأضلهم، وجعل له تسلطًا على الذين يتولونه ويشركون به، دون عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

قوله: ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾، أي: قال الله عز وجل جوابًا منه عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة. أي: اذهب وامض لشأنك الذي اخترته وطلبته: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨، ص: ٨٠، ٨١].

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن تبعك من ذرية آدم، فأطاعك ووالاك، وخالف أمر الله وعصاه.

﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ جواب الشرط، أي: فإن نار جهنم جزاؤكم جميعًا- أنت ومن اتبعك- على أعمالكم.

﴿جَزَآءً مَّوۡفُورًا﴾، «جزاء»: مفعول مطلق منصوب، و«موفورًا»: صفة له، أي: وافرًا تامًّا مدخرًا كاملًا.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾، أي: استخف واستعجل وأزعج واستزل.

﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾، أي: الذي قدرت عليه منهم.

﴿بِصَوۡتِكَ﴾ صوت إبليس: هو كل داع دعا إلى معصية الله، وكل دعوة إلى الباطل.

فالمعنى: استفز واستخف بصوتك، أي: بدعائك إياهم إلى الشرك والكفر والمعاصي واللهو والغناء والمزامير وغير ذلك.

﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم﴾، أي: واحمل وصح عليهم.

﴿بِخَيۡلِكَ﴾، أي: بخيّالتك، وهو كل راكب من جنودك في معصية الله تعالى.

﴿وَرَجِلِكَ﴾، قرأ حفص بكسر الجيم: ﴿وَرَجِلِكَ﴾، وقرأ الباقون بإسكانها.

وهو معطوف على: «خيلك»، أي: وأجلب عليهم برجلك، وهو كل ماشٍ على رجليه في معصية الله.

أي: اجلب عليهم بجنودك الراكبين والماشين في معصية الله. فكل راكب وماش في معصية الله، فهو من جنود إبليس لعنه الله.

قال ابن القيم: «فكل متكلم بغير طاعة، ومصوّت بيراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل، فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب في معصية الله فهو من خيالته»(١).

أي: أجلب بجميع جنودك على كل من اتبعك من ذرية آدم كل وسائل الفتنة والفساد وتزيين المعاصي، وتسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: ٨٣]. أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا.

﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾، أي: كن لهم شريكًا فيها، بحملهم على تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨٨.

نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[١].

وبتزيين أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وكسب المال بالطرق المحرمة، وصرفه في الوجوه المحرمة، ومنع الحقوق الواجبة فيه من الزكاة والنفقات الواجبة وغير ذلك.

﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾، أي: وشاركهم في الأولاد، وتتمثل مشاركة الشيطان في الأولاد بالإيقاع في محاذير كثيرة، من أهمها ما يلي:

أولًا: ما كان يفعله أهل الجاهلية من قتلهم الأولاد؛ مخافة الفقر أو مخافة العار، كما في وأدهم البنات، وكذا طلبهم الأولاد بطريق الزنا، وحملهم أولادهم على الكفر، كما قال ﷺ: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[٢].

ثانيًا: عدم اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين والخلق، كما رغَّب في ذلك ﷺ بقوله: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[٣].

ثالثًا: عدم تحصين الأولاد من الشيطان بالتسمية عند الجماع، وقد قال ﷺ: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما**

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٢٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القدر ٢٦٥٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٩٠، ومسلم في الرضاع ١٤٦٦، وأبو داود في النكاح ٢٠٤٧، والنسائي في النكاح ٣٢٣٠، وابن ماجه في النكاح ١٨٥٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدًا»[١].

رابعًا: مشاركة الشيطان لهم في أسمائهم، بتسميتهم بأسماء غير شرعية، بكونها معبدة لغير الله، كعبد النبي، وعبد الرسول، وعبد الكعبة، وعبد الحارث، وعبد شمس، أو بكونها إحياءً لأسماء أناس غير مسلمين، أو تقليدًا لغير المسلمين، ونحو ذلك.

خامسًا: إهمال تربيتهم التربية الشرعية، وعدم توجيههم إلى الخير، وأمرهم ونهيهم، فكم من الآباء من يقتصر جل دوره في تربية أولاده على تربية أجسامهم فقط، بتأمين الأكل والشرب والملبس والمسكن والمركب، ونحو ذلك، مع ضعف العناية بالجانب الديني الذي خلقوا من أجله.

وأسوأ من هذا من يجعل جل جهده في توجيه أولاده تشجيعهم على جمع الدرهم والدينار، كأنه يخشى عليهم الفقر، فيزج بهم في المنافسات الدنيوية في المساهمات، والمحامات، وجمع الأموال، فيفتتنون في الدنيا ويتعلقون بها، على حساب دينهم وآخرتهم، كما هو واقع الكثيرين.

وليت هذه الأموال تجمع لمشاريع وأعمال لنفع الأمة وتقدمها، فهذا مما يؤجر عليه، والأمة أحوج ما تكون إليه، ونعم المال الصالح للرجل الصالح[٢].

ولكن المصيبة أن هذه الأموال إنما تجمع فقط لمجرد الجمع ورفع الأرصدة البنكية، لا لنفع الأمة، بل ربما لم ينتفع بها أصحابها، وربما قصروا في أداء الحقوق الواجبة فيها من شدة الحرص عليها، وقد قال المصطفى ﷺ: **«والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»**[٣]. وقال ﷺ: **«فاتقوا الدنيا»**[٤].

وهذا كله معنى قوله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه**

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤١، ومسلم في النكاح ١٤٣٤، وأبو داود في النكاح ٢١٦١، والترمذي في النكاح ١٠٩٢، وابن ماجه في النكاح ١٩١٩- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- أكثر أهل الجنة الفقراء ٢٧٤٢، والترمذي في الفتن ٢١٩١، وابن ماجه في الفتن ٤٠٠٠، وأحمد ٣/ ٢٢- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أو ينصرانه». فليس المعنى أنهما يدخلانه اليهودية أو المجوسية أو النصرانية فقط، وإنما المعنى أعم من ذلك، وهو أنهما يتسببان في إخراجه من دين الفطرة الدين الحق لأي مذهب أو دين آخر، أو يشغلانه بالاهتمام بغير ما خلق له.

كما أن من مشاركة الشيطان في الأولاد أن يحملهم على عقوق والديهم، إما بسبب عقوق الوالدين لهم بإهمال تربيتهم صغارًا فعقوهم كبارًا، أو لغير ذلك.

﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، أي: إلا خداعًا وباطلًا، كما يقر ويعترف بذلك يوم القيامة إذا حصحص الحق وقضي الأمر، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾، أي: ليس لك عليهم حكم وتسلط؛ لإيمانهم وعبادتهم لله تعالى وحده، وتوكلهم عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أي: وكفى بربك يا محمد وحسبه وكيلًا كافيًا حافظًا، ومؤيدًا ونصيرًا لمن توكل عليه، أي: ما أعظم كفايته لمن عبده وتوكل عليه وأناب إليه، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

قال ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٢، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٧ - من حديث جابر ابن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٨٠، ومعنى «ينضي»، أي: يهزله ويجعله نضوًا، أي: هزيلًا.

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم؛ تقديرًا واحترامًا له، وتشريفًا وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

٢- إثبات وجود الملائكة.

٣- فضيلة الملائكة، وسرعة استجابتهم لأمر الله بسجودهم لآدم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾.

٤- عدم استجابة إبليس لأمر الله الملائكة بالسجود لآدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، أي: إلا إبليس لم يكن من الساجدين.

٥- أن عدم سجود إبليس لآدم بسبب استكباره وافتخاره على آدم واحتقاره له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

٦- إنكار إبليس كيف يؤمر بالسجود لآدم، وافتخاره بعنصره الناري؛ لقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

٧- جرأة إبليس على الاعتراض على حكم الله الكوني في تكريم آدم وتفضيله عليه؛ لقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾.

٨- تعريض إبليس بطلب النظرة إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهو ما صرّح به في آيات أخرى.

٩- إقسام إبليس على إغواء ذرية آدم وإضلالهم؛ لقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾.

١٠- أن من ذرية آدم من لا سلطان للشيطان عليهم، ولا يستطيع إضلالهم؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهم عباد الله المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

١١- إنظار الله تعالى حكمة منه لإبليس، وتسليطه على بني آدم كونًا وقدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾.

١٢- التحذير من اتباع الشيطان، وأن جزاء اتباعه جهنم جزاءً وافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

١٣- إثبات وجود جهنم، وأنها دار أتباع الشيطان، وجزاؤهم.

١٤- تحريض إبليس على استفزاز أتباعه بصوته، والإجلاب عليهم بجنوده ركبانًا ومشاةً، ومشاركتهم في الأموال والأولاد، ووعدهم الوعود الكاذبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الدعاة إلى الباطل وإلى المعصية والفجور واللهو والغناء، والحذر من مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ووعوده الكاذبة.

١٦- أن وعود الشيطان إنما هي غرور وكذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

١٧- تكفل الله عز وجل بحفظ عباده المؤمنين المتوكلين عليه من تسلط الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

١٨- إثبات عبودية المؤمنين لله عبودية خالصة.

١٩- الترغيب في عبادة الله تعالى والتوكل عليه؛ للسلامة من تسلط الشيطان وشروره.

٢٠- أن ما قدره وقضاه نافذ لا محالة، وأنه ليس لأحد تدبير في الكون مع الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢١- ضعف كيد الشيطان ومكره، فلا قدرة له على من اعتصم بالله وعبده وتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦].

٢٢- كفاية الله تعالى وحفظه وعصمته لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ.

* * *

قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: ربكم- أيها الناس- هو الذي ﴿يُزْجِى﴾، أي: يسيّر ويجري، ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، أي: السفن، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: على ظهره تمخر عبابه.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: لأجل أن تبتغوا، أي: تطلبوا، ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: من رزقه وزيادته، في ركوبكم الفلك للتجارة، ونقل البضائع عليها من إقليم إلى إقليم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: إنه كان بكم ذا رحمة واسعة، ومن رحمته إزجاء الفلك لكم في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

رُوي أن عكرمة بن أبي جهل لما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج هاربًا فارًّا من رسول الله ﷺ، فركب البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعنّ يدي في يديه، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا[1]. فخرجوا من

(١) يعني: النبي ﷺ.

البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وحسن إسلامه رضي الله عنه[١].

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾، أي: وإذا أصابكم الضر في البحر، وهو خوف الغرق.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ جواب الشرط «إذا»، و«من» موصولة، أي: ذهب وغاب الذي تدعونه من الشركاء، من الأصنام والأوثان والأنداد.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الله تعالى وحده، أي: ذهب وغاب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾، أي: فلما نجاكم وخلصكم من الخوف في البحر وخطره إلى البر والأمان، وظفرتم بالسلامة.

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، أي: توليتم وأعرضتم بقلوبكم وألسنتكم عن دعاء الله تعالى وحده لا شريك له، ورجعتم إلى الإشراك به، ونسيتم توحيده في البحر، ونعمته في إنجائكم منه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان: ٣٢].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، أي: من سجيته كفر النعم وجحودها ونسيانها، إلا من عصمه الله وهداه إلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٩٣، وانظر: أسد الغابة، ترجمة ٣٧٣٥، ٤/ ٧٠- ٧١.

﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزمر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۢۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [الروم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: ٥٣- ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾.

بعدما امتن عليهم بإزجاء الفلك لهم في البحر، وذكر إخلاصهم له في البحر، وإعراضهم عنه بعد إنجائهم إلى البر، حذرهم وخوفهم وهددهم بخسف البر بهم، أو إعادتهم مرة أخرى إلى البحر وإغراقهم.

قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ﴾ الآيتين، قرأ ابن عامر بالنون في الأفعال الخمسة: «نخسف»، «نرسل»، «نعيد»، «فنرسل»، »فنغرقكم»، وقرأ الباقون بالياء. لكن قرأ أبو جعفر ورويس: «فيغرقكم» بالتاء على التأنيث: «فتغرقكم».

قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، و«أن» والفعل «يخسف» في تأويل مصدر في محل نصب بـ «أمنتم»، أي: أفأمنتم خسف جانب البر بكم.

أي: إذا أنجاكم من خوف الغرق في البحر أفأنتم في أمن من خسف جانب البر بكم؟!

أي: فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر، ولا تأمنوا من خسف جانب البر بكم.

والخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾، أي: حجارة من السماء، أو مطرًا فيه حجارة، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود: ٨٢، الحجر: ٧٤].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾، أي: ثم لا تجدوا لكم حافظًا يحفظكم، ويدفع عنكم ذلك، وينقذكم منه.

﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة أي: بل أأمنتهم.

وأن والفعل «يعيدكم» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أمنتم»، أي: أفأمنتم إعادتكم فيه مرة أخرى؟ أي: لا تأمنوا أن يعيدكم الله في البحر مرة أخرى.

﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ القصف: الكسر، والريح القاصف: الريح الشديدة التي تكسر المراكب وتغرقها وتدمر ما أتت عليه.

﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب كفركم وشرككم، وإعراضكم عن توحيدكم الله تعالى.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾، الضمير في «به» يعود إلى المصدر المفهوم مما سبق، أي: إلى إرسال الريح عليهم وإغراقهم، أو إلى إغراقهم، أي: ثم لا تجدوا لكم علينا بإغراقكم، «تبيعًا»، أي: مطالبًا يطالبنا بما فعلنا، ويثأر لكم، ولا نخاف تبعة ذلك وعقباه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ۝٧٠﴾.

لما ذكر ما عليه المكذبون من الكفر والشرك بالله ذكر منته على بني آدم، وتكريمه

إياهم، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات، وتفضيلهم على كثير من الخلق، في إشارة واضحة إلى أنه مع هذا التكريم والتفضيل كفروا هذه النعم ولم يشكروها، إلا القليل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

والتكريم: جعل الشيء كريمًا، أي: نفيسًا غير مبذول ولا ذليل، لا في صورته ولا في حركته ولا في بشرته ولا في غير ذلك، أي: ولقد كرمنا بني آدم بجميع وجوه التكريم، فجعلنا خلقهم على أحسن الصفات، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ [التين: ٤]، فجعلناه منتصب القامة، جميل الخلقة، تام الأطراف والحواس.

وكرمناهم بالعقل والعلم، وجعلنا الرسل منهم، وأنزلنا الكتب عليهم، وجعلنا الأصفياء والصديقين والشهداء منهم، وأنعمنا عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وجعلنا لهم التسلط على ما في الأرض والتمتع به.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على الدواب من الإبل والخيل والبغال والحمير، وعلى ما يسرنا لهم صناعته من السيارات والمراكب الصناعية ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨﴾ [النحل: ٨].

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: وحملناهم في البحر في السفن والمراكب البحرية.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطيناهم من كل ما حل وحسُن وطاب، من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، وغير ذلك مما تتعلق به حوائجهم، مما يسرنا لهم زراعته وصناعته وعمله بأيديهم، ومما لا يد لهم فيه.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، «ممن»: «من» الأولى: حرف جر، والثانية: موصولة، أي: على كثير من الذي خلقناه، «تفضيلًا» مفعول مطلق منصوب، وبين التكريم والتفضيل عموم وخصوص، فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتشريف منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره. أي: فضلناهم تفضيلًا عظيمًا على كثير من المخلوقات.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ﴾.

٢- الامتنان على العباد بتسخير الفلك وإزجائها لهم، وتسييرها على ظهر البحر؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾.

٣- أن الحكمة من تسيير الفلك على ظهر البحر لتيسير التنقل عليها بين الأقاليم؛ لطلب الرزق والتجارة، ونقل البضائع، وغير ذلك من مصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٤- أن الفضل والرزق كله من الله تعالى.

٥- رحمة الله تعالى الواسعة بالعباد كلهم، ومن رحمته بهم تسخير الفلك والبحر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

٦- التعريض بضعف ما يعبده المشركون من دون الله من الآلهة، وأنهم عاجزون لا قدرة لهم على إزجاء الفلك في البحر، ولا على أي شيء كان، وإنما القادر على ذلك هو الله وحده.

٧- إخلاص المشركين- عندما يمسهم الضر في البحر ويخافون الغرق- الدعاء لله تعالى وحده دون معبوداتهم من دونه؛ لعلمهم في قرارة أنفسهم أنه لا يقدر على إنجائهم إلا الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وفي هذا رجوع إلى الفطرة الصحيحة.

٨- إعراض المشركين عن دعاء الله تعالى وتوحيده بعد إنجائه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾.

٩- أن من سجية الإنسان كفر نعم الله تعالى وجحودها ونسيانها، إلا من عصمه الله وهداه إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

١٠- حاجة الإنسان إلى مجاهدة نفسه؛ لشكر نعم الله تعالى، والبعد عن كفرها.

١١- تحذير المشركين وتهديدهم- بعد إنجائهم من هول البحر وأخطاره- من خسف جانب البر بهم، أو إرساله عز وجل عليهم حاصبًا، فيهلكهم، فلا يجدون لهم وكيلًا يدفع عنهم ذلك أو ينقذهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ

أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

١٢- أن ما يقع من خسوف في الأرض، أو إرسال حجارة من السماء، أو مطر فيه حجارة، أو رياح ترمي بالحصباء، أو أعاصير أو براكين أو غير ذلك؛ كل ذلك من أنواع العقوبات، ومما يخوف الله به العباد من الآيات.

١٣- التذكير بنعمة الله تعالى في جعل الأرض مستقرة غير مضطربة، ووجوب شكره على ذلك.

١٤- أنه لا راد لعقاب الله تعالى، ولا دافع له قبل إنزاله، ولا رافع له بعد إنزاله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

١٥- تحذير المشركين وتهديدهم من إعادتهم لركوب البحر مرة أخرى، أو إرساله عز وجل عليهم قاصفًا من الريح وإغراقهم بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

١٦- أن الكفر والمعاصي سبب للعقوبات العاجلة والآجلة، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

١٧- إثبات الحكمة في أحكام الله تعالى وأفعاله، وربط المسببات بأسبابها، وأن الله جعل لكل شيء سببًا.

١٨- أنه لا معقب لحكم الله، ولا راد لقضائه، ولا تبعة عليه فيما يفعل، يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، ولا يسأل عما يفعل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

١٩- تكريم الله عز وجل بني آدم، وتسخيره لهم المراكب في البر والبحر، ورزقه إياهم من الطيبات، وتفضيلهم تفضيلًا عظيمًا على كثير من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

٢٠- عظم فضل الله عز وجل على بني آدم، حيث كرمهم، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم، وفضلهم على كثير من مخلوقاته.

٢١- أن على بني آدم من واجب الشكر لله تعالى ما ليس على غيرهم؛ لما اختصهم

الله به من التكريم، والتفضيل، وغير ذلك.

٢٢- استدل بعضهم بالآية على تفضيل بني آدم على الملائكة، وليس هذا ظاهرًا؛ لأن الله قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾، ولم يقل: فضلناهم على جميع خلقنا، ونحو ذلك. لكن المؤمنين من بني آدم أفضل من الملائكة على القول الراجح؛ لأدلة أخرى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، «يوم» مفعول به لفعل محذوف، أي: اذكر يوم ندعو، أي: ننادي كل أناس بإمامهم، أي: بمن كانوا يقتدون به في الخير والدين، وهو نبيهم، فيقال: يا أمة محمد، يا أمة نوح، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧].

ويجوز أيضًا أن يكون إمامهم من كانوا يقتدون به بالشر والكفر، فيقال: يا أتباع فرعون، يا أتباع قارون.

ويحتمل أن يكون المراد بـ«إمامهم» كتاب أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٨- ٢٩].

ورجح هذا الحافظ ابن كثير[١]، وقال: «وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي ﷺ إذا حكم الله بين أمته، فإنه لابد أن يكون شاهدًا عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، ولكن المراد بالإمام هاهنا هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾».

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الآية، هذا يقوي القول بأن المراد بقوله: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ كتاب أعمالهم، فهو تفصيل له.

قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن أعطي كتاب أعماله بيده اليمنى، وذلك دليل سعادته.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، أي: فأولئك الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا لشأنهم، وتنويهًا بعلو مقامهم، ورفعة قدرهم ومنزلتهم.

﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾؛ لفرحهم وسرورهم، واستبشارهم بما سجل لهم فيه مما قدموه من الأعمال الصالحة، ويعرضونه من شدة الفرح على غيرهم ليقرؤوه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩-٢٠].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا يظلمون مقدار فتيل، وهو الخيط المستطيل في شق النواة، أي: لا ينقصون مما عملوه من الحسنات قدر الخيط الذي يكون في شق النواة.

قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾، الأعمى: الذي لا يبصر، ويطلق «العمى» على عمى البصر الذي ضده الرؤية والمشاهدة، ويطلق على عمى البصيرة، وهو عدم الانتفاع بما رأى وشاهد، أو قرأ وسمع، وهو أعظم وأشد من عمى البصر، بل هو المصيبة العظمى، وهو المراد في الآية، أي: ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الحق، لا يبصر

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٩٦.

آيات الله الكونية المشاهدة، ولا يتفكر فيها، ولا ينظر في آيات الله الشرعية ولا يتدبرها.

﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ جواب الشرط «من»، أي: فهو في الدار الآخرة، ﴿أَعۡمَىٰ﴾، أي: أشد عمى عن سلوك طريق الجنة، كما لم يسلك طريق الحق في الدنيا. فـ«أعمى» الأولى اسم فاعل، و«أعمى» الثانية اسم تفضيل، أي فهو في الآخرة أشد عمى.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾، أي: وأشد ضلالًا في الآخرة عن الجنة، من ضلاله في الدنيا عن طريق الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ الواو: استئنافية، و«إن»: مخففة من الثقيلة مهملة وجوبًا، و«كادوا» بمعنى: قاربوا، أي: وإن كاد كفار قريش.

﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾، أي: ليوقعونك في الفتنة.

﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: فيصرفونك عن الذي أوحينا إليك، أي: عن القرآن الكريم.

﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ اللام: للتعليل، أي: طمعًا منهم أن تفتري، أي: تختلق علينا غيره مما يوافق أهواءهم، وحاشاك من ذلك.

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ الواو: عاطفة، و«إذًا» بالتنوين حرف جواب لا عمل لها. واللام: واقعة في جواب شرط مقدر، أي: لو فعلت ذلك لاتخذوك خليلًا، أي: لجعلوك صديقًا حبيبًا خالصًا؛ لأنهم في الحقيقة لم يعادوك لذاتك، وإنما لما جئت به، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، أي: ولولا تثبيتنا لك حاصل أو موجود، أي: ولولا أن عصمناك وثبتناك على الحق وقويناك وأيدناك، وفي هذا امتنان من الله عز وجل عليه ﷺ.

﴿لَقَدۡ كِدتَّ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لقد قاربت.

﴿تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾، أي: تميل إليهم شيئًا قليلًا من الركون؛ حرصًا منك على هدايتهم ومحبة لذلك.

﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾، «إذًا» كالتي قبلها، أي: لو فعلت ذلك، ﴿لَّأَذَقۡنَٰكَ﴾، أي: جعلنا ذلك يمسك ويصيبك.

ومعنى ﴿ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾، أي: ضعف عذاب الحياة ﴿وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾، أي: ضعف عذاب المهات، أي: عذاب ما بعد الموت، من عذاب البرزخ وعذاب الآخرة.

وضعف الشيء: كثره مرتين، والمعنى: لأذقناك عذابًا مضاعفًا في الدنيا والآخرة؛ لكمال نعمة الله عليك، وتمام معرفتك بالله، وحاشاه ﷺ من ذلك، وقد تكفل الله بتثبيته وعصمته.

وهذا كما في قوله تعالى مخاطبًا أزواجه ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وحاشاهن من ذلك رضي الله عنهن، لكن فيه دلالة على أن العقوبة تكون على قدر النعمة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾، أي: لو ركنت إليهم وأخذناك بذلك- وحاشاه ﷺ من ذلك- لا تجد لك علنيا من ينصرك وينقذك من ذلك، ولكن الله عصمك فلم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم النعمة، وأبلغ المنحة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾.

ذكر أولًا محاولة المشركين افتتانه ﷺ وصرفه عن القرآن، ثم أتبع ذلك بذكر محاولتهم إخراجه من المدينة لما يئسوا من صرفه عن القرآن.

قال ابن كثير[1]: «وقيل: نزلت في كفار قريش همّوا بإخراج الرسول ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا،

---

(١) في «تفسيره»: ٥/ ٩٨.

وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى سراتهم؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم، ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه السلام رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]».

قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الواو عاطفة، أي: وإن كاد كفار قريش، أي: قاربوا ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يخرجوك منها، أي: من مكة.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «خَلْفك» بفتح الخاء وإسكان اللام من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿خِلَافَكَ﴾ بكسر الخاء، وفتح اللام وألف بعدها.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: وإذا أخرجوك، أو وإذا خرجت ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يقيمون بعدك، أي بعد خروجك منها، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا زمنًا يسيرًا، ثم يهلكون، أو يخرجون منها فيهلكون فلا يرجعون إليها، كما حصل لكفار مكة، خرجوا منها فقتلوا في بدر ولم يرجعوا إليها.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، ﴿سُنَّةَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: سننَّا ذلك سنة.

ويجوز أن يكون منصوبًا بنزع الخافض، أي: كسنة من أرسلنا قبلك.

والسنة: العادة والسيرة الثابتة، والمعنى: أن هذه سنتنا فيمن أرسلنا قبلك من الرسل، أن الرسول إذا أخرجه قومه أو اضطروه إلى الخروج فإنهم لا يلبثون بعد خروجه إلا زمنًا يسيرًا ثم يُهلكون، وهكذا خرج كثير من الرسل من ديار أقوامهم، منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وغيرهم، وأهلكت أقوامهم.

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، أي: ولا تجد لسنتنا تغييرًا، أي: إن سنتنا في ذلك ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الآية: ٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بالقيامة، ونداء كل أناس بإمامهم، وهو كتاب أعمالهم، أو من كانوا يقتدون به في الدنيا من داع للخير والحق من الأنبياء وأتباعهم، أو داع للشر والباطل من دعاة الكفر والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

٢- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: سعداء يؤتون كتبهم بأيمانهم، يقرؤونها ويستبشرون بما سطروا فيها من الأعمال الصالحة، وضلّال عموا عن الحق في الدنيا، فكانوا في الآخرة أشد عمى وضلالًا عن طريق الجنة- نسأل الله العافية- ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٣- إثبات كتابة الأعمال والمجازاة عليها.

٤- تكريم المؤمنين السعداء بإيتائهم كتبهم بأيمانهم.

٥- شدة فرح وسرور من أوتي كتابه بيمينه وغبطته وبهجته واستبشاره، نسأل الله تعالى من فضله.

٦- أنه لا يظلم أحد في ذلك اليوم بأن ينقص من أجورهم ولا مقدار فتيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ وذلك لتمام عدله عز وجل.

٧- أن من كان في الدنيا أعمى عن طريق الحق والهدى، فهو في الآخرة أشد عمى وضلالًا عن طريق الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

٩- إثبات الدار الآخرة.

١٠- أن العمى الحقيقي هو عمى القلوب والبصائر عن رؤية الحق ومعرفته، لا عمى الأبصار عن مشاهدة الأشياء الحسية، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

١١- حرص كفار قريش على صرفه ﷺ عن الذي أوحاه الله تعالى إليه من القرآن، ومقاربتهم ذلك طمعًا منهم أن يفتري على الله غيره- وحاشاه ﷺ من ذلك- لعصمة الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾.

١٢- أن عداوة هؤلاء الكفار ليست لذاته ﷺ، فهو ذو الخلق الكريم والأمين عندهم، وإنما عداوتهم له لما جاءهم به من الحق، فلو أجابهم إلى ما يدعونه إليه- وحاشاه ﷺ من ذلك- لاتخذوه خليلًا وأحبوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

١٣- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بتثبيته إياه وعصمته وحفظه إياه من الركون إلى المشركين شيئًا قليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، وذلك بسبب حرصه ﷺ على هدايتهم ومحبته لذلك.

١٤- شدة حاجة العبد إلى تثبيت الله تعالى إياه؛ لأن النبي ﷺ- وهو أكمل الخلق- قال الله تعالى له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فكيف بغيره.

١٥- أنه ليس بين الله وبين أحد من الخلق نسب، وأن العقوبة على قدر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾. وحاشاه ﷺ من ذلك؛ لأنه معصوم في أمر تبليغ الرسالة، وهكذا جميع الرسل، وإنما هذا من باب الفرض والتقدير فقط.

١٦- أنه لا يستطيع أحد الانتصار من عذاب الله ورده أو رفعه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

١٧- عمل المشركين كل ما يستطيعونه لاستفزازه ﷺ من الأرض وإخراجه من مكة، ومقاربتهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

١٨- أن خروجه ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو بسبب أذية المشركين له ﷺ وتضييقهم عليه في دعوته.

١٩- الوعيد والتهديد للمشركين بأنهم إن أخرجوه من مكة لا يقيمون بعده فيها إلا زمنًا يسيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهكذا وقع، فإنهم

لما ضيقوا عليه وخرج لم يمض سوى أقل من سنتين حتى خرجوا من مكة ليلقوا حتفهم في بدر الكبرى، ولم يرجعوا إليها.

٢٠- أن سنة الله تعالى في المرسلين قبله ﷺ أن الأمم إذا أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم أهلكوا بعد خروجه، ولم يمهلوا؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾.

٢١- أن سنة الله ثابتة في إهلاك من أخرجوا رسولهم من الأمم بعد خروجه من بين أظهرهم بزمن قليل، لا تتحول ولا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ۝٨٣ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ۝٨٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾.

ثبت في أحاديث الإسراء- والتي سبقت الإشارة إلى بعضها في تفسير مطلع السورة- أن الله عز وجل فرض على النبي ﷺ وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة، وفي هذه الآية بيّن عز وجل أوقات هذه الصلوات.

قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: أقم الصلوات الخمس المكتوبات في أوقاتها.

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ اللام: للتوقيت، أي: لوقت دلوك الشمس، وهي بمعنى «عند»، أي: عند دلوك الشمس، أي: عند زوالها، وهو: ميلانها إلى الأفق الغربي، ويدخل فيه صلاة الظهر، وصلاة العصر.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ غسق الليل: ظلامه بعد غروب الشمس، ويدخل فيها صلاة المغرب وصلاة العشاء.

﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، أي: صلاة الفجر، وسميت «قرآن الفجر»؛ لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها.

﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾، «إن»: حرف توكيد، والجملة: تعليلية، أي: لأن قرآن الفجر كان مشهودًا، يشهده الله عز وجل، وتشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله:

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»(١).

وفي رواية قال ﷺ: «**تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**». قال أبو هريرة رضي الله عنه: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾»(٢).

كما أن هذا الوقت يشهده أكبر عدد من المصلين؛ لأنه يكون وقت اجتماع الناس في بيوتهم وقيامهم من النوم، بخلاف بقية الأوقات فالناس يكونون متفرقين في أعمالهم.

ولا تسألني عن حال المسلمين اليوم عندما يكون عدد المصلين الفجر هو الأقل؛ بسبب قلة الإيمان، وضعف الوازع الديني، وفشو النفاق، وبعد الناس عن دينهم، ومخالفتهم سنة الله الكونية بسهر اليل، فهذا خروج عن المنهج السليم والصراط المستقيم لا اعتبار له، ولا يعول عليه، نسأل الله لنا ولجميع المسلمين الهداية.

وقد يضاف إلى ما سبق في معنى ﴿مَشْهُودًا﴾ أن القلب في هذا الوقت يكون شاهدًا حاضرًا فيواطئ اللسان؛ لأنه وقت السكون، وقلة الحركة، والراحة والنشاط بعد الاستيقاظ من النوم، كما قال تعالى عن قيام الليل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾، أي: صلِّ به، في سائر أوقاته، والتهجد: صلاة الليل، ما بعد العشاء، أو ما بعد النوم، وقال بعضهم: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: **صلاة الليل**»(٣).

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ النافلة: الزيادة، ومنه سميت الأنفال؛ لأنها زيادة عن المقصود الأهم

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٤٧٤، والترمذي في تفسير سورة بني إسرائيل ٣١٥٣، وابن ماجه في إقام الصلاة- وقت صلاة الفجر ٦٧٠.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل ٤٧١٧، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة- فضل صلاة الجماعة ٦٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في الصيام- فضل صوم المحرم ١١٦٣، والترمذي في الصلاة ٤٣٨.

من القتال، وهو إعلاء كلمة الله، والمراد بالنافلة هنا: الزيادة، وليس المراد بها النافلة التي يقابلها الفرض والواجب، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة على الولد.

فالمعنى: زيادة لك خاصة في علو القدر، ورفعة الدرجات، ومضاعفة الأجر؛ لأن قيام الليل واجب في حقه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١- ٤].

ووصف تهجده ﷺ بأنه نافلة له، مع أن قيام الليل واجب في حقه؛ لأنه ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقيامه الليل وتهجده كله زيادة في أجره، لا تكفير كما هو حال غيره.

ولو كان المراد بالنافلة التطوع لما خصه به بقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، فالتطوع نافلة للأمة كلها.

قال ابن القيم: «والمقصود أن النافلة في الآية لم يُرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب والمندوب، وإنما المراد: الزيادة في الدرجات، وهذا قدر بين الواجب والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافيًا لما دل عليه الأمر من الوجوب»(١).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ «عسى» من الله واجبة، ووعد منه عز وجل له ﷺ بأن يبعثه هذا المقام المحمود.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «عسى». أي: عسى أن يقيمك ربك «مقامًا محمودًا»، أي: مقامًا يحمده فيه أهل الجمع كلهم، كما قال ﷺ(٢)، وهو مقام الشفاعة العظمى لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: «**هي الشفاعة**»(٣).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٧٥- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤١، ٥٢٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٣٧- وقال: «حديث حسن».

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾.

لما أمره تعالى بالشكر الفعلي بإقام الصلوات المكتوبة في أوقاتها، وصلاة التهجد في الليل، عطف عليه أمره بالشكر القولي باللسان، بالابتهال إلى الله تعالى بسؤاله أن يدخله مدخل صدق، ويخرجه مخرج صدق، وينصره.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾، أي: وقل يا رب.

﴿أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾، «مدخل»: مصدر ميمي من الرباعي «أدخل»، وزنه «مُفعَل» بضم الميم وفتح العين، و«مُخْرَج»: مصدر ميمي من الرباعي «أخرج»، وزنه «مُفعَل» بضم الميم وفتح العين.

قال ابن القيم: «وحقيقة الصدق الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة، فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته، بالظفر بالبغية وحصول المطلوب.. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في بدر، وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة؛ ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجَلّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق؛ إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته»[١].

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك.

﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾، أي: تأييدًا وحجة وقوة وغلبة. وقد آتاه الله ذلك كله فأيده ونصره على أعدائه، ومكّنه من الدعوة إلى الله تعالى، وإقامة شرعه وتطبيق حدوده، وقهر من ناوأه وعاداه، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٩٨- ٩٩.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال عثمان رضي الله عنه: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١).

قال ابن كثير بعد أن ذكر قول عثمان رضي الله عنه: «أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع».

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

قوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو ما بعث الله به رسوله ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة. والحق بمعنى: الأمر الثابت.

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، أي: ذهب وزال واضمحل الباطل، وهو ما ليس بحق.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أي: لا ثبات له أمام الحق، ولا بقاء له مع الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾»(٢).

قال السعدي(٣): «أي: أن هذا هو وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة ورواج إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل فلا يبقى له حراك؛ ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمنة والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته».

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ «من»: لبيان

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل، ٤٧٢، ومسلم في الجهاد- إزالة الأصنام من حول الكعبة ١٧٨١، والترمذي في تفسير سورة بني إسرائيل ٣١٣٨، وأحمد ١/ ٣٧٧، ٣٧٨.

(٣) في: تيسير الكريم الرحمن، ٤/ ٣٠٨.

الجنس، لا للتبعيض؛ لأن القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

و«ما»: موصولة، أي: الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين.

والشفاء منه ما يكون شفاء للأمراض الحسية، ومنه ما يكون شفاء للأمراض المعنوية والنفسية.

قال عنترة(١):

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس: أيك عنتر أقدم

والقرآن الكريم فيه الشفاءان، فهو شفاء للقلوب من الأمراض المعنوية: من الشرك والشك والنفاق والجهل، ومن الحسد والحقد والعداوة والبغضاء والشحناء والإحن، ومن الكبر والعجب والخيلاء، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن»(٢).

وهو شفاء لأمراض القلوب والأبدان الحسية الجسدية والنفسية، بحيث يقرؤه المريض على نفسه أو يُقرأ عليه، فيشفى بإذن الله تعالى، كما في قصة اللديغ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال: «فلدغ سيد القوم، فقالوا: هل فيكم من راقٍ؟ فقلنا لهم لم تقرونا. فجعلوا لنا جعلًا، فجعل رجل منا يقرأ بفاتحة الكتاب ويتفل حتى قام اللديغ كأنما نشط من عقال. فأعطوهم قطيعًا من الغنم» الحديث(٣).

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ «رحمة»: معطوف على ﴿شِفَآءٌ﴾، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢١٩).

(٢) انظر: بدائع التفسير: ٣/ ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٣٦، ومسلم في السلام ٢٢٠١، وأبو داود في البيوع ٣٤١٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٣، وابن ماجه في التجارات ٢١٥٦.

بـ«ننزل»، أي: شفاء للمؤمنين خاصة، ورحمة أيضًا للمؤمنين خاصة يهتدون به إلى الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، دون غيرهم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ولا يزيد الظالمين بالشرك إلا خسارًا؛ لكفرهم، وعدم إيمانهم به، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، أي: أغدقنا عليه النعم من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب، والصحة والمال، وغير ذلك.

﴿أَعۡرَضَ﴾، أي: أعرض بقلبه عن الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ [يونس: ٢١].

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قرأ أبو جعفر، وابن ذكوان بألف قبل الهمزة: و«ناء»، وقرأ الباقون بألف بعد الهمزة: ﴿وَنَـَٔا﴾.

والجانب: الجنب، وهو الجهة التي فيها اليد، وهما جانبان: يمين ويسار.

والمعنى: تولى ببدنه وتباعد بكليته عن طاعة الله ربه وعبادته؛ كبرًا وعنادًا وغرورًا،

فجمع بين الإعراض والتباعد.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: وإذا أصابه الشر من مرض أو فقر أو هم أو غم أو تسلط عدو، أو غير ذلك من المصائب والحوادث والنوائب.

﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ ﴿يَـُٔوسًا﴾ صيغة مبالغة تدل على شدة يأسه.

ومعنى﴿يَـُٔوسًا﴾، أي: قنوطًا من رحمة الله تعالى ومن الفرج، أي: قنوطًا أن يحصل له بعد ذلك الشر خير أبدًا.

وكان المؤمل إذا كانت النعمة تبطره أن تكون النقمة تذكره، ولكن هيهات ذلك.

فهذه طبيعة الإنسان إلا من هداه الله تعالى يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره، وإذا مسه الشر كان يؤوسًا من الخير، يظن أنه لن يحصل له بعد ذلك الشر خير أبدًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩-١١].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: قل يا محمد كل يعمل على طريقته وما يليق به، وكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها.

قال ابن القيم: «أي: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل يجري على طبيعته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله».

قال: «والنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفوس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها

أكبر من كل ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك. فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها»[١].

وفرق بين من يسعى لفكاك نفسه وإعتاقها، ومن يسعى لإهلاك نفسه وإيباقها، أعظم مما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[٢].

قال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب[٣]

وقال الآخر:

ومن يتهيب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر[٤]

وقال الآخر:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام[٥]

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

فلا تسكنن الدهر دار مذلة ... تعد مسيئًا بعدما كنت محسنا[٦]

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: فربكم أيها الناس أعلم بالذي هو أهدى طريقا، كما أنه سبحانه أعلم بالذين هم أضل طريقا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٠٠- ١٠١.
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
(٣) البيت لعلى بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص١٥).
(٤) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص٧٠).
(٥) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص١٦٤).
(٦) البيتان مجهولا النسب. انظر: «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧)، «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٠).

وفي هذا وعد للمهتدين المؤمنين، ووعيد وتهديد للضالين الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١- ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

الفوائد والأحكام:

١- تحديد وبيان أوقات الصلوات الخمس المكتوبة، التي لا تصح الصلاة قبلها ولا بعدها، وأن الوقت شرط لصحة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾الآية.

٢- أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، أي: واجبة عليهم في أوقاتها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

٣- أن وقت صلاة الظهر من زوال الشمس، وصلاة العصر بعدها إلى الغروب؛ لقوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾.

٤- جواز الجمع بين صلاة الظهر وصلاة العصر للعذر؛ لأن وقتهما واحد.

٥- أن وقت صلاة المغرب بعد غروب الشمس، وصلاة العشاء بعدها عند اشتداد ظلمة الليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾.

٦- جواز الجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء للعذر؛ لأن وقتهما واحد.

٧- أن وقت صلاة الفجر عند طلوع الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٨- تعظيم صلاة الفجر وفضيلة إطالة القراءة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، أي: يشهده الله والملائكة.

٩- أن القراءة واجبة أو ركن من أركان الصلاة؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دلّ ذلك على وجوبه فيها.

١٠- مشروعية التهجد وقيام الليل، وهو سنة في حق الأمة، وواجب في حقه ﷺ؛ رفعةً في قدره، وزيادةً في أجره، وعلوًّا في مقامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

١١- تشريفه ﷺ بخطاب الله عز وجل له، وتكريمه له بوعده المقام المحمود، وهو

الشفاعة العظمى للناس يوم القيامة، لفصل القضاء بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ، لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾.

١٣- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعاء والابتهال إلى ربه بأن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق، في جميع مداخله ومخارجه، من خروجه من مكة ودخوله المدينة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾.

١٤- شدة حاجته ﷺ إلى تأييد الله تعالى له بالحجة والبرهان، ونصره بالقوة والسلطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾، والأمة أحوج ما تكون إلى الدعاء بهذا الدعاء.

١٥- تهديد كفار قريش ووعيدهم بأنه قد جاءهم من الله الحق، الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعث الله به رسوله من القرآن، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح.

١٦- ثبات الحق ورسوخه، وزوال الباطل واضمحلاله، وأنه لا ثبات للباطل أمام قوة الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾.

١٧- أن من طبيعة الباطل الزهوق والزوال والاضمحلال، ولا ثبات له أمام الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

١٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته، لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.

١٩- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم شفاء للمؤمنين من الأمراض المعنوية والنفسية والجسدية، ورحمة لهم، به يهتدون إلى الطريق المستقيم في الدنيا، وإلى طريق الجنة في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم لا يزيد الظالمين- بسبب كفرهم به، وعدم انتفاعهم بما فيه- إلا خسارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٢٢- أن من طبيعة الإنسان الإعراض عند النعمة، والاغترار وعدم الشكر، واليأس الشديد من رحمة الله ومن الفرج عند البلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾، ولا يستثنى من هذا إلا من هداه الله ووفقه إلى سلوك صراطه المستقيم.

٢٣- أن المنعم بسائر النعم هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

٢٤- أن الخير كله بيديه عز وجل، والشر ليس إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، فأضاف الإنعام عز وجل إليه دون الشر، مع أنه المقدر لذلك كله.

٢٥- أن كل أحد من الخلق يعمل على شاكلته وطريقته، وما يليق به ويميل إليه، فعامل خيرًا، وعامل شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، كما قال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[1].

٢٦- الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين، وأنه عز وجل أعلم بمن هو أهدى طريقًا، كما أنه أعلم بمن هو أضل طريقًا، وسيجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

٢٧- أنه لا إكراه في الدين، فكل يعمل على طريقته وما يميل إليه ويختاره، فمن عمل خيرًا أثيب عليه، ومن عمل شرًّا عوقب به.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه، يسمعكم ما تكرهون. فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن الروح. فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه، فتأخرت عنه، حتى صعد الوحي، ثم قال: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾» الآية[1].

قال ابن كثير[2] بعد ذكره حديث ابن مسعود: «وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية، ويمكن أن يجاب عن هذا بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه وحي بأن يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه وهي هذه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾».

ثم استدل على نزول هذه الآية بمكة بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير بني إسرائيل ٢٧٢١، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح ٢٧٩٤، وأحمد ١/ ٣٨٩، ٤١٠، ٤٤٥، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٤١.

(٢) في «تفسيره» ١/ ١١٢.

قال: وأنزل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]»[١].

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾، أي: يسألك- يا محمد- اليهود عن الروح.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: من شأنه وأمره الكوني، ومما استأثر بعلمه واختص به دون الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد اختلف في المراد بالروح المسؤول عنها:

فقال بعض المفسرين: المراد بها أرواح بني آدم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، فالسؤال عن حقيقة الروح وماهيتها التي بها يحيا الإنسان وبخروجها يموت، وقد رجح هذا ابن حجر[٢] والشوكاني[٣].

وقال بعض المفسرين: المراد بها جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

وقال بعضهم: المراد بها طائفة من الملائكة.

وقال بعضهم: المراد بها ملك عظيم، فعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الروح ملك»[٤].

قال ابن القيم: «وأكثر السلف- بل كلهم- على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم، ومعلوم أنهم سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٥، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ٣١٤٠، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: «فتح الباري» ٨/ ٢٥٥- ٢٥٦.

(٣) «فتح القدير» ٣/ ٢٥٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٥/ ٧١.

(٥) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٠٤.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، أي: ما أعطاكم الله وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، أي: أن علمكم وعلم جميع الخلائق في علم الله تعالى قليل، كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه في قصة الخضر، أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نقرة، أي: شرب منه بمنقاره، فقال لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ۝٨٧﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا﴾ الواو: استئنافية، أو عاطفة، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن شئنا، أي: أردنا كونًا وقدرًا.

﴿لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: لنذهبن بالقرآن الذي أوحيناه إليك، أي: لنذهبنه عنك ونسلبنه منك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ الضمير في «به» يعود إلى مصدر «نذهبن».

﴿عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ يمنعنا من إذهابه عنك، أو يرده إليك بعد ذهابنا به.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ الاستثناء منقطع، و«إلا» بمعنى «لكن» حرف استدراك، أي: لكن رحمةً من ربك لم نشأ الذهاب بما أوحينا إليك، بل تكفلنا ببقائه وحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: ومن فضله عليك أنه لن يذهب بالذي أوحاه إليك.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ۝٨٩﴾.

قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ﴾ اللام موطئة للقسم، و«أن»

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٢٧، ومسلم في الفضائل ٢٣٨٠، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٤٩.

والفعل «يأتوا» في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: على الإتيان بمثل هذا القرآن.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ جواب القسم المحذوف، وجرد من اللام كراهة اجتماع لامين: لام القسم ولا النافية.

﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: بقرآن مثل هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى.

والمعنى: قل مقسمًا لهم بالله: والله لئن اجتمعت الإنس والجن، أي: اتفقوا، واتحد رأيهم على المجيء بمثل هذا القرآن الذي أنزله الله عليّ.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، أي: لا يستطيعون الإتيان بمثله، بل ولا بعشر سور من مثله، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [الآية: ١٣]، بل ولا بسورة من مثله، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [الأية: ٢٣]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ [الآية: ٣٨].

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، أي: معينًا، أي: ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا على ذلك.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: صرفنا للناس الآيات في هذا القرآن، ونوعنا لهم الأساليب، وبينا لهم الحجج، وأوضحنا لهم الأدلة والبراهين، وضربنا لهم الأمثال، وكررنا لهم المواعظ.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ «إلا» أداة حصر، ﴿كُفُورًا﴾ مفعول به منصوب، والتقدير: لم يرضوا إلا كفورًا، أي: جحودًا للحق، وردًّا له، وتماديًا في الباطل والضلال.

الفوائد والأحكام:

١- سؤال اليهود والمشركين النبي ﷺ عن الروح؛ عنادًا وتحديًا وتعجيزًا له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

٢- أن الروح من شأن الله وأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾، وقوله: ﴿رَّبِّكَ﴾.

٤- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وأنه إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

٥- أن اليهود والمشركين وغيرهم من الخلق لم يعطوا إلا قليلًا من علم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٧- إخباره عز وجل أنه لو شاء لذهب بما أوحاه إليه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٨- تعظيم القرآن الكريم، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾الآية.

٩- أنه لو قدر- فرضًا- الذهاب بما أوحاه عز وجل إليه ﷺ، فلن يجد له به على الله وكيلًا يمنع من إذهابه عنه، أو يرده عليه بعد إذهابه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾.

١٠- أنه لا أحد من الخلق- لا الرسول ﷺ، ولا غيره- يستطيع منع أو دفع أو رفع ما أراد الله به.

١١- أن من رحمته عز وجل له ﷺ وفضله عليه تكفله بحفظ القرآن الكريم وعدم الذهاب به؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾.

١٢- إثبات رحمة الله تعالى الفعلية التي يوصلها إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾.

١٣- عظم فضل الله عز وجل على نبيه ﷺ، ومن أجلِّ ذلك إنزال القرآن عليه، ورحمته بحفظه له، وعدم الذهاب به.

١٤- تحدي الإنس والجن بالإتيان بمثل القرآن، مهما اجتمعوا وتظاهروا وتعاونوا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾.

١٥- إثبات إعجاز القرآن الكريم.

١٦- إقامة الحجة على الخلق بتصريف الآيات في القرآن الكريم، وتنويع

الأساليب، وبيان الحجج، وإيضاح الأدلة والبرهان، وضرب الأمثال، وتكرار المواعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

١٧- إباء كثير من الناس إلا الكفر، وامتناعهم من الإيمان، مع تصريف القرآن، وقيام الحجة على الخلق أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٩٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾.

لما تحدى عز وجل جميع الإنس والجن بالإتيان بمثل هذا القرآن، وأنهم لا يستطيعون ذلك مهما تظاهروا وتعاونوا، وبيّن أنه صرّف للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثرهم إلا كفورًا، أتبع ذلك بذكر ما عليه المشركون من التعنت والعناد واقتراح الآيات.

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، أن جمعًا من المشركين من سادة قريش منهم عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وعبدالله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، وغيرهم اجتمعوا عند الكعبة، وبعثوا إلى النبي ﷺ فجاءهم، وطلبوا منه التنازل عما جاءهم به، ورغبوه ليكف عما يدعوهم إليه، فلما أبى أن يقبل منهم ذلك لجؤوا إلى اقتراح أن يأتيهم بكذا وكذا من الآيات، من تسيير الجبال، وتفجير الأرض بالينابيع، وغير ذلك، أو إسقاط السماء عذابًا لهم، أو الإتيان بالملائكة، ونحو ذلك مما أَمْرُهُ إلى الله تعالى، وليس بمقدوره ﷺ[1]. فأعرضوا عن القرآن أعظم الآيات وأوضح

(١) أخرجه مطولاً الطبري في «جامع البيان» (١٥/ ٨٧- ٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

البينات، وأخذوا يقترحون ما تمليه عليهم آراؤهم الفاسدة وعقولهم الضالة من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾.

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم وتخفيفها: ﴿تَفْجُرَ﴾. وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم وتشديدها: «تُفَجِّر». «والتفجير»: التشقيق، وهو أبلغ من «الفجر» وهو الشق.

أي: لن نصدقك فيما جئتنا به إلى غاية أن تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، أي: عينًا معينًا جارية.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ «أو» في هذا الموضع والمواضع التي بعده عاطفة تفيد التخيير، أي: أو يكون لك بستان من نخيل وعنب.

﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، أي: فتشقق الأنهار.

﴿خِلَٰلَهَا﴾، أي: خلال هذه الجنة، أي: في وسطها وجنباتها وبين أشجارها.

﴿تَفْجِيرًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: تفجيرًا واسعًا قويًا كثيرًا.

ومقصودهم أن يدعو ربه، فيحصل ذلك معجزةً وخارقًا للعادة بين عشية وضحاها، دون فعل الأسباب لذلك.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، وعاصم: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين. وقرأ الباقون بإسكانها: «كِسْفًا».

﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ في تهديدك لنا بالعذاب، و«الزعم»: أشد الكذب، ودعوى المستحيل.

وفي قولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ اعتراض بين الفعل «تسقط» وبين المتعلق به «علينا»؛ للتهكم والتعجيب، وتأكيد التكذيب فيما تُوُعِّدوا به من العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ [الطور: ٤٤].

وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٥- ٢٩٧)، «تفسير ابن كثير» (٥/ ١١٥- ١١٧).

أي: فيما زعمت مما لا يصدقه أحد، وهذا كقول قوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، أي: قطعًا من العذاب، عقوبة لنا، وتُعجل لنا العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾، أي: نشاهدهم مقابلةً وعيانًا.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾، أي: من ذهب.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾، أي: تصعد في السماء، في سلم ونحن نشاهدك وننظر إليك. ثم لم يكتفوا بهذا، بل زادوا بقولهم:

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾، أي: ولن نؤمن ونصدق لمجرد رقيك في السماء.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ «حتى»: للغاية، أي: إلى غاية أن تنزل من السماء علينا ﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾، أي: تنزل على كل واحد منا كتابًا له خاصة منشورًا يقرؤه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢].

﴿قُلْ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر: «قال» فعل ماضٍ. وقرأ الباقون: ﴿قُلْ﴾ فعل أمر.

﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾، أي: أسبح ربي، وأنزهه وأقدسه، وأجله، وأعظمه، مما اجترأتم عليه مما فيه سوء أدب مع الله تعالى، ومن أن أدعي قدرتي على شيء مما ذكرتم مما لا يستطيعه غير الله عز وجل؛ ولهذا قال:

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ «هل»: حرف استفهام بمعنى النفي، أي: ما كنت، ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ كغيري من البشر، ﴿رَّسُولًا﴾ خصني ربي برسالته إليكم، وكلّفني بها، أي: فليس بيدي شيء من الأمر، وإنما مهمتي تبليغ رسالة ربي إليكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ

ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر المحذوف، أي: وما منع الناس من الإيمان، أي: وما منع أكثر الناس من الإيمان واتباع الرسل.

﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، أي: حين أتاهم الهدى من عند الله تعالى، على ألسنة رسله عليهم السلام، وفي كتبه المنزلة عليهم.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل قالوا: في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ« منع »، أي: وما منعهم من الإيمان إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾، الهمزة: للاستفهام التعجبي، أي: متعجبين جهلًا منهم أن يكون الرسول بشرًا من جنسهم، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦].

وكذا قال كثير من الأقوام لرسلهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٤].

﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ﴾، أي: مستقرين، كما أنتم فيها.

﴿لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾، أي: من جنسهم، كما بعثنا فيكم بشرًا رسولًا من جنسكم؛ لطفًا ورحمةً بكم، لتفقهوا عنه وتفهموا خطابه وكلامه، ولو بعث الله إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه؛ ولهذا امتن الله على الأمة إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم، ومن جنسهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ الباء: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: كفى الله شهيدًا بيني وبينكم، أي: شهيدًا عليّ وعليكم، يشهد لي بصدقي فيما جئتكم به، وأنه هو الحق، ويشهد عليكم بتكذيبكم الحق وردكم له.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليل للاكتفاء به تعالى شهيدًا، أي: ذا خبرة تامة، وذا بصر واطلاع على جميع أفعال عباده وأقوالهم وأحوالهم: الباطنة والظاهرة، الدقيقة والجليلة، الخفية والجلية.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو مشركي مكة وردهم الحق، وكفرهم بالقرآن أعظم آيات الله تعالى، واقتراحهم من عند أنفسهم الآيات تعجيزًا وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾، كما قالوا في سورة الفرقان: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الآيتان: ٧، ٨].

٢- شدة تكذيبهم للنبي ﷺ وسخريتهم منه؛ لقولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾.

٣- جرأتهم على الله تعالى، وسوء أدبهم معه؛ لقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة.

٥- تسبيح الله وتنزيهه عما يقول الظالمون وتقديسه وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾.

٧- أنه ﷺ ما هو إلا بشر كغيره من البشر، ورسول اختصه برسالته إلى هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

٨- أنه ﷺ ليس بمقدوره الإتيان بما يقترحونه من الآيات، وليس ذلك إليه، وإنما أمر ذلك إلى الله تعالى.

٩- أن من أسباب امتناع كثير من الناس من الإيمان بعد أن جاءهم الهدى، تعجبهم- جهلًا منهم- أن يبعث الله بشرًا رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

١٠- أن من لطف الله تعالى ورحمته وحكمته جعل الرسل إلى البشر بشرًا من جنسهم؛ ليفقهوا ويفهموا عنهم، بخلاف ما لو كان الرسل إلى البشر من الملائكة، لم يستطيعوا مواجهتهم، ولا الأخذ عنهم.

١١- أنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين مستقرين فيها لنزل الله عليهم رسولًا من الملائكة- لا من البشر- ليتمكنوا من الأخذ عنه والفهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾، أي: ومن يهده الله، أي: يوفقه للصراط المستقيم، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ حقًّا.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾، أي: ومن يضلله، أي: يضلله عن الصراط المستقيم، فيخذله ويحرمه التوفيق.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه، وإذا لم يجد لهم أولياء فمعنى ذلك نفي وجودهم.

وجمع الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ باعتبار معنى «مَن»، أي: فلن تجد لهؤلاء الضالين أولياء غير الله، يتولونهم وينصرونهم، فيهدونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله؛ لأنه عز وجل المتفرد بالهداية والإضلال، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، أي: ونجمعهم يوم القيامة على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «**الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»[(١)].

﴿عُمۡيٗا﴾ لا يبصرون، ﴿وَبُكۡمٗا﴾ خرسًا لا ينطقون، ﴿وَصُمّٗا﴾ لا يسمعون، كما كانوا في الدنيا عميًا وبكمًا وصمًا عن الحق، لا يرونه، ولا ينطقون به، ولا يسمعونه، جزاءً وفاقًا.

وهذا لا ينافي أنهم في بعض الأحوال يبصرون وينطقون ويسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف:٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٢].

كما لا ينافي ذلك ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: «أما قوله «عميًا» فلا يرون شيئًا يسرهم، وقوله: «بكمًا» لا ينطقون بحجة، وقوله: «صُمًّا» لا يسمعون شيئًا يسرهم»[(٢)].

﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: مرجعهم ومصيرهم ومنقلبهم نار جهنم.

﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾، أي: كلما سكنت، أي: سكن لهيبها.

﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾، أي: سعرناها بهم، فازدادت لهبًا ووهجًا، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- يحشر الكافر على وجهه ٢٨٠٦، وأحمد ٣/ ١٦٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٤/ ٩٣- ٩٤.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ [فاطر: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الإشارة لجزاء من أضل الله وحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، ومصيرهم إلى جهنم، أي: ذلك جزاؤهم وعقابهم الذي يستحقونه.

﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم كفروا بآياتنا، أي: كذبوا بآياتنا وأدلتنا الكونية والشرعية وجحدوها.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مستبعدين ومنكرين للبعث بعد الموت، وللموت والحساب والجزاء على الأعمال، كما قال تعالى مخبرًا عنهم قبل هذا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: إئذا كنا عظامًا نخرة بالية، كما قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ [النازعات: ١٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

﴿وَرُفَٰتًا﴾، أي: فتاتًا.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الاستفهام تأكيد للإنكار السابق، أي: أئنا إذا صرنا عظامًا ورفاتًا. ﴿لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ اللام للتوكيد، أي: لمعادون ومحيون خلقًا جديدًا، أي: مرة ثانية، أي: كيف نعاد مرة ثانية بعد أن صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والتفرق في الأرض، أي: أن هذا أمر غير ممكن، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥]؛ ولهذا احتج عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستفهام مشوب بالتعجيب من انتفاء علمهم، أي: أولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾، أي: قادر على أن يخلق مثل هؤلاء المكذبين، أي: يعيدهم بأشكالهم وأمثالهم، بأبدانهم وأعيانهم يوم القيامة، وينشئهم نشأة ثانية، وخلقًا جديدًا، كما بدأهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨١- ٨٢].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾، أي: وجعل لبعثهم من قبورهم وإعادتهم خلقًا جديدًا وقتًا محدودًا، وزمنًا معدودًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ «إلا» أداة حصر، ﴿كُفُورًا﴾ مفعول به منصوب، أي: لم يرضوا إلا كفورًا، أي: إلا جحودًا للحق، وإنكارًا للبعث وتكذيبًا به، وتماديًا في الباطل والضلال.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾، أي: قل يا محمد لو أنكم أيها الناس

تملكون التصرف في خزائن رحمة ربي وأرزاقه للعباد.

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ «إذًا» حرف جواب، أي: إذًا لبخلتم خوف نفادها بسبب الإنفاق، وحصول الفقر؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيبًا من ملك الله لما أعطوا أحدًا ولا مقدار نقير؛ لشدة بخلهم وخشيتهم الفقر، بنفاد ما عندهم، مع أن خزائن الله لا تنفد، ولا يغيضها كثرة النفقة، قال ﷺ: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده**»(١).

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾، أي: ممسكًا منوعًا شديد البخل إلا من وفقه الله وهداه، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

الفوائد والأحكام:

١- أن من يهده الله ويوفقه فهو المهتدي حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾.

٢- أن من يضلله الله فليس له أولياء من دونه يهدونه وينصرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾، كما قال ﷺ: «**من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»(٢).

٣- أن لله عز وجل الخلق والأمر، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

٤- ينبغي طلب الهداية من الله تعالى وحده؛ فهو الذي يهدي من يشاء، كما قال تعالى مخاطبًا سيد الخلق نبينا محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[القصص:٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٦٨، والنسائي في النكاح ٣٢٧٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٣.

٥- الوعيد الأكيد بالعذاب الشديد للضالين، بحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾.

٦- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٧- أن نار جهنم موجودة معدة لأهلها، وأنها مصير الضالين، وأن لهبها لا ينطفئ، بل يزداد؛ لقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

٨- أن تعذيب الظالمين مجازاة لهم على كفرهم بآيات الله وإنكارهم البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن الجزاء من جنس العمل.

١٠- الاستدلال على قدرة الله تعالى التامة على البعث بخلق السموات والأرض، الذي هو أكبر من خلق الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

١١- أن لبعث الناس من قبورهم وإعادتهم خلقًا جديدًا أجلًا لاشك فيه، لا يتقدم ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

١٢- تمادي الظالمين في كفرهم وعنادهم، وعدم نظرهم في الآيات الدالة على بعثهم، ومجازاتهم على كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

١٣- أن الناس- لما جبلوا عليه من البخل- لو ملكوا خزائن الله التي لا تنفد لأمسكوا عن الإنفاق وبخلوا؛ خوف نفادها؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّىٓ﴾.

١٥- أن الإنسان من طبيعته وسجيته التقتير والبخل، إلا من هداه الله ووفقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

أي: ولقد أعطينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات واضحات، معجزات ودلائل قاطعات على نبوته وصدق ما أخبر به، وهي: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وجعل بعضهم: «فلق البحر» بدل نقص الثمرات.

وجمعها الفيروزبادي بقوله:

عصًا، سَنَةٌ، بحرٌ، جرادٌ، وقُمَّلٌ ... دمٌ، ويدٌ، بعد الضفادع، طوفانُ[1]

وهذه التسع أعظم الآيات التي أوتيها موسى، وشاهدها فرعون وقومه من أهل مصر.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٠- ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧- ١٠٨، الشعراء: ٣٢- ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» مادة: (تسع).

ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[الأعراف: ١٣٣].

ومن الآيات أيضًا: تلقف عصا موسى وابتلاعها ما يأفك السحرة من السحر، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: ١١٧].

ومنها: الطمس على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨- ٨٩].

ومن الآيات التي أوتيها موسى عند مفارقتهم هو وبنو إسرائيل لفرعون وقومه: ضربه البحر بعصاه، وانفلاقه فرقتين، كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

ومنها: ضربه الحجر بعصاه، وانفجار العيون منه، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿فَسۡـَٔلۡ﴾، أي: فاسأل يا محمد.

﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يعني الموجودين في عهده ﷺ المعاصرين له.

﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾، أي: حين جاء موسى آباءهم وأسلافهم، أي: اسألهم سؤال احتجاج بهم على المشركين، لا سؤال استرشاد.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾، أي: مغلوبًا على عقلك بالسحر، فأصبحت تهذي بالكلام الباطل، وبما لا تعرف، أو ساحرًا تؤثر على عقول الناس، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

والمقصود بهذا تسليته ﷺ، وتثبيت قلبه وتقويته. أي: فلست أول رسول يُكذَّب

ويُكفَرُ بما جاء به من الآيات، فهذا موسى عليه السلام مع ما آتيناه من الآيات البينات المشاهدات لفرعون وقومه، لم تنجع فيهم الآيات، بل كفروا بها وجحدوها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وأيضًا لو أجبنا هؤلاء الذين اقترحوا الآيات، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها لكذبوا بها، ولما استجابوا، كحال فرعون بعد أن شاهد ما شاهد من الآيات، قال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ الكسائي بضم التاء: «علمتُ»، على وجه الخبر من موسى عن نفسه، أي: لقد علمتُ أن ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقرأ الباقون بفتح التاء: ﴿عَلِمْتَ﴾ خطابًا من موسى لفرعون، أي: لقد علمت يا فرعون في قرارة نفسك أنه ما أنزل هؤلاء الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [الآيتان: ١٣- ١٤]، فأخبر عز وجل أن جحودهم للآيات وتكذيبهم كان عن يقين، وهو أقوى العلم، ظلمًا وعلوًّا منهم.

﴿بَصَآئِرَ﴾، أي: حججًا ودلائل يستدل بها أهل البصيرة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق ما جئتك به.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: وإني لموقن أنك، ﴿يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: هالكًا مغلوبًا ملعونًا مُبعدًا. وجاء جواب موسى لفرعون بمثل ما شافهه فرعون به من قوله: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾؛ مقارعةً له، وإظهارًا لكونه لا يخافه.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أراد»، أي: فأراد استفزازهم من الأرض. والاستفزاز: الاستخفاف، أي: فأراد استخفاف بني إسرائيل، وإبعادهم من أرض مصر وإخراجهم منها.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، أي: فأغرقناه في البحر والذين معه من جنوده الذين

خرجوا يتبعون بني إسرائيل، ﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: كلهم.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد غرقه وهلاكه.

﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: أرض الشام، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨].

قال ابن كثير[(١)]: وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة، مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة همّوا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: وعد الدار الآخرة، وهو ما وعد الله به الخلائق من البعث والحشر والقيامة.

﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أي: أحضرناكم لدينا جميعًا مختلطين أنتم وعدوكم؛ لنجازيكم بأعمالكم، كما حكمنا بينكم في الدنيا بإغراق عدوكم، وتوريثكم الأرض من بعدهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ﴾الآيات.

٢- عظم ووضوح الآيات التي أوتيها موسى الدالة على وحدانية الله تعالى، وصحة ما جاء به وصدقه.

٣- جواز سؤال بني إسرائيل سؤال استشهاد، لا سؤال استرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾.

٤- أن شهادة بني إسرائيل في عهده ﷺ بحكم شهادة أسلافهم وآبائهم؛ لأنهم

(١) في «تفسيره» (٥/ ١٢٤).

يأخذون منهم.

٥- شدة عتو فرعون ومكابرته وعناده، وتكذيبه، وكفره بالآيات التي أرسل بها موسى، ورميه له بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

٦- إقسام موسى عليه السلام على علمه بأنه ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات والأرض، وعلى علم فرعون بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٧- أن الله أنزل هذه الآيات بصائر ودلائل وحججًا، يستدل بها أهل البصيرة على توحيد الله تعالى، وصدق موسى عليه السلام فيما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾.

٨- تيقن موسى عليه السلام بهلاك فرعون وثبوره؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

٩- إرادة فرعون ومحاولته استفزاز بني إسرائيل وإخراجهم من أرض مصر بتضييقه عليهم وأذاه لهم، وإغراقه وجميع من معه، وإنجاء موسى وبني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

١٠- أن العاقبة للمتقين، وأن من أضمر شرًّا وقع فيه، وأن من حفر حفرة لغيره وقع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾.

١١- توريث بني إسرائيل أرض الشام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾.

١٢- إثبات الآخرة والمعاد وجمع العباد، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، وفي هذا وعد لموسى ومن معه من المؤمنين، ووعيد لفرعون وملئه الكافرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الواو: استئنافية، والباء للملابسة في الموضعين، و«الحق»: العدل، والأمر الثابت.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلنا القرآن، وعبر عن القرآن بضمير الغائب تعظيمًا له، أي: أنزلنا القرآن العظيم المعهود المعلوم. أي: وأنزلنا القرآن متلبسًا بالحق متضمنًا له، فيه الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والنهي عن الشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدلالة على كل خير، والتحذير من كل شر، وبيان الثواب والعقاب.

﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾الواو عاطفة، أي: وبالحق وصل إليك يا محمد، محفوظًا من كل شيطان مارد، محروسًا من كل شيطان رجيم، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، بأصح الأسانيد، أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل إلى النبي ﷺ، وعلمه إياه، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]، وقال تعالى:﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩- ٢١]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥].

فهو حق من عند الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام،

وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرًا لمن أطاعك فآمن وعمل صالحًا بالسعادة والجنة، ونذيرًا لمن عصاك فكفر بالشقاء والنار. ومن لازم ذلك البلاغ، ببيان الأوامر والنواهي والأحكام، التي يبشر من امتثلها وينذر من خالفها، إضافة إلى أنه هو وغيره من الرسل مكلفون- كغيرهم من البشر- بامتثال تلك الأحكام.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾، أي: بيناه وفصلناه آية آية، وأنزلناه مفرقًا مُنجَّمًا حسب الوقائع، إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة.

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تقرأه على الناس على مكث، أي: على مهل وتؤده، وتَرَسُّل وترتيل؛ ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، أي: شيئًا بعد شيء؛ ليكون ذلك أدعى لحفظه وفهمه، والعمل به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن المقترحين لغيره من الآيات.

﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، أي: آمنوا بالقرآن، أي: صدقوا به، أو لا تصدقوا به، أي: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا، فهو حق ثابت؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩].

أي: إن الذين أعطوا العلم من قبل نزول القرآن من صالح أهل الكتاب، كورقة بن نوفل، وعبدالله بن سلام، وغيرهما ممن آمن من أهل الكتاب لما عندهم من العلم، وفي هذا تعريض بجهل من أعرضوا عنه، وقد قيل: المراد بالذين أوتوا العلم: محمد ﷺ وأصحابه.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إذا يقرأ عليهم القرآن.

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، أي: يتأثرون به، ويخضعون له، ويخرون على الأذقان وعلى وجوههم.

﴿سُجَّدًا﴾ حال، أي: سجدًا لله تعالى؛ تعظيمًا له عز وجل على نعمته في إنزال هذا القرآن، وانقيادًا وعبادة له؛ لأن من السنة سجود المستمع للقرآن كالتالي له.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾، أي: ننزه ربنا ونقدسه ونعظمه، ونتعجب من تمام قدرته، فجمعوا بين تعظيم الله عز وجل بالفعل بالسجود والخضوع له، وبين تعظيمه بالقول بتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق به وتقديسه، كقوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾، أي: وعد ربنا بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿لَمَفْعُولًا﴾ اللام: للتوكيد، أي: لواقعًا وحاصلًا، لا خلف فيه، ولا شك.

كما أن وعده عز وجل بالتوراة والإنجيل ببعثة محمد ﷺ والبشارة به حق وصدق، وقع كما وعد وأخبر عز وجل.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وتأكيد له.

﴿يَبْكُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم يبكون خضوعًا لله تعالى، كما قال في سورة مريم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [الآية: ٥٨].

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، أي: ويزيدهم سماع القرآن، ﴿خُشُوعًا﴾، أي: خضوعًا لله تعالى، واستكانةً له، وتصديقًا بكتابه، وتعظيمًا لكلامه عز وجل، وإيمانًا وتسليمًا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين اسم الله عز وجل: «الرحمن»، ووصفه عز وجل بالرحمة، كما في حديث صلح الحديبية لما قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «اكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»، قال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم[1].

﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾، أي: ادعوا الله ونادوه وسموه: بسم الله، أو باسم الرحمن، لا فرق في ذلك.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا﴾ «أيًا» اسم شرط جازم مفعول به منصوب، و«ما» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، ﴿تَدْعُوا﴾ فعل مضارع مجزوم فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون.

﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والجملة تعليل للتخيير السابق، أي: لأن له الأسماء الحسنى، أي: كل أسمائه حسنى، فليس فيها اسم غير حسن حتى ينهى عن دعائه به، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

لكن يستحب أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم، فيقال: يا رحيم ارحمنا، ويا غفور اغفر لنا، ويا رزاق ارزقنا... وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

سبب النـزول:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مختف بمكة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾»[1].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: ولا تجهر بقراءتك القرآن في صلاتك؛ لأن المشركين المكذبين بالقرآن إذا سمعوه سبوه، وسبوا من أنزله، ومن جاء به.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، أي: ولا تسر بها، فلا تُسمع أصحابك.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، أي: واسلك بين الجهر بالقراءة والمخافتة بها طريقًا وسطًا، تُسمع بها أصحابك، ولا يسمعه المشركون المكذبون، فالمنهي عنه الجهر أو المخافتة في القراءة.

وعن عائشة رضي الله عنها: «﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أنزلت في الدعاء»[2]. وهكذا روي عن جمع من السلف أنها نزلت في الدعاء.

وهذا قد يحمل على ما يشرع الجهر به في الصلاة من التكبير وقول «سمع الله لمن حمده»، والدعاء والذكر بعد الصلاة، فهذا أيضًا ينبغي أن يكون بين الجهر والمخافتة كالقراءة سواء.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «الحمد» وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، و«ال»

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، ٧٥٢٥، ومسلم في الصلاة، التوسط في القراءة بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة، ٤٤٦، والنسائي في الافتتاح، ١٠١١، والترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة الإسراء، ٣١٤٥، وأحمد ١/ ٢٣، ٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات- الدعاء في الصلوات ٦٣٢٧، ومسلم في الصلاة، التوسط في القراءة ٤٤٧.

في «الحمد» للاستغراق، واللام في «لله» للاختصاص والاستحقاق، فله عز وجل المحامد كلها، والثناء والمجد، والكمال المطلق من جميع الوجوه.

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، أي: الذي لم يجعل له ولدًا؛ لكمال ربوبيته وغناه، وحاجة الخلق كلهم إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل له الملك كله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ «من» سببية، و«الذل»: العجز والافتقار، ضد «العز»، أي: لا يتولى عز وجل أحدًا من خلقه؛ ليتعزز به، ويستنصر به؛ لأنه عز وجل العزيز، ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿وَكَبِّرْهُ﴾، أي: عظّمه بقلبك وقولك وفعلك، باطنًا وظاهرًا، بعبادته وحده لا شريك له، والإخلاص له، وتكبيره وتحميده وتسبيحه، وإجلاله عما لا يليق به، وعما يقول الظالمون المعتدون من نسبة الشريك والصاحبة والولد له، تعالى الله عن ذلك.

﴿تَكْبِيرًۢا﴾ توكيد، أي: تكبيرًا عظيمًا.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وما عطف عليه، إيماءٌ إلى وجه اختصاصه عز وجل بالحمد، وسبب الأمر بحمده وتكبيره، وهو تنزهه عن الولد، وانفراده بالملك وغناه وعزته.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، والإنزال والنزول والتنزيل يكون من أعلى، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، وفي هذا رد على

المعتزلة ونحوهم.

٣- تعظيم شأن القرآن الكريم للتعبير عنه بضمير الغائب دون الاسم الظاهر، بقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾.

٤- أن الله عز وجل أنزل القرآن الكريم متلبسًا بالحق والعدل، مشتملًا على الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والهدى إلى الصراط المستقيم، صراط المُنعم عليهم، والتحذير من طرق المغضوب عليهم والضالين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٥- أن القرآن بالحق نزل، ووصل إلى النبي ﷺ بأصح الأسانيد، محفوظًا محروسًا من الانقطاع، والتغيير والتبديل، والزيادة والنقصان، أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وبلغه جبريل الأمين إلى محمد ﷺ خاتم النبيين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾.

٦- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية.

٧- أن مهمة الرسول ﷺ البشارة بالسعادة والجنة للمؤمنين، والإنذار من الشقاء والنار للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، ومن لازم هذا تبليغ الرسالة، وبيان الأحكام والأوامر والنواهي.

٨- بيان الله عز وجل وتفصيله القرآن، وإنزاله مفرقًا منجمًا حسب الوقائع والأحداث؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾.

٩- أن الحكمة من إنزاله عز وجل القرآن مفرقًا؛ ليقرأه ﷺ على الناس على مكث وتؤده وتمهل وترتيل؛ ليتدبروه؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾.

١٠- تنزيل القرآن شيئًا بعد شيء؛ لأن ذلك أدعى لحفظه وفهمه والعمل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

١١- أن القرآن حق ثابت، سواء آمن به المشركون أو لم يؤمنوا به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، وفي هذا تهديد لهم.

١٢- إيمان صالح أهل الكتاب بالقرآن وخضوعهم وسجودهم عند تلاوته

عليهم، وتسبيحهم ربهم، وتصديقهم وعده بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، ووعده في كتبهم ببعثة محمد ﷺ، وبكاؤهم، وزيادته إياهم خشوعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۩ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾.

١٣- فضل العلم وأهله، وأنه سبب لقبول الحق وتصديقه والإيمان به، والتعريض بذم الجهل وأهله، وأن سبب إعراض المشركين عن القرآن وتكذيبهم به هو جهلهم.

١٤- فضيلة من آمن من أهل الكتاب بالقرآن الكريم، والثناء عليهم، وفي الحديث قال ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران**»[1] الحديث.

١٥- إنصاف القرآن لمن آمن من أهل الكتاب، والدعوة إلى المنافسة في الإيمان والعمل الصالح، وتدبر القرآن وتعظيمه، والسجود عند تلاوته وسماعه، وتسبيح الله عز وجل، وتصديق وعده، والبكاء والخشوع عند تلاوة القرآن وسماعه.

١٦- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقولهم: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّنَآ﴾.

١٨- مشروعية سجود التلاوة للقارئ والمستمع عند هذه الآية: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۩ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾.

١٩- مشروعية التسبيح والبكاء والخشوع عند قراءة القرآن وسماعه.

٢٠- استواء دعاء الله عز وجل باسمه ﴿الله﴾ أو باسمه «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١١، ومسلم في الإيمان ١٥٤، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٣، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ٢٩٥٦؛ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٢١- إثبات اسميه عز وجل «الله»، و«الرحمن».

٢٢- أن لله عز وجل جميع الأسماء الحسنى، يدعى بها كلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

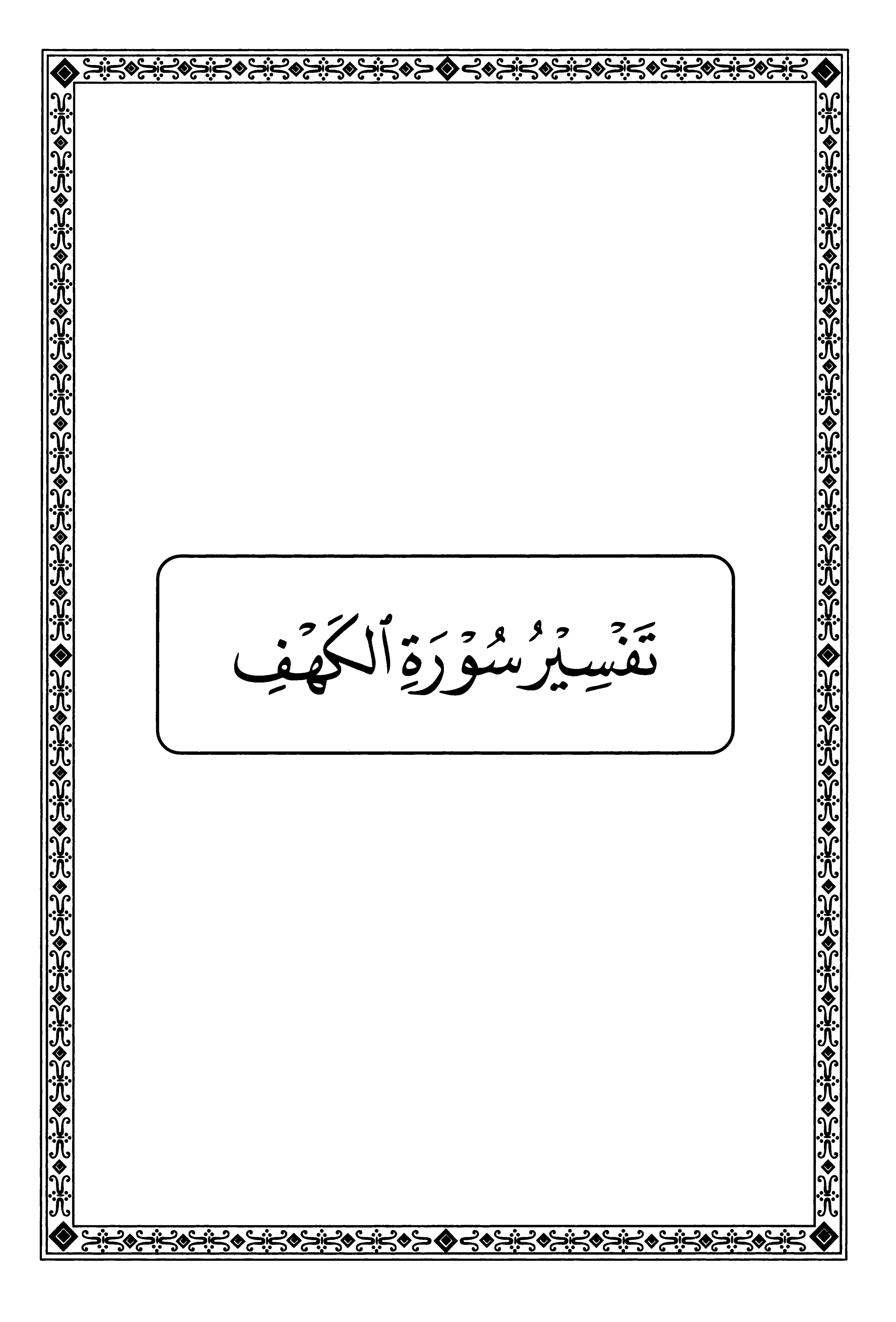
٢٣- نهي الله عز وجل له ﷺ عن الجهر بالقراءة في الصلاة بحيث يسمعه المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، وعن المخافتة والإسرار بها بحيث لا يسمع أصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

٢٤- حثه على أن تكون قراءته وسطًا بين الجهر والمخافتة، بحيث لا يسمعه المشركون، ويسمعه أصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

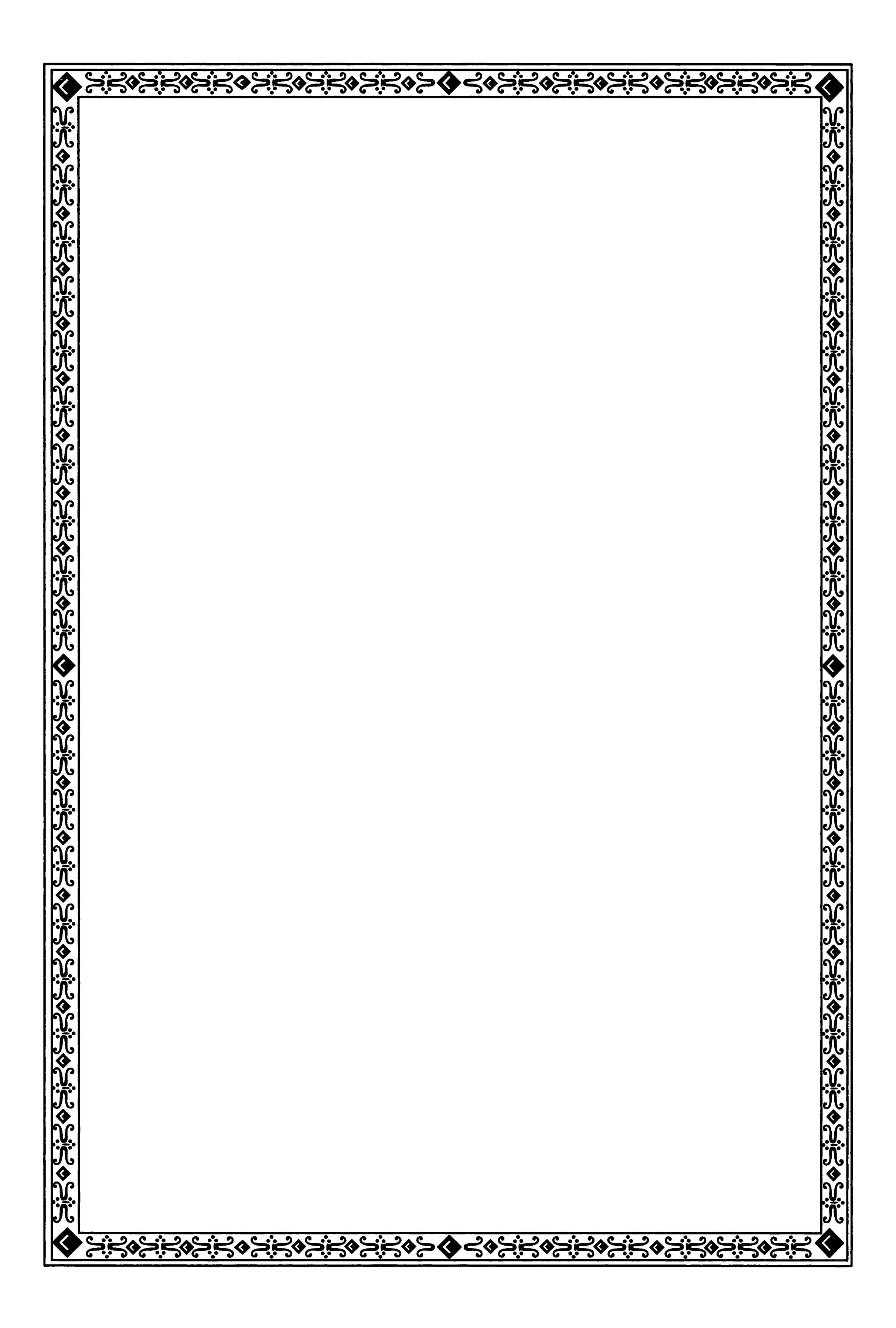
٢٥- أمره بتخصيص الحمد كله لله تعالى، وتكبيره تكبيرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾، وهذا أمر له ﷺ وللمؤمنين.

٢٦- أن وجه اختصاصه عز وجل بالحمد كله، واستحقاقه له: تنزهه عن الولد وتمام غناه عن غيره مع حاجة غيره إليه، وتفرده وحده بالملك بلا شريك وكمال عزته.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلكَهْفِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكهف»؛ لذكر قصة أصحاب الكهف فيها، وهكذا وردت تسميتها في السنة، كما سيأتي، ويقال لها: «سورة أصحاب الكهف».

ب- مكان نزولها:

مكية، قيل: نزلت جملة واحدة.

جـ- فضلها:

عن البراء بن عازب ﷺ، قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فإذا ضبابة- أو سحابة- قد غشيته، فذكره للنبي ﷺ، فقال: «**اقرأ فلان؛ فإنها السكينة نزلت للقرآن**» أو: «**تنزلت للقرآن**»(١).

وعن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال**»(٢).

وفي رواية عنه، عن النبي ﷺ: «**من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من فتنة الدجال**»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم: «إنهن من العتاق الأول، وهم من تلادي»(٤).

د- موضوعاتها:

اشتملت هذه السورة على أربع قصص عظيمة، فيها عبر وعظات وفوائد جليلة، وهي: قصة أصحاب الكهف، الآيات: ٩- ٢٦، وقصة الرجلين: صاحب الجنتين، وصاحبه، الآيات: ٣٢- ٤٤، وقصة موسى والخضر عليهما السلام، الآيات: ٦٠- ٨٢، وقصة ذي القرنين، الآيات: ٨٣- ٩٩.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٤، ومسلم في صلاة المسافرين، نزول السكينة لنزول القرآن ٧٩٥، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٨٥، وأحمد ٤/ ٢٨١.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، فضل سورة الكهف وآية الكرسي ٨٠٩، وأبو داود في الملاحم، خروج الدجال ٤٣٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٦.

(٤) سبق تخريجه.

تفصيل الكلام في موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى وحمده سبحانه على إنزاله الكتاب على نبيه ﷺ- أعظم نعمه على الإطلاق- ووصف هذا الكتاب بالكمال من جميع الوجوه، وبيان الغاية من إنزاله، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

٢- إرشاد النبي ﷺ إلى عدم إشغال نفسه بالأسى والأسف على من لم يؤمن، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

٣- بيان الغاية من إيجاد المخلوقات على الأرض، وبيان مصير تلك المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

٤- ذكر قصة أصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

٥- أمر النبي ﷺ باتباع ما أوحي إليه من ربه، وبالصبر مع المؤمنين، وعدم طاعة الغافلين، وبقول الحق، ثم بيان مآل كل من الكافرين والمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

٦- ضرب المثل لكل من الشاكرين لنعم الله والكافرين لها، وبيان عاقبتهما، قال تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

٧- تصوير زوال الدنيا بالنبات الذي تذروه الرياح، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

٨- بيان أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات هي التي تنفع الإنسان وتبقى له، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

٩- ذكر بعض أهوال يوم القيامة، وأن الناس يعرضون على ربهم في ذلك اليوم، ويحاسبون على ما عملوا، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

١٠- تكريم الله لآدم وذريته بأمر الملائكة بالسجود له، وبيان عداوة الشيطان لآدم وذريته، والتحذير منه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

١١- بيان أن الله هو المتفرد بالخلق والتدبير، ليس لأحد شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

١٢- ذكر حال من أشرك بالله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

١٣- بيان عظمة القرآن وجلالته مما يوجب الانقياد والتسليم له، إلا أن كثيرًا من الناس يجادلون في الحق، ويمتنعون من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

١٤- بيان الغاية من إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَۖ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾﴾.

١٥- بيان أن أشد الناس ظلمًا من أعرض بعد التذكير، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾﴾.

١٦- بيان أن الله غفور رحيم، يمهل العصاة لعلهم يتوبون، وإن استمروا على ظلمهم أهلكهم، وجعل لمهلكهم موعدا، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾.

١٧- ذكر طرف من قصة موسى ورغبته في الخير وطلب العلم، وقصته مع الخضر، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾.

١٨- ذكر قصة ذي القرنين، قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾.

١٩- بيان ما يكون في آخر الزمان، وبيان عاقبة الكافرين يوم القيامة، ومن هو الخاسر في ذلك اليوم، ثم بيان مآل المؤمنين، قال تعالى: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴿٩٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾﴾.

٢٠- بيان أن لله تعالى الكلمات الكاملة الواسعة، التي لا حد لها ولا منتهى، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾﴾.

٢١- بيان أن الرسول ﷺ بشر يوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.

روى عكرمة، عن ابن عباس ﷺ، قال: «بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، فخرجا من المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث، نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فسألوه، فقال لهم: أخبركم غدًا بما سألتم ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه له في ذلك وحيًا، ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]»[1].

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، «الحمد»: وصف المحمود بصفات الكمال والثناء عليه، مع المحبة والتعظيم. و«أل» فيه للاستغراق والعموم، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص والاستحقاق.

وهذا خبر من الله تعالى باستحقاقه جميع المحامد واختصاصه بها، فهو المحمود على كل حال، وفي كل وقت، له الحمد في الأولى والآخرة، وفي السموات والأرض.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ القرآن.

فحمد عز وجل نفسه على إنزاله الكتاب على عبده ونبيه محمد ﷺ؛ لأن إنزال الكتاب أعظم نعمة، وأكبر منة امتن الله بها على الناس؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كما قال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

وفي ضمن هذا إرشاد لعباده أن يحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنزَلَ﴾، أي: ولم يجعل لهذا الكتاب عوجًا، كما قال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، والعوج: الميل، أي: ولم يجعل له ميلًا عن الحق، ولا مخالفة للحكمة والصواب، ولا تناقضًا ولا اختلافًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

و«عوجًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ولم يجعل له أيَّ شيء من العوج.

﴿قَيِّمًا﴾ معتدلًا مستقيمًا، أخباره صدق، وأحكامه عدل، ويهدي إلى صراط

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة ١/ ٣٢١، وأخرجه من طريق ابن إسحاق الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ١٤٣- ١٤٤ وسنده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق. وانظر: «الروض الأنف» ٣/ ١٢٨، «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٣٢- ١٣٣.

مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر، أي: يخوف ويحذر الكافرين بهذا الكتاب ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، أي: عقابًا وعذابًا شديدًا، عاجلًا في الدنيا، وآجلًا في الآخرة، كما قال تعالى لما ذكر في هذا القرآن وصف النار: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ قرأ أبو بكر بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون والهاء: «من لدْنِهِ»، وقرأ الباقون بضم الهاء والدال وإسكان النون: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عند الله عز وجل، شديد العقاب، وشديد العذاب، الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على «ينذر»، أي: لينذر ويبشر، والبشارة: الإخبار بما يسر ويفرح ويبهج القلب، أي: ويبشر المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ نعت للمؤمنين، أي: الذين يعملون بجوارحهم الأعمال الصالحات التي اجتمع فيها الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

أي: ويبشر المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والتصديق بقلوبهم في الباطن، وعمل الأعمال الصالحات بجوارحهم الظاهرة.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾، أي: بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، أي: ثوابًا عظيمًا جزيلًا جميلًا، عاجلًا في الدنيا بالحياة الطيبة، وآجلًا في الآخرة بالفوز بدخول الجنات، وما فيها من رؤية الرب العظيم، وألوان النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للدلالة على تخصيصهم بهذا الأجر، أي: لهم خاصة، وسمى ثوابهم: «أجرًا»؛ لتكفله عز وجل به، وضمانه لهم.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾، «ماكثين» حال، أي: مقيمين لابثين في هذا الأجر الحسن- وهو الجنة- مكثًا ولبثًا أبديًّا دائمًا لا يحول ولا يزول، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ

فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، البينة: ٨]، وقال تعالى:﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠، التغابن: ٩].

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ﴾، أي: ويخوف ويحذر من عقاب الله تعالى وعذابه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ كذبًا وباطلًا من اليهود والنصارى والمشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ حيث قال المشركون: الملائكة بنات الله، كما قالت اليهود قبلهم: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى عن المشركين:﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: ما لهم بهذا القول- وهو نسبة الولد له عز وجل- ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لهم بهذا القول الذي افتروه واختلقوه من أيِّ علم، بل هو محض كذب وزور وباطل.

﴿وَلَا لِأَبَآئِهِمْ﴾، أي: ولا لآبائهم وأجدادهم وأسلافهم به من علم.

﴿كَبُرَتْ﴾ أي: عظمت ﴿كَلِمَةً﴾ تمييز، أي: كبرت كلمتهم هذه كلمة، ومعنى الكلام على التعجب، أي: ما أكبرها كلمة! أي: في بشاعتها وفظاعتها وقبحها.

وأطلقت «كلمة» على الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقال ﷺ: «**إن أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ«كلمة»، أي: ليس لها مستند ولا مصدر غير الأفواه بلا تعقل، والتعبير بالمضارع لاستحضار خروجها من أفواههم تخييلًا لفظاعتها وشناعتها.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«كذبًا»

---

(١) سبق تخريجه.

مفعول به منصوب، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إلا قولًا كذبًا، أي: كذبًا محضًا، في قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ وغير ذلك، أي: ما يصدر منهم قول إلا الكذب.

فأبطل الله عز وجل قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ من وجوه ثلاثة:

الأول: أنهم ما لهم به من علم.

والثاني: لشناعته وقبحه؛ لقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

والثالث: كونه كذبًا؛ لقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾:

قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الفاء: استئنافية، و«لعل» للإشفاق، وفيها معنى النهي.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: مهلك نفسك وقاتلها.

قال ذو الرمة(١):

ألا أيهذا الباخع الوَجدُ نفسه لشيء نَحَتْه عن يديه المقادرُ

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾، أي: على آثار المشركين من قومك.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، أي: إن لم يؤمنوا ويصدقوا، واستمروا على كفرهم، أي: بسبب عدم إيمانهم.

﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي: بهذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿أَسَفًا ۝٦﴾ منصوب على المفعول لأجله، أي: لأجل الأسف، أي: لا تهلك نفسك حزنًا وغمًّا وهمًّا، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧].

---

(١) انظر: «ديوانه» ٢/ ١٠٣٧.

أي: إنك وصلت إلى حال يشفق عليك أن تهلك نفسك على آثار المشركين من قومك بسبب كفرهم وعدم إيمانهم بالقرآن، همًّا وغمًّا، وأسفًا وحزنًا عليهم، وذلك شفقة منه ﷺ على أمته، ورحمة بهم، وحرصًا منه على هدايتهم.

والمراد: تسليته ﷺ، وإرشاده بألا يُضر بنفسه بالأسف والحزن والندم على هؤلاء المكذبين، ولا يكترث بهم، وألا يفت تكذيبهم له من عزمه في طريق دعوته، وفيه إيماء إلى أنهم أو بعضهم لن يصيروا إلى الإيمان أبدًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

لعل مناسبة هذه الآية لما قبلها: التعريض باغترار المشركين بما هم فيه من زينة الحياة الدنيا.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، «ما»: اسم موصول مبني في محل نصب، أي: إنا خلقنا أو صيرنا جميع الذي على الأرض من حيوان وجماد، وبساتين وأنهار، ونبات وأشجار، وأموال ومعادن، ومآكل ومشارب ومساكن، وملابس ومراكب، ومباهج ومناظر، وغير ذلك مما يتمتع به الناس.

﴿زِينَةً لَّهَا﴾، أي: زينة للأرض، يتزين بها الناس في هذه الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٢، والترمذي في الفتن ٢١٩١، وابن ماجه في الفتن ٤٠٠٠، وأحمد ٣/ ٢٢.

﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نبلوهم، أي: نختبرهم ونمتحنهم، والضمير يعود الى الخلق.

﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، أي: أيهم أخلص عملًا وأصوبه، ولم يقل: أكثر عملا؛ لأن العبرة بالأحسن، لا بالأكثر، أي: بالكيف لا بالكم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢]، أي: أخلصه وأصوبه.

وهو عز وجل جعل هذه الزينة ليبلوهم من هو أحسن عملًا؛ وهو من يتعلق بالله، ومن هو أسوأ عملًا ممن يتعلق بالزينة، وإنما خص بالذكر من هو أحسن عملًا تنويهًا بهم، وتشريفًا لهم، وإغراء بمنهجهم.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا﴾ اللام: للتوكيد، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: لمصيِّرون جميع الذي على الأرض من جميع المخلوقات.

﴿صَعِيدٗا﴾ ترابًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل: ١٤].

﴿جُرُزًا ۝٨﴾، أي: خاليا لا نبات فيه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧]، أي: اليابسة الجرداء التي لا حياة فيها ولا نبات.

فأخبر عز وجل أولًا: أن ما على الأرض زينة لابتلاء الخلق أيهم أحسن عملًا، ثم عطف على ذلك بالإخبار بجعل ما عليها صعيدًا جرزًا، وزوالها وخرابها وهلاكها.

وفي هذا تسلية له ﷺ؛ لئلا يأسى على تكذيب المشركين له ببيان حقيقة الدنيا وحقارتها، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]

ولهذا لما نام ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، وقال له عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال ﷺ: **«ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا**

كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وأخذ ﷺ بمنكب ابن عمر ﷺ، وقال له: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- أن جميع المحامد واجبة لله تعالى ومستحقة له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢- حمد الله عز وجل لنفسه على إنزال القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي ضمن هذا إرشاد لعباده أن يحمدوه على هذه النعمة العظيمة، التي هي أجل نعمة أنعم الله بها على العباد، وهي إنزال القرآن الكريم.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾.

٤- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٥- فضيلة العبودية لله تعالى، وأن أشرف وصف يوصف به البشر عبوديتهم لله عز وجل؛ ولهذا وصف الله بها رسوله محمدًا ﷺ، سيد الخلق وأفضل الرسل، في مقام إنزال الكتاب عليه، كما وصفه بها في مقام قيامه ﷺ في الصلاة يدعوه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وهذان أعلى المقامات.

٦- تعظيم شأن القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالتعريف بـ«أل»؛ لأنه أعظم الكتب وأفضلها وأشرفها.

٧- حفظ القرآن الكريم وصيانته وسلامته من أي عوج وميل عن الحق، وموافقته للحكمة والصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾.

٨- قيام القرآن الكريم على العدل والاستقامة في أخباره وأحكامه، فأخباره

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣.

صدق، وأحكامه عدل؛ لقوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾.

٩- أن الحكمة من إنزال القرآن الكريم: الإنذار والتحذير للكافرين من عذاب الله تعالى، والتبشير للمؤمنين بالثواب الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

١٠- شدة بأس الله وعقابه، مما يوجب الحذر منه؛ لأن الله وصفه بالشدة، وأخبر أنه من لدنه، وهو سبحانه شديد العقاب، وشديد العذاب، لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

١١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب والباطن، وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- لا يقبل من العمل إلا ما كان صالحًا، جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

١٣- حسن ثواب الله وجزائه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، والترغيب في ذلك.

١٤- الإنذار والتحذير لمن نسبوا الولد لله عز وجل من اليهود والنصارى والمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

١٥- تنزيه الله تعالى عن الولد، وإثبات غناه، وعدم حاجته للولد، ولا لأحد من خلقه.

١٦- الرد على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾، وإبطال قولهم، بأنهم لا علم لهم بذلك ولا لآبائهم، وتشنيع مقالتهم، وأنهم ما يقولون إلا كذبًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

١٧- شناعة القول بنسبة الولد إلى الله عز وجل وفظاعته؛ لقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

١٨- تسليته ﷺ وإرشاده ألا يهلك نفسه بسبب تكذيب المشركين، وعدم إيمانهم بالقرآن أسفًا وحزنًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

١٩- أن الله عز وجل جعل جميع ما على الأرض- من كل ما يتمتع به الناس- زينة لها، ابتلاءً وامتحانًا للعباد، أيهم أحسن عملًا، ممن هو بضد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧﴾.

٢٠- تقديم الشرع على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآيات، ثم قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ الآية؛ لأن المخلوقات إنما خلقت وسخرت لعبادة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذه طريقة القرآن، يقدم دائما الشرع على الخلق، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١- ٤].

٢١- الترغيب بإحسان العمل والحث عليه، والتنويه بأهله وتشريفهم؛ لتخصيصهم بالذكر في قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، مع أن الله جعل زينة الدنيا ابتلاء لمن أحسن العمل، ولمن أساء العمل.

٢٢- أن مصير كل ما على الأرض أن يكون ترابًا فانيًا هالكًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾.

٢٣- حقارة الدنيا وما فيها من الزينة؛ لأن الله جعلها دار ابتلاء، ثم نهايتها إلى الفناء والانقضاء، لكنها مطية للآخرة، وميدان للمنافسة، فأيامها ولياليها خزائن لمن وفقه الله للأعمال الصالحة.

٢٤- التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وفتنتها، والانشغال بها عن الاستعداد للآخرة، فهي زائلة فانية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾.

في هذه الآيات الأربع إجمال واختصار لقصة أصحاب الكهف، تلاه بسط لها، بقوله تعالى بعدها: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ وما بعدها.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام للإنكار والتعجب والنهي. والحسبان بمعنى: الظن، أي: بل أظننت؟ والخطاب للنبي ﷺ، أي: لا تظن ذلك.

﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، «الكهف»: الغار المتسع الوسط في الجبل، وأضيفوا إلى الكهف لملازمتهم له دهرًا طويلًا.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ بمعنى المرقوم، أي: المكتوب؛ لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتهم، وأسماؤهم، وسبب اضطرارهم إلى الالتجاء إلى الكهف، وهو الفرار بدينهم من قومهم المشركين؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين: ٩، ٢٠]، أي: مكتوب.

وقيل: «الرقيم» اسم للوادي أو الجبل الذي فيه كهفهم.

﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، «من»: تبعيضية، أو ظرفية، أي: في آياتنا عجبًا، أي: أظننت أن أصحاب الكهف والرقيم وقصتهم عجبًا من آياتنا الكونية؟ أي: ليس أمرهم وما جرى لهم عجبًا من آياتنا ودلائل قدرتنا؛ فإن في آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وأدل على كمال قدرتنا؛ كخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، واختلاف الليل والنهار، وغير ذلك.

وفي هذا تعريض بجهل الذين طلبوا من النبي ﷺ الإخبار عن قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، وأنهم غفلوا عما هو أعجب من ذلك من آيات الله الدالة على كمال قدرته في أنفسهم، وفي كل ما خلق الله تعالى في هذا الكون.

وقد قال بعض أهل العلم: إن الاستفهام في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ تقريري، أي: أنهم من بين آياتنا آية عجيبة.

قال القاسمي[١]: «﴿أم﴾ للاستفهام التقريري بمعنى الهمزة، أي: أنهم من بين آياتنا آية عجيبة. وجعلها منقطعة مقدرة بـ«بل»، والهمزة والاستفهام للإنكار، أي: إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى- فيه بعد؛ لأن سياق النظم الكريم- أعني: سوقها مفصلة منوهًا بها- ما هو إلا لتقرير التعجب منها».

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: اذكر حين التجأ ودخل الفتية إلى الكهف فرارًا بدينهم، واختفوا فيه خوفًا من ملكهم الجبار، وقومهم المشركين أن يفتنوهم ويردوهم إلى الشرك.

و«الفتية»: جمع «فتى»، وهو الشاب ذو القوة والعزيمة.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾، أي: فقالوا حين دخلوا الكهف: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، أي: أعطنا وَهَبْ لنا من عندك رحمة، ترحمنا بها، وتثبتنا بها على ديننا، وتحفظنا بها عن قومنا.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾، أي: يسِّر وسهِّل لنا وقدِّر لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: من شأننا صوابًا وتوفيقاً للحق، واجعل عاقبتنا ومآل أمرنا رشدًا وخيرًا، كما قال ﷺ: «**وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا**»[٢].

وعن بسر بن أبي أرطأة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه كان يدعو: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»[٣].

فجمعوا بين السعي والفرار بدينهم ومفارقة قومهم وبلدهم، وبين التضرع إلى الله تعالى وسؤاله تيسير أمرهم، أي: جمعوا بين فعل السبب، والتوكل على الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

---

(١) في «محاسن التأويل» ٧/ ٧.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٤٧، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٨١.

وما خاب مسعى من وفقه الله عز وجل للجمع بين هذين الأمرين؛ ولهذا شملهم الله تعالى برحمته، وأرشدهم في مسعاهم، وجعل عاقبتهم خيرًا.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾، أي: أنمناهم نوماً عميقاً في الكهف بحيث لايسمعون من حولهم.

﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: سنين عديدة كثيرة، وفي هذا النوم مع تحصينهم بالكهف حفظ لقلوبهم من الخوف والاضطراب، وحفظ لهم عن قومهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: ثم أيقظناهم من نومهم ورقدتهم، وسمي الإيقاظ من النوم بعثاً؛ لأن النوم وفاة صغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ اللام للتعليل، ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، أي: لأجل أن نعلم. «أي»: اسم استفهام، أي: لنعلم أي الفريقين المتنازعين في مدة لبثهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ «أحصى»: فعل ماضٍ مبني على الفتح المقدر على الألف، «لما»: اللام حرف جر، و«ما»: حرف مصدري ظرفي.

وقيل: ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل، أي: أبلغ إحصاءً، أي: أضبط وأحفظ للبثهم في كهفهم، ﴿أَمَدًا﴾ مدة وغاية.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩]، ثم إن الناس اختلفوا بعدهم في ذلك.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾، أي: لنعلم علم ظهور يتبين فيه للناس أي الفريقين المختلفين في عدتهم أحصى لمدتهم. والله يعلم قبل وقوع هذا الشيء أنه سيقع، ويعلم بعد وقوعه أنه وقع، وتحقق الأمرين في علمه سواء، ما سيقع وما وقع.

قال السعدي[1]: «وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم».

الفوائد والأحكام:

١- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾.

٢- أن أصحاب الكهف والرقيم وقصتهم ليسوا عجبًا من آيات الله ودلائل قدرته الكونية، فهناك ما هو أعجب منها؛ من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾.

٣- التعريض بجهل من طلبوا من النبي ﷺ الإخبار عن قصة أصحاب الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، وأنهم غفلوا عما هو أعجب من ذلك من آيات الله الكبرى المنتشرة في الكون، الدالة على تمام قدرة الله تعالى.

٤- مشروعية الفرار إذا خاف المرء على دينه، والبعد عن مواطن الفتن، حفاظًا على الدين وبعدًا عن الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ فخرجوا من وطنهم، وفارقوا أهلهم وقومهم المشركين فرارًا بدينهم.

٥- أن الشباب أقرب لقبول الحق؛ ولهذا كان أصحاب محمد ﷺ جلهم شبابًا.

٦- أن من أعظم أسباب حفظ الله تعالى للعبد في دينه ودنياه: سعي العبد لتحقيق ذلك بالعمل الصالح، مع التضرع إلى الله عز وجل، وصدق التوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنَآ﴾.

٨- حاجة العبد إلى سؤال ربه من لدنه الرحمة، وأن ييسر ويسهل له من أمره

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٣- ١٤.

رشدًا؛ لأن خزائن الرحمة كلها بيده عز وجل، ورحمته وسعت كل شيء؛ ولأن بيده تقدير الأمور وتدبيرها، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٩- حكمة الله تعالى؛ حيث وفق أصحاب الكهف إلى التحصن بهذا الكهف، وألقى النوم العميق عليهم هذه المدة الطويلة، حفظًا لهم من قومهم، وحفظًا لقلوبهم من الاضطراب والخوف؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

١٠- بعث هؤلاء الفتية وإيقاظهم بعد نومهم؛ لمعرفة أيّ الفريقين المتنازعين في مدة لبثهم أحصى وأضبط وأحفظ لمدة وغاية لبثهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾، أي: ليظهر ذلك في علم الله ويتبين للناس.

١١- إطلاق البعث على اليقظة من النوم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾.

١٢- في إيجاز قصة أصحاب الكهف واختصارها في هذه الآيات الأربع قبل بسطها في الآيات بعدها: تشويق لتفصيل هذه القصة، ومنهج يتبع عند تناول القصص، بذكرها موجزة، ثم تفصيلها وبسطها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ * وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾.

هذا شروع في بسط قصة أصحاب الكهف وتفصيلها، بعد التمهيد بإجمالها في الآيات السابقة.

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾.

قوله: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾، أي: نحن نقص ونقرأ عليك يا محمد خبرهم، والنبأ: الخبر الهام.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالأمر الثابت، والصدق المطابق للواقع، وبأحسن القصص؛ كما

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف:٣].

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾، أي: شباب، و«فتية»: جمع قلة، يدل على أنهم دون العشرة.

قال ابن كثير[١]: «فذكر الله تعالى أنهم فتية- وهم الشباب- وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين عتوا وعسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابًا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل».

وصدق ابن كثير رحمه الله، فالشباب أقبل للحق؛ لأن فطرتهم ما زالت سليمة، وقلوبهم بيضاء خالية من الأحقاد والحسد، والعداوة والبغضاء، والغلظة والجفاء، التي هي من أوضار الذنوب والمعاصي، فقلوبهم كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا[٢]

وقد أحسن القائل:

إن الغصون إذا قوَّمتَها اعتدلت ولا تلين إذا قوَّمتَها الخشبُ[٣]

لكن الشباب بما لديهم من الطاقات يحتاجون إلى من يحسن التعامل معهم، ويشجعهم ويربيهم على الثقة بالله تعالى ثم بأنفسهم، ويشعرهم بأنهم في السابق واللاحق هم حملة مشعل هذا الدين الإسلامي الحنيف، وحراس العقيدة، وحماة الشريعة، ويبشرهم بالخير، كما قالت خديجة ﵂، لما جاء إليها النبي ﷺ يرجف فؤاده في بدء الوحي قائلًا: «**لقد خشيت على نفسي، قالت: أبشر، كلا والله لا يخزيك أبدًا**»[٤].

ويذكرهم بقوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله**» وذكر منهم شابًّا نشأ في عبادة الله[٥].

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٣٦.

(٢) البيت لديك الجن الحمصي. انظر: «ديوانه» (ص١٩٤).

(٣) البيت ينسب لصالح بن عبد القدوس. انظر: «حماسة البحتري» (ص٤٦١)، وينسب لطرفة. انظر: «الحماسة المغربية» ٢/ ١٢٢٥-١٢٢٦. وينسب لسابق البربري. انظر: «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» ص١٨٢، وانظر: «بهجة المَجالس وأنس المُجالس» ص١٩/ ترقيم الشاملة.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، من حديث عائشة ﵂.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١، من حديث أبي هريرة ﵁.

﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، أي: آمنوا وصدقوا بوحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وانقادوا لشرعه، فاجتمع فيهم قوة الإيمان، مع فتوة الشباب وقوة البدن والعزيمة.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، أي: وزدناهم هداية بسبب إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ⑰﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قوينا قلوبهم وثبتناها بالإيمان واليقين والطمأنينة، في تلك الحال المزعجة، وشددنا عليها بالصبر على مخالفة دين قومهم، وهجر الوطن والأهل والعشيرة، ومفارقة ما كانوا عليه من رغد العيش؛ وهذا ليس بالأمر اليسير. وقد قيل: إنهم من أبناء ملوك الروم وساداتهم.

﴿إِذْ قَامُواْ﴾، أي: حين قاموا، أي: اجتمعوا على هذا الأمر العظيم، وهو توحيد الله تعالى، والبراءة مما عليه قومهم من الشرك، وعزموا على ذلك، وتعارفت قلوبهم على هذا وائتلفت، كما في الحديث: «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[(١)].

﴿فَقَالُواْ﴾ مقرين بربوبية الله تعالى لهم، ومستدلين بها على وجوب إفراده بالعبودية: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، أي: لن نعبد غيره، أي: لن ندعو، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، غير ربنا رب السموات والأرض، ﴿إِلَٰهًا﴾، أي: معبوداً آخر.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، ﴿إِذًا﴾، أي: لو دعونا غيره إلـهًا، أي: والله لقد قلنا إن دعونا غير ربنا إلهًا آخر قولًا شططًا، أي: جائرًا

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الأنبياء، الأرواح جنود مجندة، من حديث عائشة ﵂، وأخرجه مسلم في البر والصلة، الأرواح جنود مجندة ٢٦٣٨، وأبو داود في الأدب ٤٨٣٤، من حديث أبي هريرة ﵁.

بعيدًا عن الحق، مخالفًا للصواب، ومجانبًا له. وهذا اعتزاز منهم بدينهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾، أي: جعلوا من دون الله، أي: غيره آلهة، عبدوهم مع الله. وفي هذا إنكار منهم على قومهم، وتعجب من حالهم، وإشارة إلى سبب انعزالهم عن قومهم.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖ﴾، «لولا»: للتحضيض والتوبيخ، أي: هلا يأتون على هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله ﴿بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖ﴾، أي: بحجة واضحة، وبرهان بيِّن، ودليل ظاهر على صحة مشاركتهم لله، وجواز اتخاذهم آلهة من دون الله، وهيهات وأنى لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وإنما ذلك كذب وافتراء منهم، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ الفاء: استئنافية، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: أشد ظلمًا ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذبًا، بنسبة الشركاء له، والصاحبة والولد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾:

هذا من قول الفتية، ووصية بعضهم لبعض، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾، أي: وإذا اعتزلتم قومكم المشركين، أي: فارقتموهم وابتعدتم عنهم بأبدانكم.

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، «ما»: موصولة، أي: واعتزلتم وفارقتم الذي يعبدونه من الآلهة غير الله.

والمعنى: إذ فارقتموهم بأبدانكم، وخالفتموهم في دينكم، وتم الانفصال بينكم وبينهم في أبدانكم وأديانكم.

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، أي: فصيروا إلى الكهف وادخلوه واختفوا فيه؛ لتنجوا من شر قومكم، وتسلموا من أذاهم.

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، أي: يوسع لكم ربكم من رحمته، ويبسطها عليكم، ويستركم بها من قومكم؛ لأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء: «مَرْفِقًا»، وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الفاء: ﴿مِّرۡفَقٗا﴾، أي: وييسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغم والكرب، والخوف على أنفسكم ودينكم.

﴿مِّرۡفَقٗا﴾، أي: ما ترتفقون وتنتفعون به في حياتكم من المكان الآمن وأسباب العيش، والطمأنينة والأمن على أنفسكم ودينكم.

وهكذا حصل، شملهم الله بواسع رحمته، ويسر لهم من أمرهم مرفقًا، فحفظهم في دينهم وفي أبدانهم، وجعلهم من آياته لخلقه، ونشر لهم الثناء الحسن.

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾..

قوله: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾:

قال ابن كثير[1]: «هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزْوَرُّ عنه ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾، أي: تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بيِّن لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب.

وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق؛ لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة؛ لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب،

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٣٩.

ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالًا، ولو كان من جهة الغرب؛ لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، ولله الحمد».

قوله: ﴿وَتَرَى﴾ الخطاب لغير معين، أي: ويرى من تمكنه الرؤية.

﴿ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت﴾، أي: عند طلوعها.

﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «تَزْوَرُّ» بإسكان الزاي وتشديد الراء من غير ألف، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بفتح الزاي وتخفيفها وألف بعدها، وتخفيف الراء: ﴿تَزَاوَرُ﴾، وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم شددوا الزاي: «تَزَّاوَرُ».

ومعنى ﴿تَّزَٰوَرُ﴾، أي: تميل، ﴿عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: جهة اليمين.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تدخل غارهم من شمال بابه من ناحية الشرق، وتصيب منهم، حتى لا تتغير أجسامهم. وقيل: ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تتركهم وتتجاوزهم، وتنصرف عنهم جهة الشمال.

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾، أي: وهؤلاء الفتية في فضاء ومتسع من الكهف؛ بحيث يطرقه الهواء والنسيم، داخل الكهف، وليسوا على بابه، وذلك أحفظ لهم.

وهذا من رحمة الله تعالى بهم وتيسيره، أن جعل هذا الكهف بهذه المثابة؛ ليكون مناخه في غاية الاعتدال، فلا الشمس تصيبهم مباشرة فتحرق أبدانهم وثيابهم، ولا الهواء والنسيم محجوب عنهم، فيحصل لهم الكتمان والاختناق وفساد الأبدان.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الإشارة لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ الآية وحالهم المذكورة، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا له.

﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: من دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، وعنايته بأوليائه.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ «من»: شرطية في الموضعين، أي: من يوفقه الله تعالى للهدى.

﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾، أي: فهو المهتدي حقًّا، أي: أنه عز وجل هو الذي أرشد هؤلاء الفتية ووفقهم من بين قومهم.

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾، أي: ومن يضلله الله، أي: يقدّر عليه الضلال، فلن تجد له وليًّا يتولاه ويدبره إلى ما فيه صلاحه، ويرشده إلى الحق والخير

والصواب؛ لأن الله قد قضى وحكم عليه بالضلالة، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الخطاب لغير معين، كما في قوله: ﴿وَتَرَى﴾، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «وتحْسِبهم» أي: وتظنهم أيها الناظر إليهم.

﴿أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، «أيقاظًا»: جمع «يقظ»، و«رقود»: جمع «راقد»، والراقد: النائم، وضده اليقظ واليقظان، فهو غير النائم، أي: المستيقظ.

أي: وتظنهم أيقاظًا وهم نيام؛ لأنهم ليس عليهم علامات النوم، من الاسترخاء ونحو ذلك، وقيل: لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا وهم رقود.

وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا وهو راقد، كما قال الشاعر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى الأعادي فهْو يقظان هاجعُ[1]

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، أي: جهة اليمين وجهة الشمال، أي: مرة على الجنب الأيمن، ومرة على الجنب الأيسر، حتى لا تأكل أجسادهم الأرض.

والله- سبحانه- قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾، أي: وكلبهم الذي كان معهم للحراسة، أي: رابض جالس على بطنه ماد ذراعيه، كما هي عادة الكلب في جلسته.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾، «الوصيد»: ما يوصد، أي: يغلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة: ٨]، أي: مطبقة مغلقة. والمراد: بالوصيد: فناء الكهف أو فتحته وبابه.

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١٠٤.

وقد شملته بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

قيل: كان كلب صيد لأحدهم، وقيل: كلب حراسة.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لو رأيتهم وشاهدتهم وهم بهذه الحال، والخطاب لغير معين.

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، أي: لوليت هروبًا منهم وفرارًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠، القصص: ٣١]، واللام: واقعة في جواب «لو».

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بتشديد اللام الثانية: «وَلَمُلِّئْتَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾، أي: لامتلأ قلبك منهم فزعًا وخوفًا.

فألقى الله عز وجل عليهم المهابة والذعر؛ لئلا يدنو منهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله، ويبلغوا المدة التي قدرها الله للبثهم في الكهف، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والرحمة الواسعة.

فحفظهم الله من الأرض بالتقليب، وحفظهم من الوحوش بالكلب، وحفظهم من الآدميين بما ألقاه عليهم من المهابة والرعب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: وكما أرقدناهم وأنمناهم بعثناهم وأيقظناهم من رقدتهم ونومهم الطويل، صحيحة أبدانهم، سالمة أشعارهم وأبشارهم، لم تتغير هيئاتهم، وقد مر عليهم ثلاثمئة سنة وتسع سنين.

﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يتساءلوا بينهم، أو: للعاقبة، أي: ليسأل بعضهم بعضًا عن مدة لبثهم ورقدتهم، ليقفوا على حقيقة ذلك، وكأنه حصل لهم اشتباه في طول رقدتهم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، أي: كم رقدتم؟ أي: كم مدة رقودكم ونومكم في هذا الكهف؟

﴿قَالُواْ﴾ ظنًّا منهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، أي: لبثنا يومًا كاملًا إن كان هذا هو اليوم الثاني، أو بعض يوم إن كان هذا هو اليوم الأول الذي دخلنا فيه.

قال ابن كثير[1]: «كأنه كان دخولهم الكهف في أول النهار، واستيقاظهم كان في آخر النهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ».

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، أي: قال آخرون منهم: ربكم أعلم بالذي لبثتم، أي: فردوا العلم في ذلك إليه عز وجل، فهو المحيط علمًا بكل شيء، وكأن هؤلاء شعروا بطول نومهم، لكنهم لم يستطيعوا تحديد ذلك؛ ولهذا عدلوا عن هذا إلى ما هو أهم وهو حاجتهم إلى الطعام والشراب، فقالوا:

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر وروح بإسكان الراء: «بِوَرْقِكُمْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾، و«الورق»: الفضة.

أي: فأرسلوا أحدكم بنقودكم الفضية ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، «ال» في «المدينة» للعهد الذهني، أي: المدينة المعهودة، أي: إلى مدينتكم التي خرجتم منها.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، أي: أيها أحل طعامًا وأطيبه وألذه؟

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، أي: بقوت وطعام منه، أي: من الطعام الذي هو أزكى الأطعمة وأطيبها وألذها، أي: يشتري ذلك ويأتي به.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، أي: وليتعامل بخفية ويترفق في ذهابه ودخوله المدينة وإيابه، وفي شرائه، فيبتعد عن التعرض لأي أحد، وعن المماسكة والمشاكسة، وعن أي أمر يثير الشبهة والشكوك فيه، وفي هذا إشارة إلى أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا قليلًا.

«**لطيفة**»: ذكر أن منتصف حروف القرآن: «التاء» من قوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وهو

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٤١.

قول الجمهور، وقيل: «الفاء»، وقيل: «النون» من «نكرًا» من قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ [الكهف: ٧٤].

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أي: ولا يُعلِمن بكم أحدًا، أي: يتخفى ويخفي أمر إخوانه.

قيل: إنه لما أراد الذهاب إلى المدينة تنكر، وأخذ يمشي في غير الطريق المعروف حتى انتهى إلى المدينة، وكان الناس قد تبدلوا وتغيروا قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قيل:

أمـــا الـــديار فإنهـــا كـــديارهم وأرى رجال الحي غير رجالِه[1]

لكن لا ينجي حذر من قدر، فقد ظهر قومهم وعثروا عليهم. قيل: لأنه لما دفع النقود التي اشترى بها الطعام، نظر البائع فإذا سِكَّتها قديمة، فكان ذلك سبب الظهور والعثور عليهم.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾، «إن»: تعليلية، أي: لأنهم إن يظهروا عليكم، أي: إن يطلعوا عليكم، ويعلموا بمكانكم.

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة، فيقتلوكم أشنع قِتلة؛ لشدة حقدهم عليكم، وعداوتهم لكم ولدينكم.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾، أي: أو يرجعوكم في دينهم، ويفتنوكم عن دينكم.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾، أي: ولن تفوزوا إذا صرتم إلى ملتهم إذن أبدًا، بل تخسرون دينكم ودنياكم وأخراكم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٥].

قال السعدي[2]: «ولعل الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدة لبثهم؛ لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخيرًا تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٩ - ٢٠.

الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينًا، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثًا.

ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم لم يكون دليلًا على ما ذكر».

الفوائد والأحكام:

١- ذِكر الله عز وجل وإخباره بقصة أصحاب الكهف؛ لبيان سعة علمه وحكمته ورحمته، ولاستلهام ما فيها من المواعظ والدروس والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ الآيات.

٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ بضمير الجمع؛ لتفرده بالعظمة والكبرياء.

٣- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾..

٤- أن ما جاء في هذه الآيات من خبر هؤلاء الفتية وقصتهم هو الحق والأمر الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾..

٥- إخباره عز وجل عن أصحاب الكهف، وثناؤه عليهم بأنهم شباب آمنوا بربهم وزادهم هدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

٦- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿رَبُّنَا﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٧- أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

٨- أن الشباب أقرب لقبول الحق والانقياد له من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾، أي: شباب، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: شباب من قومه.

٩- تثبيت الله تعالى لهؤلاء الفتية على الحق، وربطه على قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

١٠- أن الهداية والتوفيق للحق، والتثبيت للقلوب عليه، بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

١١- ينبغي سؤال الله الهداية للحق والثبات عليه، وهكذا كان ﷺ يتضرع إلى ربه بطلب الهداية، ويكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»[(١)].

١٢- اجتماع هؤلاء الفتية على الإيمان والتوحيد، والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٤- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية؛ لقول أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾.

١٥- أن من دعا إلهًا غير الله؛ فقد قال قولًا شططًا، بعيدًا كل البعد عن الحق والصواب؛ لقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

١٦- مشروعية الاعتزاز بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

١٧- ذم الشرك وإبطاله، والبراءة منه وأهله؛ لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾.

١٨- لا دليل ولا سلطان، ولا حجة ولا برهان على اتخاذ الشركاء مع الله؛ لقوله

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠، من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾ الآية، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

١٩- أن اتخاذ الآلهة من دون الله من أعظم الافتراء والظلم، الذي لا ظلم أشد منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

٢٠- وصية هؤلاء الفتية لبعضهم بعضًا في اعتزال قومهم وما يعبدون من دون الله، واللجوء إلى الكهف والاختفاء فيه عن قومهم وملكهم؛ لقولهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

٢١- مشروعية التواصي بالحق والتواصي بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣].

٢٢- ينبغي الاعتزال والفرار والبعد عن مواقع الفتن إذا خاف الإنسان على دينه خوفًا محققًا، قال ﷺ: «**يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر؛ يفر بدينه من الفتن**»(١).

وقد قيل: «الوحدة خير من جليس السوء».

فإذا لم يستطع الإنسان الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخاف على دينه؛ ففي هذا الحال تجوز له العزلة عن الناس، وفيما عداها لا يجوز؛ لما في ذلك من ترك الجماعات والجمع، وترك مخالطة الناس ودعوتهم، والصبر على أذاهم.

٢٣- قوة إيمان هؤلاء الفتية ويقينهم، وقوة توكلهم على الله عز وجل، وتفاؤلهم مع ما هم فيه من الشدة والضيق، وتمام ثقتهم برحمة الله تعالى لهم، وتيسيره أمرهم؛ لقولهم: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

٢٤- إثبات رحمة الله تعالى، وأن تيسير الأمور بيده وحده.

٢٥- يجب أن يكون المؤمن أوثق برحمة الله تعالى وفرجه وتيسيره، من ثقته بما في يديه، فهذه حقيقة التوكل على الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٦٧، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٠، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢٦- أن الشمس إذا طلعت تميل عن كهف هؤلاء الفتية جهة اليمين، وإذا غربت تتركهم جهة الشمال وهم في متسع من الكهف، وذلك من آيات الله عز وجل ورحمته بهم، وتيسيره لهم، وعنايته ورفقه بهم، حيث كان مناخ هذا الكهف في غاية الاعتدال، فلا الشمس تصيبهم مباشرة، فتحرق أبدانهم وثيابهم، ولا الهواء والنسيم محجوب عنهم، فيحصل لهم الاختناق؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٢٧- إثبات أن الشمس تتحرك وتجري، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾ [يس:٣٨]، وفي هذا الرد على من زعم أن الشمس ثابتة.

٢٨- أن من هداه الله تعالى فهو المهتدي حقًّا، ومن أضله الله فهو الضال، وليس له من دون الله وليٌّ مرشدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.وهذا يوجب سؤال الهداية من الله تعالى وحده، وعدم الأسى على ضلال من ضل؛ لأن الله هو الذي أضله قدراً.

٢٩- فضل الله عز وجل ونعمته العظيمة على هؤلاء الفتية؛ حيث منَّ عليهم بالهداية من بين قومهم.

٣٠- أن من يطلع على أصحاب الكهف يظنهم أيقاظًا وهم رقود، وذلك مما يدل على أن أحوالهم لم تتغير، وقيل: لأن أعينهم كانت منفتحة لئلا تفسد؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

٣١- تقليبهم جهة اليمين وجهة الشمال؛ ليتوازن الدم في الجسد، ولئلا تأكل الأرض أجسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن النوم على اليمين وعلى الشمال أكمل من النوم على الظهر أو على البطن ، وأن النوم على اليمين أولى من النوم على الشمال.

٣٢- أن الله جعل لكل شيء سببًا، وربط المسببات بأسبابها، ولو شاء لحفظ أجسادهم بدون تقليب.

٣٣- بركة مصاحبة الصالحين؛ حيث إن كلب أصحاب الكهف أصابه من النوم ما

أصابهم، فصار له ذكر وخبر وشأن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

٣٤- جواز اتخاذ الكلب للحراسة.

٣٥- أن الله جعل على أصحاب الكهف المهابة والذعر؛ بحيث لو اطلع عليهم أحد لولى هاربًا فرارًا منهم، وامتلأ قلبه منهم رعبًا وخوفًا، وذلك ليحفظهم عز وجل من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

٣٦- حفظ الله التام لهؤلاء الفتية في كهفهم: فحفظهم من الأرض بتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، وحفظهم من الوحوش بكلبهم الباسط ذراعيه بالوصيد، وحفظهم من بني آدم بإلقاء المهابة والذعر عليهم.

٣٧- بعث أصحاب الكهف من رقدتهم، وإيقاظهم من نومهم؛ ليسأل بعضهم بعضًا عن مدة لبثهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

٣٨- ردهم العلم في مدة لبثهم إلى ربهم، والتفاتهم إلى ما هو أهم وهو حاجتهم إلى الطعام، وبعث أحدهم بورقهم إلى المدينة لجلب الطعام لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

٣٩- أن الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، ويقول: الله أعلم.

٤٠- صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك؛ لقولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ الآية، فجمعوا في توكيلهم له بين الشراء والإحضار.

٤١- جواز اختيار وأكل الطيب اللذيذ من المطاعم، ما لم يخرج إلى حد الإسراف؛ لقولهم: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

٤٢- طلبهم ممن بعثوه لجلب الطعام لهم بالتلطف والرفق في ذهابه، ودخوله المدينة، وفي شرائه، وعند رجوعه، والتخفي ما أمكن، وألا يشعرن بهم أحدًا خوفًا من قومهم؛ لقولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

٤٣- شدة حذر هؤلاء الفتية من ظهور قومهم عليهم، حفاظًا على دينهم؛ لعلمهم أنهم إن يظهروا عليهم يرجموهم بالحجارة، أو يردوهم في دينهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾.

٤٤- التحرز والاستخفاء واستعمال الكتمان عند خوف الضرر بالدين، وأخذ الحذر من الأعداء.

٤٥- أن من ارتد عن دينه وأشرك بالله فلن يفلح أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: وكما أرقدناهم وأيقظناهم بهيئاتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان.

﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يعلم الناس ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: أن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال حق وصدق، وأمر ثابت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، أي: وأن القيامة الموعود فيها بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال لا شك فيها، بل هي آتية لا محالة، قيل: وكان قومهم ينكرون البعث والحساب.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بـ«أعثرنا».

أي: إذ يتنازع ويتخاصم أهل المدينة ، الذين عثروا على أصحاب الكهف بينهم ﴿أَمْرَهُمْ﴾، أي: شأن أصحاب الكهف، هل كانوا في تلك المدة نيامًا أو أمواتًا؟ وكم كانت مدة لبثهم؟ وماذا يفعلون بهم بعد موتهم؟ أيبنون عليهم بنيانًا، أو يتخذون عليهم مسجدًا؟ كما في قوله: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ الآية.

ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿أَمْرَهُمْ﴾ عائدًا إلى ما عاد عليه ضمير ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، أي: فيما يفعلون بهم.

وذهب ابن كثير[1] إلى أن المعنى: «﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها، ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم».

والأظهر: المعنى الأول، وعليه أكثر المفسرين.

﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي: فقال قائلون منهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾، أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم. وهذا يدل على أنهم ماتوا.

﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي: ربهم أعلم بحالهم وشأنهم الذي تنازعنا فيه، فدعوا ذلك له عز وجل. وهؤلاء أرشد القوم، وأصوبهم رأيًا، وأعدلهم حكمًا.

ويجوز كون جملة: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ معترضة من كلام الله تعالى، والأول أقرب.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾، أي: أهل الغلبة والنفوذ والأمر والكثرة، وهم المشركون، وهم أسفه القوم، وأخطؤهم رأيًا، وأبطلهم حكمًا.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ اللام: لام القسم، لقسم مقدر، أي: والله لنتخذن، أي: لنجعلن ونبنينَّ عليهم مسجدًا نتعبد لله تعالى فيه، ونتذكر أحوالهم وما جرى لهم.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٤٣.

وهذا شرك محرم، نهت عنه الشرائع السماوية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذِّر ما صنعوا[١]، وقال ﷺ: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»[٢].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾، أي: سيقول أهل الكتاب وغيرهم من الناس مختلفين في عدة أصحاب الكهف: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾، أي: هم ثلاثة نفر ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾، أي: هم خمسة ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: حدسًا وتخرصًا وتخمينًا وظنًّا بلا دليل ولا علم، وفي هذا تضعيف لهذين القولين.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذا- والله أعلم- هو الصحيح؛ لأن الله أبطل القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ولم يبطل هذا القول، فدل على صحته.

قال ابن تيمية في «مقدمة التفسير»[٣]: «اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما».

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٣٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٣١، والنسائي في المساجد ٧٠٣، من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم ٥٣٢- من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٣٦٧.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، أي: قل يا محمد: ربي أعلم بعدة هؤلاء الفتية، وفي هذا إشارة إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، وأن هذا الاختلاف مما لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، ولا مصلحة للناس في معرفة عددهم، لا دينية ولا دنيوية.

﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، أي: إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «أنا ممن استثناه الله»، ويقول: «عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم»[1].

وقيل: المراد بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، أي: أن الله أعلم بعدتهم وقد أعلمنا أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، أي: قبل إعلام الله أنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾، أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تجادل فيهم، أي: في شأنهم، وفي زمانهم ومكانهم، وفي مآلهم، وغير ذلك، إلا جدالًا ظاهرًا، بأن تتلوا ما أوحي إليك في شأنهم. والمراء الظاهر: ما كان على اللسان، ولا يصل إلى القلب.

وفي هذا تحذير من المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، والتي لا فائدة فيها إلا تضييع الزمن والتأثير في القلوب.

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾ النهي للنبي ﷺ، أي: ولا تستفت في شأن أهل الكهف، أي: تطلب الفتوى في شأنهم.

﴿مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، أي: من أهل الكتاب، نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: أيَّ أحد منهم؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾:

روي أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: «**أخبركم غدًا**»، ولم يقل: «إن شاء الله» فتلبث الوحي، ثم نزلت هذه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٢١٩- ٢٢٠.

الآية[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولأمته، أي: ولا تقولن لشيء من الأشياء أيًّا كان: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾، أي: إني فاعل ذلك الشيء «غدًا»، والغد: اليوم الذي بعد يومك، وما يستقبل.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا أن تعلق قولك بمشيئة الله، فتقول: إني فاعل ذلك غدًا إن شاء الله.

والتعليق بالمشيئة- وهو الاستثناء- مشروع فيما يخبر به عن المستقبل من فعل أو قول أو وعد أو وعيد، فيقول مثلًا: سأزورك غدًا إن شاء الله، أو: سأعمل كذا إن شاء الله.

كما يشرع الاستثناء في اليمين، فيقول الحالف: والله لأفعلن كذا إن شاء الله.

والتعليق بالمشيئة فيما يخبر عن فعله في المستقبل، أو فيما يحلف على فعله في المستقبل له فائدتان:

الأولى: أن الله ييسر له أمره ويعينه، حيث فوض إليه أمره.

والثانية: أنه لا إثم ولا تبعة عليه فيما أخبر عن فعله معلقًا بالمشيئة إذا لم يفعله، ولا إثم عليه ولا كفارة فيما حلف على فعله معلقًا بالمشيئة إذا لم يفعله.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي: إذا نسيت أن تستثني فيما أخبرت به عن المستقبل من قول أو فعل أو وعد أو وعيد، أو في يمينك، بأن تقول: إن شاء الله، فقل ذلك متى ذكرته.

عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف، قال: «له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك»[٢].

وأيضًا: اذكر ربك عند النسيان والسهو عمومًا؛ فإن ذكر الله عز وجل يزيله، ويذكر العبد ما نسيه وسها عنه؛ لأن النسيان من الشيطان، قال فتى موسى: ﴿وَمَآ

(١) سبق تخريجه في مطلع السورة، وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٢٢٥، والطبراني «١١٠٦٩»، والحاكم ٤/ ٣٠٣.

أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]. وذكر الله يطرد الشيطان؛ لأنه إذا ذكر الله خنس؛ ولهذا قال ﷺ: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**»[1].

وأيضًا: اذكر ربك على الدوام، ولا تنس ذكره، ولا تكن من الغافلين، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال ابن القيم: «وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب».

وقال أيضًا: «وهذا إما أن يختص بالاستثناء إذا نسيه، كما ذكره جمهور المفسرين، أو يعمه ويعم غيره، وهو الصواب»[2].

وإذا نسي الاستثناء فيما أخبر به أنه سيفعله في المستقبل، ثم ذكر واستثنى فلا إثم عليه، وكذا إذا نسي الاستثناء في اليمين فإنه يستثني إذا ذكر، ولا إثم عليه، وعلى هذا يحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما: «له أن يستثني ولو إلى سنة»، لكن تلزمه الكفارة إذا حنث.

﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾ بعد أن أمر عز وجل نبيه ﷺ بذكره عند النسيان، أمره بسؤاله الهداية إلى الرشد في أمره، وهو أمر له ولأمته.

و﴿عَسَىٰٓ﴾ للترجي والدعاء، أي: أدعو راجيًا ﴿أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي﴾، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿عَسَىٰٓ﴾ أي:عسى أن يدلني ربي ويوفقني.

﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ الإشارة يحتمل أن تعود لما ذكر من التعليق بالمشيئة، أو الذكر عند النسيان، أي: أرجو أن يوفقني ربي لأجل أن أقرب من هذا الذي طلب مني، ﴿رَشَدٗا﴾، أي: هدًى وخيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٩٧، ومسلم في المساجد ٦٨٤، وأبو داود في الصلاة ٤٤٢، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١١٧، ١١٨.

قال ابن كثير[1]: «إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد».

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾، أي: وأقام هؤلاء الفتية في كهفهم ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بغير تنوين على الإضافة: «ثَلَاثَ مِئَةِ سِنِينَ»، وقرأ الباقون بالتنوين: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾.

﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، أي: وازدادوا على الثلاث مئة سنة تسع سنين، فصار لبثهم ثلاث مئة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاث مئة سنة بالشمسية؛ لأن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين.

ولم يقل: «ثلاث مئة وتسع سنين»، بل قال: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾- والله أعلم- من أجل تناسب الفواصل، وليس لأن المراد ثلاث مئة سنة بالشمسية، وازدادوا تسعًا بالقمرية، كما قيل؛ لأن الحساب عند الله واحد، والعلامات التي بها الحساب عند الله هي الأهلة، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾، أي: قل يا محمد للمختلفين في لبثهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾، «ما»: مصدرية، أي: بلبثهم، أي: بمدة لبثهم.

وفي هذا قطع للمماراة في مدة لبثهم المختلف فيها بين أهل الكتاب، أي: قل الله أعلم منكم بمدة لبثهم، وقد أخبرنا أنهم لبثوا ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٤٦.

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له علم كل ما غاب عن الناس وعن حواسهم في السموات والأرض، فلا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل:٦٥].

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره وما أسمعه، وهو تعجب من كمال بصره وسمعه، وإحاطتهما بالمبصرات والمسموعات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات.

أي: ما أبصره عز وجل بكل شيء! وما أسمعه لكل مسموع! لا يخفى عليه من ذلك شيء، فلا أحد أبصر منه عز وجل، ولا أسمع منه، فهو السميع البصير.

﴿مَا لَهُم﴾، أي: ما للخلق كلهم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: غيره، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما لهم غيره أيُّ ولي يتولاهم، فهو سبحانه ولي الخلق كلهم ولاية عامة، المدبر لهم، المتصرف فيهم، وهو الولي ولاية خاصة للمؤمنين، بتوفيقه لهم ولطفه بهم، كما تولى عز وجل أصحاب الكهف، ولطف بهم، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ قرأ ابن عامر بالخطاب وجزم الكاف على النهي: «وَلَا تُشْرِكْ»، وقرأ الباقون بالغيب ورفع الكاف على الخبر: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾.

أي: ولا يشرك في حكمه وقضائه الكوني والشرعي أحدًا من الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

فلا أحد يشركه في حكمه الكوني، ولا في حكمه الشرعي؛ فهو عز وجل الحاكم المتفرد بالحكم، له الحكم في خلقه كونًا وقدرًا وخلقًا وتدبيرًا، وله الحكم فيهم شرعًا وأمرًا ونهيًا وجزاءً.

الفوائد والأحكام:

١ - أن الحكمة في إطلاع الله تعالى الناس على أصحاب الكهف؛ لأجل أن يعلموا أن وعد الله بالحساب والجزاء على الأعمال حق لا مرية فيه، وأن القيامة آتية لا ريب

فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

٢- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى وأفعاله، وأن وعده حق وصدق.

٣- تنازع الذين عثروا على أصحاب الكهف في أمرهم وشأنهم، هل كانوا أمواتًا أو نيامًا؟ وكم كانت مدة لبثهم؟ وماذا يفعلون بهم؟ هل يبنون عليهم بنيانًا، أو يتخذون عليهم مسجدًا؟ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ﴾.

٥- أنه سبحانه أعلم بأصحاب الكهف وأحوالهم ومدة لبثهم وغير ذلك، فينبغي رد العلم إليه عز وجل في ذلك، وفي كل ما لا يعلمه إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

٦- أن الغلبة في قوم أصحاب الكهف كانت لأهل الشرك، الذين يبنون المساجد على القبور ويعبدون الأموات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

٧- اختلاف الناس من أهل الكتاب وغيرهم في عدة أصحاب الكهف، فمن قائل: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ومن قائل: هم خمسة سادسهم كلبهم، ومن قائل: هم سبعة وثامنهم كلبهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

٨- أن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الله أبطل القولين الأولين، فقال بعدهما: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: تخرصًا وتخمينًا بلا علم ولا دليل، وذكر القول الثالث فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وسكت عنه، فدل على صحته.

٩- أن الله عز وجل أعلم بعدتهم، وأن من الأدب في مثل هذا المقام رد العلم إليه

عز وجل، والإشارة إلى أن الاختلاف في مثل هذا لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، ولا مصلحة للناس في معرفة عدتهم، لا في دينهم ولا في دنياهم.

١٠- أنه لا يعلم عدة أصحاب الكهف إلا قليل من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾.

١١- نهي الله عز وجل له ﷺ عن المماراة في عدة أصحاب الكهف إلا مراءً ظاهرًا لا عمق فيه، وذلك بتلاوة ما أوحاه الله إليه في شأنهم، والتحذير من المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب مما لا فائدة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾.

١٢- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يستفتي في أهل الكهف وعدتهم من أهل الكتاب أحدًا؛ لجهلهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾.

١٣- لا ينبغي استفتاء من ليس أهلًا للفتوى، إما لقصور علمه في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي فيما يفتي فيه، وليس عنده ورع يحجزه، وهو منهي عن الفتوى من باب أولى.

١٤- النهي أن يقول في الأمور المستقبلة: إني فاعل ذلك غدًا، من دون أن يقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، سواء كان ذلك إخبارًا فقط أو يمينًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وهذا نهي له ﷺ ولأمته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون**»[(١)].

قال السعدي[(٢)]: «فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة: إني فاعل ذلك من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب المستقبلة

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٣٩، ومسلم في الأيمان، الاستثناء ١٦٥٤.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٢٥.

التي لا يدري هل يفعلها أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالًا، وذلك محذور محظور؛ لأن المشيئة كلها لله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه».

١٥- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٦- أن مشيئة جميع الخلق- بما فيهم الرسول ﷺ- تابعة لمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

١٧- مشروعية ذكر الله تعالى عند النسيان، فإذا نسي أن يستثني فيما أخبر؛ بأن يقول إذا ذكر: إن شاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ ليحصل المطلوب ويندفع المحذور، فيخرج من تبعة ذلك إن كان له تبعة، ما عدا كفارة اليمين فلا تسقط بالاستثناء إلا في حال اتصاله بالحلف.

١٨- مشروعية ذكر الله عند النسيان والسهو عمومًا؛ لأن النسيان من الشيطان، والذكر يطرد الشيطان، وأيضًا مشروعية ذكر الله على الدوام، وعدم نسيان الذكر، والبعد عن الغفلة.

١٩- أمره ﷺ بدعاء الله تعالى ورجائه، وسؤاله الهداية والتوفيق إلى الرشد والصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، وهذا أمر له ولأمته.

٢٠- أن الهداية والتوفيق إلى الرشد والصواب من خصائص الله تعالى.

٢١- إثبات ربوبية الله الخاصة بنبيه محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾، وهي ربوبية خاصة الخاصة.

٢٢- أن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم ثلاثمئة سنة وتسع سنوات بالسنة الهلالية القمرية، وهي ثلاثمئة سنة فقط بالسنة الشمسية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

٢٣- أن الله تعالى هو الأعلم بما لبثوا، وما أخبر به من مدة لبثهم هو الحق؛ لقوله

تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾.

٢٤- اختصاصه عز وجل بعلم غيب السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢٥- عموم اطلاعه عز وجل وبصره لكل شيء، وسمعه لجميع المسموعات، فلا أبصر منه، ولا أسمع؛ لقوله تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾.

٢٦- أنه لا ولي للخلق كلهم غير الله، فهو وليهم كلهم ولاية عامة، المدبر لهم، المتصرف فيهم، وهو ولي المؤمنين ولاية خاصة، كأصحاب الكهف وغيرهم، الموفق لهم للهداية والخير، الحافظ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾.

٢٧- تفرده عز وجل وحده بالحكم بلا شريك، فله وحده الحكم الكوني القدري، الذي لا مناص لأحد عنه، وله وحده الحكم الشرعي الديني، الذي يجب الرجوع إليه، لا إله غيره، ولا رب سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾.

وهنا انتهت قصة أصحاب الكهف.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

لما قص الله عز وجل على نبيه ﷺ نبأ أصحاب الكهف بالحق، وأبطل كيد المتحدّين للنبي ﷺ وأكاذيبهم وتخرصاتهم، وبيَّن أن له علم غيب السموات والأرض وتفرده وحده بالحكم الكوني والشرعي- أمر نبيه ﷺ أن يتلو ويتبع ما أُوحي إليه من كتاب ربه، وهذا كالنتيجة لما قبله.

قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، أي: واتل يا محمد؛ تلاوة لفظية وتلاوة حكمية عملية، أي: اقرأ واتبع وبلغ ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي أوحي إليك، أي: الذي أوحاه الله إليك بواسطة جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن الكريم.

والمعنى: اقرأ واتبع وبلغ الذي أوحاه ربك إليك في كتابه العظيم القرآن الكريم.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: لا مبدل لكلماته الشرعية وآياته في القرآن الكريم، أي: لا تغيير لها؛ لبلوغها الغاية في الصدق والعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وأيضًا: لا مبدل لها ولا مغير ولا محرف ولا مؤول؛ لتكفل الله بحفظها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

وأيضًا: لا مبدل لكلماته الكونية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: ولن تجد غير ربك ﴿مُلْتَحَدًا﴾، أي: ملجأ تلجأ إليه، ومعاذًا تعوذ به، فهو الملجأ وإليه الملتجأ، وهو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨﴾:

قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، أي: احبس نفسك حبس ملازمة وتثبيت وصبر على طاعة الله تعالى.

﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، أي: مع المؤمنين العبَّاد المنيبين، الذين يدعون ربهم ويعبدونه ويسألونه ويذكرونه ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، «الغداة»: أول النهار، و«العشي»: آخر النهار، أي: أول النهار وآخره، بكرة وأصيلًا، وذلك يشتمل أوقات جميع الصلوات، وأذكار الصباح والمساء، وقيام الليل، بل وجميع أوقات الليل والنهار، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾ [مريم: ٦٢]، ورزق أهل الجنة وطعامهم على الدوام لا ينقطع في أي وقت.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: مخلصين لله تعالى في دعائهم، يطلبون مرضاة الله تعالى،

فجمعوا بين دعاء الله تعالى وعبادته على الدوام، وبين الإخلاص لله عز وجل.

وفي الآية: الأمر بصحبة الأخيار وإن كانوا فقراء، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم؛ لما في صحبة الأخيار من الفوائد التي لا تحصى.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي: ولا تتجاوز عيناك عن هؤلاء السادة الأخيار، الأبرار الأطهار؛ أي: لا تجاوزهم بصرك، ولا تصرف عنهم نظرك.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية الزائلة، بصرف بصرك عن هؤلاء الأخيار الأبرار، ومجالسة الأغنياء والأشراف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، أي: ولا تطع الذي أغفلنا قلبه، أي: عاقبناه بسبب كفره وشركه، بأن جعلنا قلبه غافلًا لاهيًا عن ذكرنا، أي: عن القرآن والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أي: اتبع ما تهواه وتشتهيه نفسه الأمارة بالسوء، وآثره على ما فيه هداه وفلاحه، فما اشتهت نفسه فعله وسعى في إدراكه، ولو كان فيه ضلاله وهلاكه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا[1]

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾، أي: أعماله وأقواله، ومصالح دينه ودنياه، وشأنه كله ﴿فُرُطًا﴾، أي: منفرطًا ضائعًا، مجانبًا للحق، تمضي الأيام والليالي من عمره ولا ينتفع منها بشيء، فخسر الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم: «أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه،

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤، «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة»(١).

وما أكثر الذين كان أمرهم ﴿فُرُطًا﴾ حتى من المنتسبين إلى الإسلام، وإن كان فرطًا دون الكفر.

وليس في نهيه ﷺ عما ذكر ما يدل على أنه ﷺ قد فعل شيئًا من ذلك، وإنما هذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ونحو ذلك، وهو نهي له ﷺ ولأمته.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قل يا محمد للناس: هذا الذي أتلوه عليكم من القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: هو الحق الثابت من ربكم، والقول الفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، و«من» شرطية في الموضعين، والفاء في الموضعين بعدها رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

والمعنى: لا إكراه في الدين، فمن شاء وأراد الإيمان فليؤمن، ومن شاء وأراد الكفر فليكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقدم في الذكر الإيمان ترغيبًا فيه.

وفي قوله: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ تهديد ووعيد شديد؛ ولهذا قدّم ذكر ما تُوعِّدوا به من النار وما فيها من صنوف العذاب تحذيرًا من الكفر، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٠.

نَارًا﴾، فكأنه قال: فمن شاء فليكفر وله النار.

ومعنى ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾، أي: هيأنا وأعددنا وجهزنا، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي وأذية العباد، ﴿نَارًا﴾ نكرت للتهويل والتعظيم.

﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾، أي: سورها وفسطاطها، فليس لهم منها مخرج ولا مخلص، ولا منفد ولا طريق.

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾، أي: يطلبوا الغوث بالماء ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد.

﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾، أي: بماء شديد الحرارة أسود منتن غليظ، كدُرديِّ الزيت وعكره.

﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ من شدة حره، فإذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى يسقط فروة وجهه وجلده، قال تعالى: وقال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾ [الغاشية: ٥]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ [الرحمن: ٤٤].

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾، أي: قبح وساء هذا الشراب الذي يراد ليطفئ العطش، ويخفف شدة العذاب، فيكون زيادة وشدة في عطشهم وعذابهم.

﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾، أي: وساءت النار وقبحت مرتفقًا، أي: منزلًا ومقيلًا وموضعًا للارتفاق، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦].

و«المرتفق» في الأصل: مكان الارتفاق والراحة، وإطلاق وصف ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ على النار من باب التهكم؛ لأنه ليس في النار شيء من الراحة والارتفاق، وإنما فيها العذاب الشاق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾:

ذكر في الآية السابقة ما أعده للكافرين من النار، وما فيها من صنوف العذاب، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للمؤمنين من الجنات وما فيها من ألوان النعيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، أي: إنا لا نضيع ثواب الذي ﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ بإيمانه وعمله عملًا صالحًا جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

ولم يقل: أجرهم، لبيان العلة في ثوابهم، وهو أنهم أحسنوا العمل، مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

والمراد: لا نجعل عملهم الصالح يذهب سدى، بل نثيبهم، ونجازيهم عليه، ونزيده ونضاعفه لهم أضعافًا كثيرة، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تشريفًا لهم، ورفعة لقدرهم ومنزلتهم، وقدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للدلالة على الاختصاص، أي: لهم خاصة جنات عدن، و«عدن» بمعنى: إقامة، أي: جنات عدن التي يقيمون فيها إقامة دائمة، خالدين فيها أبدًا.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهذه الأنهار تجري بغير أخدود يصرفونها كيف شاؤوا، قال ابن القيم(١):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، أي: يحلون في هذه الجنات ذكورهم وإناثهم.

---

(١) في «النونية» ص٢٢٩.

﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾، «أساور»: جمع «سوار»؛ وهو ما يوضع من الحلي والزينة على اليد.

﴿مِن ذَهَبٖ﴾ «من»: بيانية، أي: هذه الأساور من ذهب.

﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾، أي: لونها أخضر، وهو لون مميز من بين الألوان، جمالًا، ومحبة في عين الناظر، وهو أعدن الألوان وأفقعها عند البصر، وهو شعار الملوك.

﴿مِّن سُندُسٖ﴾ وهو رقيق الديباج والحرير، كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣]، [فاطر: ٣٣] يلبس مباشرًا للجلد لرقته ونعومته.

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ وهو غليظ الديباج والحرير، يلبس فوق الثياب؛ لما فيه من البريق، ولا يباشر الجلد لغلظته.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال، أي: في حال كونهم متكئين في تلك الجنات. والاتكاء: الجلوس وهو جلسة الراحة والطمأنينة والترف، و«الأرائك»: جمع «أريكة»، وهي: السرر المزينة بالستائر الجميلة.

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾، أي: نعم الثواب تلك الجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ هذا في مقابل قوله تعالى عن النار: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾، أي: وحسنت تلك الجنات مرتفقًا، أي: منزلًا ومقيلًا ومقامًا يرتفقون بها، ويتنعمون بما فيها من أنواع وألوان النعيم، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥- ٧٦].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

٢- أمر الله عز وجل له ﷺ بتلاوة واتباع وتبليغ ما أوحاه عز وجل إليه من القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

٣- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإثبات ربوبيته الخاصة، بل ربوبية خاصة الخاصة له ﷺ.

٤- أن في تلاوته ﷺ ما أوحاه الله تعالى إليه من القرآن القول الفصل في جميع المنازعات والاختلاف مما جاء في قصة الكهف وغير ذلك، وبيان الحق من الباطل والهدى من الضلال.

٥- تعظيم شأن القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا ترغيب في الإقبال عليه.

٦- لا تبديل ولا تغيير لكلمات الله تعالى الشرعية وآياته في القرآن الكريم؛ لبلوغها الغاية في الصدق والعدل، ولحفظ الله تعالى لها من التبديل والتغيير والتحريف والتأويل، كما أنه لا تبديل لكلماته الكونية، فما قدره كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٧- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه عز وجل يتكلم بحرف وصوت مسموع، وأن القرآن الكريم كلامه، غير مخلوق.

٨- أنه لا ملجأ ولا ملتجأ إلا إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾.

٩- عناية الله تعالى بأوليائه المؤمنين، وعباده الداعين ربهم غدوة وعشية، المخلصين له؛ لأمره لنبيه ﷺ بتصبير نفسه وحبسها معهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾، وهذا عام له ولأمته، وبخاصة أهل الشأن منهم من العلماء والدعاة ونحوهم؛ أن يصبروا أنفسهم مع إخوانهم المؤمنين.

١٠- الترغيب بدعاء الله تعالى وعبادته بالغداة والعشي، وفي جميع الأوقات.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

١٢- وجوب الإخلاص لله تعالى في الدعاء والعبادة؛ لأن ذلك لا يقبل بدون الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾.

١٣- إثبات الإرادة والمشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾، وفي هذا إبطال لقول

الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على أفعاله، كالسعفة في الهواء.

١٤- إثبات الوجه لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٧].

١٥- النهي عن صرف النظر عن هؤلاء الذين أمر الله بحبس النفس معهم؛ لفقرهم أو ضعفهم أو انشغالًا بالأشراف والأغنياء، أو إرادة لزينة الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وفي هذا تأكيد للعناية بهم، وعظم مكانتهم عند الله عز وجل، لكن لو انصرف عنهم لمصلحة دينية لم يدخل في النهي.

١٦- سمو مبادئ الإسلام وتشريعاته المطهرة، فالناس فيه لا يقاسون بالدرهم والدينار، وإنما أكرمهم عند الله أتقاهم، وفي الحديث: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبره**»[1].

١٧- تحقير الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، والتحذير من الانشغال بها عن الآخرة الباقية؛ لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- النهي عن طاعة من عاقبه الله بسبب كفره، فأغفل قلبه عن ذكر الله، واتبع ما تهواه وتشتهيه نفسه الأمارة بالسوء، وكان أمره فرطًا وضياعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، ويدخل في هذا النهي من غفل عن ذكر الله مطلقًا، بقلبه ولسانه، ومن غفل عن ذكر الله بلسانه دون قلبه.

١٩- أن ما يقع من شر أو خير هو بتقدير الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: قدرنا غفلة قلبه عن ذكرنا.

٢٠- ذم الغفلة عن ذكر الله واتباع الهوى، والتحذير من ذلك، ووجوب لزوم ذكر الله، واتباع الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

٢١- أن من غفل عن ذكر الله واتبع هواه؛ كان أمره ضياعًا وسفاهًا وهلاكًا، وخسر دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٨٥٤، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وقال: «حديث حسن غريب».

٢٢- أمره ﷺ بقول الحق والصدع فيه، وبيان أن ما جاء به من القرآن هو الحق من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٤- بيان أنه لا إكراه في الدين، فمن أراد الإيمان فليؤمن، ومن أراد الكفر فليكفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وقدم الإيمان ترغيبًا فيه.

٢٥- التهديد والوعيد الشديد للظالمين، تحذيرًا من الظلم بالكفر والشرك والمعاصي والاعتداء على الخلق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية.

٢٦- أن النار موجودة الآن، معدة لأهلها الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾.

٢٧- إحاطة سرادق النار بالظالمين، فليس لهم منها مخرج ولا منفذ ولا طريق؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

٢٨- شدة ما هم فيه من العطش من حر النار، وإغاثتهم إذا استغاثوا بماء غاية الحرارة والغلظة والنتن والسواد كعكر الزيت، يشوي الوجوه ويسقط فروتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

٢٩- ذم ما يغاثون به من الشراب، فلا هو يطفئ العطش، ولا يخفف من شدة العذاب، بل يزيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

٣٠- أن النار ساءت وقبحت منزلًا ومقيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

٣١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب؛ لأنه لما ذكر الظالمين وما أعد لهم من النار والعذاب، ذكر المؤمنين وما أعد لهم من الجنات والثواب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيتان.

٣٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب والباطن، وعمل الصالحات بالجوارح والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٣٣- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لسنة رسوله ﷺ،

لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣٤- تكفل الله عز وجل وضمانه ثواب من أحسن العمل؛ ولهذا سماه «أجرًا»، بل وزيادته ومضاعفته له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

٣٥- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات وأحسنوا العمل، فلهم جنات عدن، يتمتعون فيها بألوان النعيم من الأنهار، والحلية واللباس، والاتكاء على الأرائك؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

٣٦- امتداح الله عز وجل لما أعده لعباده المؤمنين من جنات عدن، وما فيها من أنواع النعيم، وأنها حسنت مرتفقًا ومنزلًا ومقامًا لهم؛ لقله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، نسأل الله تعالى من فضله.

٣٧- الترغيب في الإيمان وإصلاح العمل وتحسينه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾:

قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾، أي: واضرب لهؤلاء المشركين؛ المفتخرين بأموالهم وأحسابهم وأنسابهم، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء من المسلمين، أو: اضرب للفريقين معًا المشركين والمؤمنين.

وضرب المثل: تشبيه أمر معنوي بأمر حسي؛ لتقريب الأمر المعنوي.

﴿مَّثَلٗا﴾، أي: شبهًا وصفة ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾ أحدهما مؤمن، والآخر كافر.

﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾، أي: حديقتين وبستانين، ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾، أي: من أشجار العنب.

﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾، أي: وحففنا هاتين الجنتين- أي: أحطناهما- بنخل محدق بجنباتهما.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾، أي: وجعلنا بين الجنتين- أي: في خلالهما- زرعًا.

فجمع الله له في هاتين الجنتين الأعناب والنخل والزرع، التي ثمرها من أهم الأقوات، وأنفع الثمار وألذها وأطيبها وأجودها، جمع فيهما بين الفاكهة من العنب، والغذاء من الحب وثمر النخل، وجعل منظرهما من أجمل وأبهى المناظر.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف: ﴿أُكُلَهَا﴾، وقرأ الباقون بضم الهمزة وسكون الكاف: «أُكْلَهَا»، أي: أثمرت وأخرجت ثمرها.

﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، أي: ولم تنقص من ثمرها شيئًا.

﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾، أي: وفجرنا خلال الجنتين وبينهما نهرًا، فاجتمعت فيهما كل مقومات الحياة، من الفاكهة والقوت والثمار والماء.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وروح ورويس بفتح الثاء والميم: ﴿ثَمَرٞ﴾، وقرأ الباقون: بضم الثاء والميم: «ثُمُر».

ونكر ﴿ثَمَرٞ﴾ للتعظيم، أي: وكان له ثمر عظيم من هاتين الجنتين اللتين آتت كل منهما أكلها تامًّا ولم تنقص منه شيئًا، أو: كان له أموال كثيرة مثمرة غيرهما.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، أي: فقال صاحب هاتين الجنتين والثمر الكثير ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ الجملة حالية، ﴿وَهُوَ﴾، أي: صاحب الجنتين والثمر ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي: يحاور صاحبه المؤمن، أي: يراجعه الكلام مفتخرًا متطاولًا عليه ومغترًّا بجنتيه:

﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾، أي: وأشد عزة وأقوى وأكثر نفرًا، أي: أكثر عشيرة وأنصارًا وأعوانًا وخدمًا وحشمًا وولدًا، فافتخر على صاحبه بأمرين- هما سبب هلاك كثير من الخلق- وهما: كثرة المال، وقوة العشيرة وكثرة الأنصار.

أي: افتخر بالغنى والحسب، ولم يغن الافتخار بهذا عن فرعون ولا عن قارون

شيئًا؛ ولهذا قابله بقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَدَخَلَ﴾، أي: الكافر صاحب الجنتين ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ أفردها، فإما أن يقال: المراد بالمفرد الجنس، وإما لأنها متجاورتين فيدخل من أحدهما لينتقل منها إلى الأخرى، أو لغير ذلك.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي: حال كونه ظالمًا لنفسه بكفره وافتخاره وغروره، وكل ما يرتكبه الإنسان من الكفر والشرك والمعاصي هو ظلم للنفس؛ لأن ذلك يوردها موارد الهلاك، وهي وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه نجاتها وسلامتها في دينها ودنياها وأخراها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩- ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

قال لبيد[1]:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن ترد الودائع

﴿قَالَ﴾ لجهله وظلمه: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، أي: ما أعتقد أن تفنى وتزول هذه الجنة أبدًا، وذلك لإعجابه بها وبما فيها من قوة وحسن المنظر، وغير ذلك، واغتراره بالحياة الدنيا وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال منكرًا للبعث:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي: وما أعتقد القيامة قائمة، أي: لا أعتقد أن هناك بعثًا ولا حسابًا ولا جزاءً على الأعمال.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر: «مِنْهُمَا» بميم بعد الهاء على التثنية، وقرأ الباقون بحذف الميم على الإفراد: ﴿مِّنْهَا﴾.

واللام في قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٨٨.

والمعنى: والله لئن رجعت إلى ربي على سبيل الفرض والتقدير أن هناك رجعة ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، أي: خيرًا من هذه الجنة ﴿مُنقَلَبًا﴾، أي: مرجعًا ومردًّا، أي: لحظوتي عنده، ولولا ما لي عنده من الحظوة والكرامة ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]، أي: في الدار الآخرة.

وهذا اغترار وجهل منه، واستدلال بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة، ولا تلازم بينهما، بل إن الغالب أن الله يزوي بالدنيا عمن يحب، ويوسعها على من لا يحب من الكفرة، الذين ليس لهم في الآخرة من نصيب.

كما في الحديث: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**»[1].

وقال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**»[2].

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[3]

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء، وهذا أقرب، وهو أشد وأعظم، وزيادة كفر على كفره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧ من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ﴾، أي: قال لصاحب الجنتين الكافر، ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ناصحًا له وواعظًا ومخوفًا، وزاجرًا له عما هو عليه من الكفر والاغترار، مذكرًا له بنعمة الله تعالى عليه بخلقه وإيجاده من العدم، وإعداده وإمداده.

﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي: وهو يراجعه ويجادله، والضمير «هو» يعود إلى المؤمن، والضمير في ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يعود إلى صاحب الجنتين.

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، أي: كيف كفرت بالله العظيم «الذي خلقك من تراب»، أي: ابتدأ خلق الإنسان بخلق آدم عليه السلام أبي البشر من طين، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]، فذكّره بأصل خلقه؛ ليعرف قدر نفسه وضعفه، وليعرف تمام قدرة الله على البعث الذي ينكره.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: بخلق بني آدم كلهم من نطفة مني، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ [النجم: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، أي: ثم عدلك وأكمل خلقك، وجعل لك السمع والبصر والفؤاد، وصيرك رجلاً، وأحسن خلقك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧- ٩].

وقوله هنا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية؛ كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس عن يعقوب: «لكنا» بإثبات الألف بعد النون وصلًا، وقرأ الباقون: «لكنَّ» بغير ألف، ولا خلاف في إثباتها

في الوقف اتباعًا للرسم.

أي: لكن أنا هو الله ربي، أعترف له بالربوبية والوحدانية، وأعبده وحده.

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ من الخلق، بل أعبده وحده لاشريك له، وأتبرأمن مقالتك وكفرك.

﴿وَلَوۡلَآ﴾ الواو: عاطفة، و«لولا» حرف تحضيض بمعنى: «هلا»، للتوبيخ.

﴿إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾، أي: حين دخلت حديقتك وبستانك، ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

«ما» اسم شرط جازم، و﴿شَآءَ﴾ فعل الشرط، وجوابه محذوف، تقديره: كان أو وقع.

أو هي: اسم موصول في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر ما شاء الله، فيكون المعنى، قلت: ما شاء الله كان، أو: الأمر ما شاء الله.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أي: لا قوة لي ولا لأحد على إنشاء هذه الجنة، أو القيام بأي عمل إلا بالله وعونه وتوفيقه، أي:هلا فوضت الأمر إلى الله، الذي له القوة جميعًا.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»(١).

قال ابن كثير(٢): «هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله فليقل: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة».

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾، أي: إن احتقرتني لكوني أقل منك مالاً، وأقل منك ولداً، وافتخرت علي بكثرة مالك وولدك.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات- الدعاء إذا علا عقبه ٦٣٨٤، ومسلم في الذكر- استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ١٥٤.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«عسى»: فعل ماض جامد، ﴿رَبِّيٓ﴾ اسمها، ﴿أَن يُؤۡتِيَنِ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب خبر «عسى».

أي: أدعو الله وأرجوه أن يعطيني ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾، أي: أفضل وأحسن منها، في الدنيا والآخرة؛ لأن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من فضله وإحسانه وثوابه وإنعامه؛ لمن آمن به وتوكل عليه، وسأله ورجاه خير من الدنيا وما فيها من متاع الغرور.

﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ الواو: عاطفة، أي: ويرسل على جنتك التي ظننت أنها لا تبيد أبدًا، وافتخرت بها وغرتك.

﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: عذابًا من السماء بمطر عظيم أو صواعق أو غيرذلك، وما جاء من السماء لا يمكن دفعه ولا منعه.

قال ابن كثير[1]: «والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾».

﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾، أي: أرضًا ملساء جرداء، لا تثبت عليها قدم، ولا تنبت شيئًا.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾، أي: ويصير ماؤها غائرًا في الأرض ذاهبًا فيها فلا يوجد فيها ماء، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾، أي: فلن تقدر ﴿لَهُۥ﴾، أي: لهذا الماء بعد غوره ﴿طَلَبٗا﴾، أي: وصولًا، أي: ولن تقدر على الوصول إلى مائها بعد غوره بشتى الوسائل من المعاول وغيرها.

فدعا الله أن يؤتيه ما يستأثر به عليه؛ لأنه احتقره، وأن يتلف جنته لعله يراجع رشده، ويعرف أن الأمر لله فيتوب إليه.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٥٤.

قال السعدي[1]: «وإنما دعا على جنته المؤمن غضبًا لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب ويراجع رشده ويتبصر في أمره».

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، قرأ أبو جعفر وعاصم وروح بفتح التاء والميم: ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾، وقرأ أبو عمرو بضم التاء وإسكان الميم: «بِثُمْرِهِ»، وقرأ الباقون بضم الثاء والميم: «بِثُمُرِهِ».

أي: أصاب ثمره وأمواله عذاب أحاط بها وأهلكها، وأتلفها كلها، فلم يبق منها شيئًا، أرسل الله عليها حسبانًا من السماء؛ استجابة لدعاء صاحبه المؤمن، أو غير ذلك.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، أي: فصار يقلب كفيه ظهرًا لبطن، ويصفقها، ندامة وحسرة وأسفًا وتلهفًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: على الذي أنفق، أو على إنفاقه في هذه الجنة من الأموال الكثيرة الطائلة.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الجملة حالية، أي: وهي ميتة يابسة هامدة على عروشها التي تعرش لتتمدد عليها أغصان الأعناب.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: ويقول نادمًا على إشراكه بربه: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: أتمنى أنني لم أشرك بربي أحدًا.

والندم لا ينفع بعد فوات الأوان، وإذا فات الفوت فلا ينفع الصوت.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾، أي: ولم تكن له جماعة من عشيرة أو ولد كما افتخر واستعز بهم بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: يقدرون على نصرته من دون الله، ويدفعون عنه عذاب الله.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، أي: وما كان بنفسه وقوته منتصرًا ممتنعًا، قادرًا على دفع العذاب عنها، وأنى له أن يُنصر أو ينتصر من عذاب الله، الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنعه مانع؟!

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ٱلْوِلَٰيَةُ» بكسر الواو، أي: الحكم والسلطان والملك لله، وقرأ الباقون بفتح الواو: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، أي: النصرة والغلبة لله، ينصر أولياءه، أو الموالاة لله وحده.

أي: هنالك في ذلك الموقف وذلك الحين، الذي يقع فيه عذاب الله العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة، لله تعالى وحده الحكم والسلطان والملك والنصرة والغلبة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

وفي ذلك الموقف وذلك الحين الموالاة لله وحده، فيرجع كل أحد من مؤمن وكافر إلى الله تعالى، وإلى موالاته تعالى وحده، والخضوع له، كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾، وأنَّى ينفع ذلك؟! كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥]، وقال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠- ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

﴿ٱلْحَقِّ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وخلف بضم القاف: «الْحَقُّ» صفة للولاية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة لله، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ الضمير «هو» يعود إلى الله، أي: هوخيرثوابًا؛ لأنه يثيب على العمل بعشرة أمثاله إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾، أي: عاقبة ومآلًا، أي: أن ولاية الله تعالى وطاعته والعمل بمرضاته هي خير جزاءً، وخير عاقبةً.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ...﴾ الآية.

٢- ضرب المثل لهؤلاء المشركين الذين كفروا نعم الله، وللمؤمنين الذين شكروا نعم الله بهذين الرجلين: صاحب الجنتين الذي كفر نعم الله تعالى، وافتخر واغتر بما آتاه الله، وظن تأبيد جنته، وأنكر البعث، وصاحبه المؤمن الذي وعظه وأنكر عليه كفر نعم الله، واعترف بربوبية الله وإلهيته ولم يشرك بربه أحدًا، فثبته الله تعالى على الإيمان والتوحيد، والتعلق بربه ورجائه الخير والفضل منه، وأحيط بثمر صاحبه وأهلك، فأصبح يقلب كفيه حسرة وندامة على ثمره وماله، ويتمنى أنه لم يشرك بربه أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾.

٣- الابتلاء بالنعم؛ فإن من أسباب غرور صاحب الجنتين وافتخاره على صاحبه وكفره وإنكاره البعث واعتقاده حظوته عند الله: أنْ مَنَّ الله عليه بهاتين الجنتين، وكثرة الثمر والمال.

٤- أن من أفضل الحدائق والبساتين وأنفعها ثمرًا، وأجملها منظرًا، ما كان من شجر الأعناب المحفوفة بنخل، ومن بينهما وخلالهما زرع ونَهَر؛ لأن الله ذكر هاتين الجنتين وما فيهما وما هما عليه من الوصف من باب الامتنان.

٥- أن من معاني الظلم: النقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾، أي: ولم

تنقص، ولا يمكن أن يفسر الظلم في هذه الآية بغير النقص.

٦- إطلاق الصحبة على من كان بينهما أيُّ علاقة وترابط حتى ولو اختلفا في الدين، وجواز الحوار بين المؤمن وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾.

٧- افتخار صاحب الجنتين على صاحبه بكونه أكثر منه مالًا وأعز نفرًا، اغترارًا منه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾﴾.

٨- ظلم صاحب الجنتين لنفسه بالكفر بالله وكفر نعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ الآية.

٩- أن الكفر والمعاصي وكفر النعم ظلم للنفس؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان، يجب أن ينأى بها عن أسباب الهلاك والعذاب، ويحملها على ما فيه صلاحها وسلامتها ونجاتها في الدنيا والآخرة.

١٠- اغتراره بجنته، واعتقاده أنها لن تبيد أبدًا جهلًا منه؛ لقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾﴾.

١١- إنكاره القيامة والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾.

١٢- اعتقاده أن له الحظوة عند الله، مستدلًّا على ذلك جهلًا منه وغرورًا بما أعطاه الله في الدنيا، وأنه إن كان ثمة معاد إلى الله فله خير منها هنالك؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ وكل هذا وما قبله من ظلمه لنفسه.

١٣- إقراره بربوبية الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، ﴿لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ﴾.

١٥- إنكار صاحبه المؤمن عليه كفره بالله الذي خلقه وأعدَّه وأمدَّه، ووعظه له وزجره وتخويفه بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي

خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

١٦- مشروعية إنكار المنكر، ووعظ صاحبه وتخويفه وتحذيره.

١٧- أن أصل خلق بني آدم من تراب بخلق أبيهم، وتناسلهم من نطفة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧-٨].

١٨- الامتنان على بني آدم بخلقهم وإعدادهم وإمدادهم وتسوية خلقهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

١٩- اعتراف الرجل المؤمن بربوبية الله تعالى له، وإخلاصه العبادة له وحده بلا شريك؛ لقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾.

٢١- توبيخ المؤمن لصاحبه على افتخاره بجنته، واغتراره بما آتاه الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾.

٢٢- يشرع لمن أعجبه شيء من مال أو ولد أو غير ذلك له أو لغيره؛ أن يقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ومال وولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيها آفة دون الموت**»؛ وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(١).

وعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأى أحدكم من**

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٥٣٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٠٦٠، والطبراني في الأوسط ٤٢٧٣، وفي الصغير ٥٨٨، وابن السني في عمل اليوم والليلة ٣٥٧، وهو مضعف.

أخيه أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فليبركه؛ فإن العين حق»[١].

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه لا قوة لأحد إلا بالله تعالى؛ ولهذا أمرنا إذا قال المؤذن: «حي على الصلاة، حي على الفلاح» أن نقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

٢٤- احتقار صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن أنه أقل منه مالًا وولدًا؛ لقول المؤمن له: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾.

٢٥- دعاء المؤمن راجيًا ربه أن يعطيه خيرًا من جنة صاحبه، ولا خاب من رجاه سبحانه؛ لقول المؤمن له: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

٢٦- جواز أن يسأل المؤمن أن يعطيه الله خيرًا مما أعطى فلانًا أو مثله.

٢٧- التسلي بما عند الله من الخير عن لذات الدنيا وشهواتها؛ لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾.

٢٨- لا غبطة في المال والولد إذا لم يكونا عونًا على طاعة الله تعالى.

٢٩- دعاء المؤمن على جنة صاحبه الكافر؛ لاحتقاره له، ولعله بتلفها يراجع رشده ويتوب إلى ربه؛ لأنها كانت سبب كفره نعمة الله، وظلمه وافتخاره وغروره وإنكاره البعث، واعتقاده حظوته عند الله؛ لقوله: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾.

٣٠- جواز الدعاء على مال من كان ماله سببًا في ظلمه وطغيانه، وكفره نعمة الله عليه، وتكبره وافتخاره واحتقاره لغيره؛ لعله بهلاك ماله يتوب أو يكف شره.

٣١- إهلاك ثمر صاحب الجنتين وإتلافه، واستجابة دعاء صاحبه عليه، بسبب ظلمه وكفره نعمة الله، وافتخاره وغروره واحتقاره لصاحبه المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾.

٣٢- ندم صاحب الجنة، وتحسره على ما أنفق على جنته بعد أن خوت على عروشها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٤٧، وابن ماجه في الطب ٣٥٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٣٨٥، وأبو داود في الصلاة ٥٢٧، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٣٣- تمنيه أنه لم يشرك بربه أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

قال السعدي[1]: «ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه؛ أن صاحب هذه الجنة تحسنت حاله ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول».

٣٤- أن الظلم وكفر النعم والطغيان والافتخار على الخلق واحتقارهم؛ سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٣٥- أنه لم يكن لصاحب هاتين الجنتين من فئة ينصرونه من دون الله من عشيرة أو ولد، فيمنعون عنه عذاب الله أو يدفعونه، ولم يكن هو منتصرًا من ذلك بقوته بنفسه؛ لأن عذاب الله لا مانع له ولا دافع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

٣٦- أنه حين وقوع العذاب العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة؛ يتبين أن الولاية والنصرة والحكم والسلطان لله الحق، ويرجع إلى موالاته في ذلك الموقف والخضوع له كل مؤمن وكافر؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

٣٧- أن الله عز وجل هو الحق، كما أن له الولاية الحق، سبحانه وتعالى.

٣٨- أن الله عز وجل هو خير ثوابًا وخير عقبًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾.

٣٩- أن ولاية الله تعالى وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار، وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾، أي: واضرب يا محمد للناس، وللمشركين خاصة، الذين اغتروا بالحياة الدنيا، وظنوا أنها لا تفنى، وأنكروا البعث والحساب؛ كحال صاحب الجنتين الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وكحال الذين توعدهم الله بقوله ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، ومن توعد الله بقوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١-١٦]، وبقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٤-١٦].

﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: شبه وصفة الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها وانقضائها كلها، وبالنسبة لحياة كل فرد فيها.

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الكاف للتشبيه، أي: كمثل ماء أنزلناه من السماء، أي: كمطر أنزلناه من السماء.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء: عاطفة، والباء في «به» للسببية، والضمير يعود

إلى «ماء»، أي: فاختلط بسبب ماء المطر نبات الأرض، أي: كثر بسببه نبات الأرض والتفَّ بعضه ببعض من قوة الخصب والازدهار والنماء.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾، أي: صار هامدًا يابسًا متكسرًا متفتتًا.

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، أي: تفرقه وتلقيه وتطرحه الرياح، وتنسفه يمينًا وشمالًا، وهنا وهناك، وإلى كل جهة.

وهذا مثل الحياة الدنيا، تزدهر للإنسان وتزهو له ثم سرعان ما تخمد بموته، أو تزول عنه قبل ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، أي: وكان الله على كل شيء من إحياء النبات وإماتته وإحياء الخلق وإماتتهم وبعثهم وغير ذلك ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قدرة تامة؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

قال ابن القيم: «عدل عن «قادر» إلى «مقتدر»؛ ليشعر بالزيادة على زيادة قدرة الله تعالى والبيان عن عظم شأنه»(١).

وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها واضمحلالها بالماء ينزل من السماء، فتنبت الأرض وتخضر وتزدهر وتتزخرف، ثم يهيج نباتها ويصفر ويكون حطامًا وهشيمًا تذروه الرياح، وهكذا حال عمر الدنيا كلها، وحال حياة الفرد فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢١.

٢١]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: يتزين بهما في الحياة الدنيا، وليس وراء ذلك شيء، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾، «الباقيات» جمع: «باقية»، أي: الأعمال الصالحات التي تبقى للإنسان ولا تفنى، وتصحبه في قبره ويوم حشره، يوم تطاير الصحف ونشرها، ووضع الموازين القسط، ووزن الأعمال، ويبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، من الصلاة والزكاة والصيام والحج، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذكر والاستغفار والتسبيح والتكبير والتحميد والتهليل وغير ذلك؛ قال ﷺ: «**الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(١).

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي: خير جزاءً؛ حيث تضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي: وخير ما يؤمل ويرجى عند الله، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

(١) أخرجه أحمد ١/ ٧٠ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ٤/ ٢٦٨ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

لما زهّد في الدنيا الفانية، ورغب بالأعمال الصالحة الباقية، أتبع ذلك بذكر أهوال القيامة، وحشر الناس جميعًا، وعرضهم على ربهم.

قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتاء وضمها وفتح الياء، ورفع الجبال: «تُسَيَّرُ الجِبَالُ»، وقرأ الباقون بالنون وضمها وكسر الياء وفتح الجبال: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ استئنافية أو عاطفة، و«يوم» مفعول به لفعل محذوف، أي: اذكر يوم، أي: اذكر يوم القيامة وما فيه من الأهوال والشدائد والأمور العظام، من تسيير الجبال، وكونها كالعهن المنفوش، ونسفها وإزالتها عن أماكنها، وجعلها كثيبًا مهيلًا، وهباءً منبثًّا، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: ظاهرة، ممدودة غير كروية، لا شيء يسترها من جبال أو أودية أو شجر أو بناء أو غير ذلك، قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحدًا، بل الخلق كلهم بارزون على ظهرها، لا يخفى على الله منهم شيء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جمعنا جميع الخلق في موقف القيامة، حتى الوحوش والدواب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: فلم نترك منهم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، أي: وعرض الخلائق على ربك يا محمد مصطفين، أي: صفًّا واحدًا أو صفوفًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، وفي الحديث: «**يصف الناس يوم القيامة صفوفًا**»(١)، وفي الحديث الآخر: «**أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومئة صف، أنتم منهم ثمانون صفًّا**»(٢).

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، أي: فيقال لهم ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، وجملة: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ جواب القسم المقدر.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية، أي: لقد جئتمونا مجيئًا كما خلقناكم أول مرة، أي: كحالكم لما خلقناكم أول مرة، لا شيء معكم، أي: بلا مال، ولا أهل، ولا ولد، ولا عشيرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾ [الأنعام: ٩٤].

وفي الحديث: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**»(٣)، أي: كما ولدتهم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٦٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٥٣، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٧، ومسلم في الجنة ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز ٢٠٨١، والترمذي في

أمهاتهم جردًا لا شيء معهم، والمعنى: لقد جئتمونا كحالكم يوم خلقناكم أول مرة، ليس معكم شيء مما خولناكم في الدنيا، وهذا ظاهر الآية، ولا ينافي هذا أن يستدل بها أيضًا على الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

وفي هذا تهديد وتقريع للمنكرين للبعث، وتنديم لهم وتوبيخ على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل زعمتم زعمًا كاذبًا، واعتقدتم اعتقادًا باطلًا:

﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ لبعثكم وحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم، أي: أنكرتم وعد الله ووعيده بالبعث والحساب والجزاء، وها قد رأيتموه.

وهذا يقال للكفار فيناقشون الحساب، ويحاسبون حسابًا عسيرًا، و«**من نوقش الحساب عُذِّب**»، كما قال ﷺ[1]؛ ولهذا ينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين.

أما المؤمنون فيدنى أحدهم من ربه حتى يضع عليه كنفه- أي: ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: «يا فلان، أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[2].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، «الكتاب» اسم جنس، أي: ووضعت كتب الأعمال،

صفة القيامة ٢٤٢٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

أي: أحضرت ونشرت الصحف ودواوين الأعمال التي كتبها الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٧- ١٢].

﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: فترى أيها الرائي وتشاهد ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مرتكبي الجرائم من الكفر والشرك والكبائر والموبقات والمعاصي والآثام.

﴿مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أي: خائفين مما في هذا الكتاب، أي: من الذي كتب في هذا الكتاب من الجرائم والفضائح والأعمال السيئة والأفعال القبيحة التي ارتكبوها، ويتمنون أنهم لم يعطوا كتبهم ولم يروها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥- ٢٧].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من شدة الخوف والوجل: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ «يا» للتنبيه، أي: يا ويلنا ويا حسرتنا على ما فرطنا في أعمارنا، ويا هلكتنا!

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾، «ما» للاستفهام، ومعناه: التعجب، أي: أيُّ شيء لهذا الكتاب؟ أو ما شأن هذا الكتاب؟

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾، أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا عدها وضبطها وأثبتها عددًا وحفظها، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وقدم «صغيرة»؛ لأن إحصاءها أدل على التعجب، ولأنها إذا أحصيت ولم تنس

فالكبيرة من باب أولى، وعطف عليها الكبيرة لإرادة التعميم وتأكيده.

عن سعد بن جنادة ﷺ، قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين، نزل قفرًا من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «**اجمعوا من وجد حطبًا فليأت به**»، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا. فقال النبي ﷺ: «**أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة؛ فإنها محصاة**»(١).

وقد مر عبد الله بن مسعود ﷺ على قوم يعدون حسناتهم بالحصا، فقال: ما هذا الذي تصنعون؟ قالوا: حصا نعد به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء(٢).

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: ووجدوا الذي عملوه، أو وجدوا عملهم ﴿حَاضِرًا﴾، أي: مثبتًا محضرًا لا يستطيعون نفيه وإنكاره، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر المخبآت والضمائر.

وعن عبدالله بن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة**»(٤).

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الخطاب لكل من يصلح له، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: ولا يظلم ربك أحدًا من خلقه، لكمال عدله بل يجازي كلًّا بعمله، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني، فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ١٦١- ١٦٢.

(٢) أخرجه الدارمي في «المسند» ١/ ١٢٠ (٢١١- ٥)، وأخرجه في «تاريخ واسط» ص١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في الحيل ٦٩٦٦، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٣٥.

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٣٨، والترمذي في الفتن ٢١٩١.

[آل عمران: ١٨٢]، [الأنفال: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

فيجازي عز وجل الكفرة والمجرمين بالعدل، ويجازي أولياءه بالمغفرة والصفح والفضل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝﴾ [النساء: ٤٩]، [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: ١٢٤].

وفي الحديث: «**إنه ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- بيان حقارة الحياة الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، والتحذير من الاغترار بها، وأنها بسرعة فنائها أشبه بالماء ينزل من السماء، فيختلط به نبات الأرض، فيصير هشيمًا يابسًا تفرقه الرياح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾.

٢- بلوغ القرآن الكريم الغاية في البلاغة والبيان في ضرب الأمثال؛ فإن في تمثيل الحياة الدنيا وعمر الإنسان فيها بالمطر ينزل من السماء، فيختلط به نبات الأرض، ثم يصير هشيمًا تذروه الرياح؛ أبلغ مثال وأدقه وأوضحه وأبلغه في التأثير، وإقامة الحجة، على من كان ذا عقل وعلم، والإنسان يعيش هذا وذاك، فيرى بأم عينيه المطر ينزل، فينبت النبات ويزهو، ثم سرعان ما يكون هشيمًا تذروه الرياح، ويرى عمره والأعمار سرعان ما تتصرم، وصدق الله العظيم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٣- قدرة الله تعالى التامة على الإحياء والإماتة وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﵟٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ﵞ.

٤- التحذير من الافتتان بالمال والبنين، والانشغال بهما عن الاستعداد للآخرة، وبيان أنهما مجرد زينة الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﵟٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاﵞ، كما قال تعالى: ﵟوَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞﵞ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﵟإِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞﵞ [التغابن: ١٥].

وقال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»[١].

٥- أن الباقيات الصالحات- وهن الأعمال الصالحة- خير ثوابًا وأجرًا، وخير يؤمل ويرجى عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﵟوَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ﵞ.

٦- أن الأعمال الصالحة هي التي تبقى ولا تفنى، ويبقى ثوابها وأجرها؛ ولهذا قال ﷺ: «**يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**»[٢].

٧- الترغيب في الاستزادة من الأعمال الصالحة؛ لأن الله وصفها بـ«الباقيات الصالحات» ووعد عليها بالثواب والأجر العظيم، وأنها خير ما يؤمل ويرجى عند الله تعالى، وشتان شتان بين من انشغل بما يفنى من زينة الحياة الدنيا من الأموال والأولاد وغير ذلك، وبين من آثر ما يبقى وما هو أرجى له عند الله.

٨- بيان عظيم يوم القيامة وشدة أهواله؛ تخويفًا وتحذيرًا من ذلك، وحثًّا على الاستعداد له، ففيه تُسيَّر الجبال الثوابت الراسيات، وتظهر الأرض بارزة لا شيء يسترها، من جبال أو أودية أو أشجار أو غير ذلك، بعد أن تسير الجبال، ثم تكون قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا؛ لقوله تعالى: ﵟوَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗﵞ.

٩- حشر جميع الخلائق وجمعهم يوم القيامة دون ترك أحد منهم؛ لقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾.

١٠- عرض الخلائق على الله عز وجل صفًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٢- مجيء الخلائق يوم القيامة كحالهم لما خلقهم أول مرة، لا شيء معهم مما خُوِّلوه في الدنيا من الأموال والأولاد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾.

١٣- قدرة الله تعالى التامة على إعادة الخلق خلقًا آخر كما بدأهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

١٤- التزهيد في الدنيا ومتاعها الزائل، وما فيها من زينة الأموال والأولاد وغير ذلك؛ لأن هذا كله يذهب ويفنى، ولا يبقى للمرء إلا العمل الصالح.

١٥- إنكار الكفار البعث والمعاد والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾.

١٦- تهديد الكفار ووعيدهم وتقريعهم على كفرهم وإنكارهم البعث؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾.

١٧- وضع كتب الأعمال، ونشر الصحف التي كتبتها الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون، فسعيد آخذ كتابه بيمينه، وشقي آخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

١٨- إشفاق المجرمين وخوفهم مما في كتبهم؛ لعلمهم بما سطر فيها من قبيح الأقوال، وسيئ الأفعال؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

١٩- تحسر المجرمين وندامتهم- ولات ساعة مندم- على ما سطروا على أنفسهم في كتبهم من الجرائم والموبقات، وتعجبهم من تسجيل أعمالهم عليهم صغيرها وكبيرها؛ لقولهم: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾.

٢٠- أن المجرمين والكفار في ذلك اليوم ينطقون بألسنتهم ويتكلمون في بعض

المواقف.

٢١- إحصاء وإثبات جميع ما عمله الخلائق وضبطه في كتب أعمالهم، صغيره وكبيره، قليله وكثيره، دقيقه وجليله.

٢٢- إحضار وإثبات جميع ما عمله المجرمون فلا يستطيعون نفيه وإنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾.

٢٣- إثبات كمال عدل الله تعالى في محاسبته الخلائق ومجازاتهم، وأنه لا يظلم أحدًا من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾..

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا، أي: حين ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: لجميع الملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ احترامًا وإكرامًا له، وتشريفًا وتعظيمًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كلهم، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣].

أي: سجدوا تكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا لآدم، وطاعة وامتثالًا لأمر الله عز وجل.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾، «إلا» أداة استثناء.

﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾، أي: في أصل خلقه؛ لأنه خلق من مارج من نار، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾ [الرحمن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٧]، وقال ﷺ: «**وخلق الجان من مارج من نار**»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «خانه أصلُه؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة».

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾، أي: فخرج عن أمر ربه وعن طاعته، فلم يسجد لآدم تكبرًا منه على آدم وافتخارًا بأصله، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ [ص: ٧٥- ٧٦].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ بعدما ذكر بعداوة إبليس لآدم عليه السلام، وعدم سجوده له مع الملائكة، وفسقه وخروجه عن أمر ربه وطاعته، أنكر على المشركين اتخاذه وذريته أولياء من دون الله، مع عداوته لله تعالى ولأبيهم آدم عليه السلام.

الاستفهام في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ للإنكار والتقريع والتوبيخ، والتسفيه للمشركين والمكذبين وكل من خالف أمر الله.

أي: أتجعلون إبليس ونسله من شياطين الجن ومن تبعهم من شياطين الإنس ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ توالونهم وتطيعونهم وتتبعونهم؟ أي: بدلًا عني؛ لأن من والى إبليس وذريته فليس بموالٍ لله، وإن زعم ذلك، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى**

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٦، وأحمد ٦/ ١٥٣، ١٦٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ١٦٤.

الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[(١)].

فلا تجتمع موالاة الله تعالى ومحبته وطاعته، مع موالاة عدوه إبليس ومحبته وطاعته، وكما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديعُ

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ[(٢)]

﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الجملة حالية، وفيها تعليل للنهي عن موالاتهم، و«العدو» اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أي: وقد تبين لكم من عداوتهم لله تعالى، وعداوتهم لأبيكم؛ أنهم لكم عدو، فكيف توالونهم؟

قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾ [يس: ٥٩-٦٢].

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، «بئس» فعل ماضٍ جامد يفيد الذم، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك ﴿بَدَلًا﴾ تمييز.

أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من اتخاذ إبليس وذريته أولياء، وهم سبب كل شر، بدلًا عن ولاية الله الذي في ولايته كل خير.

وفي الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أن تقديم ولاية الشيطان على ولاية الرحمن من أظلم الظلم، وأن من فعل ذلك فهو ظالم أشد الظلم.

قوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الكامل في اللغة» ٢/ ٤.

كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قرأ أبو جعفر: «مَا أَشْهَدْنَاهُمْ» بالنون والألف على الجمع للعظمة، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾، أي: ما أشهدت إبليس وذريته الذين اتخذهم المشركون أولياء من دوني ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ما أحضرتهم وما جعلتهم شهداء ولا شركاء في خلق السموات والأرض، بل تفردت بخلقهما.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: ولا أشهدتهم خلق أنفسهم، أي: خلق أنفس بعضهم.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قرأ أبو جعفر بفتح التاء: «وَمَا كُنْتَ» خطابًا للنبي ﷺ، وهو خبر مستعمل في النهي، وقرأ الباقون بضم التاء: ﴿وَمَا كُنتُ﴾.

أي: وما كنت جاعل المضلين، وهم إبليس وذريته وأعوانه من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وقال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠- ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

﴿عَضُدًا﴾، أي: عونًا لي؛ لتمام قدرتي وغناي عنهم، ولا أنصارًا ينصرون ديني، لأنهم ضالون، فكيف يُتَّخذون أولياء من دوني وهم ما خلقوا شيئًا، ولا شاركوا في الخلق، بل ولا شاهدوه؟!

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، قرأ حمزة بالنون: «نَقُولُ»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَقُولُ﴾.

أي: واذكر يوم يقول عز وجل للمشركين؛ تقريعًا وتوبيخًا لهم على رؤوس الأشهاد:

﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾، أي: ادعوا شركائي ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾، أي: الذين ادعيتم في الدنيا كذبًا وزورًا أنهم شركاء لي، وعبدتموهم من دوني.

أي: ادعوهم ليشفعوا لكم، وينقذوكم مما أنتم فيه من الهول والعذاب.

﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾، أي: نادَوْا شركاءهم واستغاثوا بهم.

﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، أي: فلم يجيبوهم، والسين والتاء للمبالغة، و«استجاب» أبلغ من «أجاب»، أي: فلم يجيبوهم؛ لأن هؤلاء الشركاء إنما هم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، أو ممن عبدهم المشركون من الملائكة والأنبياء والصالحين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: ٨١- ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ [يونس: ٢٨- ٢٩].

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾، أي: مهلكًا، والموبق: المهلك، وفي الحديث قوله ﷺ: **«كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»**[1]، أي: أو مهلكها، وقوله ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**[2]، أي: المهلكات.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في

أي: وجعلنا بينهم موبقًا ومهلكًا عظيمًا، فلا يستطيعون الوصول إلى شركائهم، ولا يستطيع شركاؤهم الوصول إليهم. أو: جعلنا بينهم موبقًا ومهلكًا في جهنم، يهلكون فيه جميعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﭬ، قال: «هو واد عميق، فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة»[١].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

لكن حمل الآية على هذا المعنى بعيد، والأظهر الأول بدلالة السياق.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾، أي: رأوها عين اليقين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٧]، وذلك عندما يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها[٢].

﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، أي: أيقنوا أنهم واقعون فيها لا محالة؛ لعلمهم بما ارتكبوا من أسباب ورودها، وهذا من باب تعجيل الهم والحزن والألم المعنوي لهم؛ لأن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز؛ ولهذا قيل: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: مخلصًا وطريقًا يعدل بهم عنها، ومكانًا

الوصايا ٣٦٧١، من حديث أبي هريرة ﭬ.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ١٦٦، ١٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٣، من حديث عبدالله بن مسعود ﭬ.

ينصرفون إليه؛ لينجوا منها، بل لا بد لهم منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾، أي: وضحنا وبينا ونوّعنا ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: في هذا القرآن العظيم ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: للناس جميعًا.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: نوّعنا في هذا القرآن من كل مثل، لإثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث، وبيان حال الدنيا والآخرة وغير ذلك؛ لإيضاح وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، والترغيب والترهيب، وذكر ما أعد للمؤمنين من الجنات والنعيم المقيم، وما أعد للكافرين من النار والعذاب الأليم، إلى غير ذلك مما فيه إقامة الحجة على الخلق، إعذارًا وإنذارًا.

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، أي: ومع التصريف والبيان في القرآن للناس من كل مثل وبيان الحق من الباطل غاية البيان، كان الإنسان أكثر شيء جدلًا.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلًا، فقال: «**ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾**»(١).

ومعنى قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، أي: كثير المجادلة والمخاصمة بالباطل، والمعارضة للحق، والمخالفة لأمر الله، والخروج عن طاعته؛ بسبب ظلمه وجهله.

فكل المخلوقات انقادت لأمر الله، واهتدت لما خلقت له، وأطاعت أمره، ما عدا كثيرًا من الناس، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين، ما روي فيمن قام الليل أجمع حتى أصبح ٧٧٥، والنسائي في قيام الليل ١٦١١، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

ويا سبحان الله! كل المخلوقات تهتدي لما خلقت له، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، أي: هداه لما خلق له، ما عدا كثيرًا من بني آدم الذين كرمهم الله وميزهم بالعقل على سائر المخلوقات، ولله في ذلك الحكمة البالغة، وصدق الله العظيم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، نعم هم أضل من الأنعام؛ لأنهم لم يهتدوا لما خلقوا له، وقد اهتدت الأنعام لما خلقت له، تحوط أولادها، وتغذيهم بلبنها، وبها تجلب لهم من الطعام والشراب، وتذهب لمراعيها وتعود إلى مراحها، تغدو خماصًا وتروح بطانًا، تسكن وتنام بعد غروب الشمس، وتستيقظ عند طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، تعتاد لما عودت عليه من حمل الأمتعة، والتنقل من مكان إلى مكان، وتعرف طريقها إلى ذلك، وإلى محالبها، وإلى موارد المياه، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ۝٥٥ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ۝٥٦﴾:

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾، «أن» والفعل «يؤمنوا» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«منع»، أي: وما منع الناس الإيمان، ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين جاءهم الهدى على ألسنة الرسل، وفيها أنزل عليهم من الكتب.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾، أي: يطلبوا منه المغفرة ويتوبوا إليه وينيبوا له.

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿مَنَعَ﴾.

﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: سنة الله تعالى وطريقته في المكذبين الأولين بأخذهم بالعذاب المفاجئ واستئصالهم، والمعنى: وما منع الناس من الإيمان واستغفار ربهم

والتوبة والإنابة إليه؛ إذ جاءهم الهدى، إلا انتظار أن تأتيهم سنة الله في المكذبين قبلهم بأخذهم بالعذاب المفاجئ، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، «أو» عاطفة، ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ منصوب عطفًا على ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾.

﴿قُبُلًا﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم بضم القاف والباء: ﴿قُبُلًا﴾، وقرأ الباقون بكسر القاف وفتح الباء: «قِبَلًا» حال.

أي: أو طلبهم أن يأتيهم العذاب الذي توعدوا به مقابلة ومواجهة، يرونه عيانًا، ويشاهدونه، كما قال قوم شعيب له عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال قوم لوط له عليه السلام: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وكما قالت قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: ٦-٧]، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، «إلا» أداة حصر.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: إلا حال كونهم مبشرين ومنذرين، أي: مبشرين لمن آمن وأطاع الله ورسله بالسعادة في الدنيا والآخرة، والجنة، ومنذرين لمن كفر وعصى الله ورسله بالشقاء في الدنيا والآخرة، والنار.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: ويخاصم الذين كفروا وينازعون ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾، والباطل: ما ليس بحق، وهو الزائل الذاهب.

﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يزيلوا ويبطلوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وهيهات أن يحصل لهم ذلك.

والضمير في «به» يعود إلى الباطل، أي: ليدحضوا بالباطل الحق، أو يعود إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، أي: ليدحضوا

بجدالهم بالباطل الحق.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ قرأ حمزة بسكون الزَّاي: ﴿هزْءًا﴾، وقرأ الباقون بضمها: ﴿هُزُوٗا﴾، أي: جعلوا ما بعثت به رسلي من الآيات البينات، وما أيدتهم به من المعجزات، والحجج والبراهين القاطعات، وما حذروا وخوفوا به من العذاب والعقوبات ﴿هُزُوٗا﴾، أي: استهزاءً وسخرية، فسخروا بالرسل وما جاؤوا به من الآيات والمعجزات، وكذبوهم أشد التكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٥٧﴾:

لما بين مجادلة الذين كفروا بالباطل ليزيلوا به الحق، واتخاذهم آيات الله والنذر هزوًا، أتبع ذلك ببيان شدة ظلم من قبل ذلك فأعرض عن آيات ربه بعد أن ذكر بها.

قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، الواو: استئنافية، و«من» اسم استفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أشد ظلمًا ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾، أي: من الذي وعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الكونية والشرعية.

﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ الفاء للتعقيب، إشارة إلى سرعة إعراضه عن آيات الله دون تأمل أو تفكر، أي: فأعرض عنها بقلبه، ونسيها ولم يصغ لها ولا ألقى لها بالًا.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، أي: ونسي الذي قدمته يداه من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ولم يعرضها على ميزان الحق ليعلم أهي صالحة أم طالحة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨٢]، [الأنفال: ٥١].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾، أي: إنا جعلنا كونًا وقدرًا، أي: صيرنا على قلوبهم أغطية ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: لئلا يفقهوه، أي: لئلا يفهموا هذا القرآن، أي: تمنعهم من فهم القرآن.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، أي: وجعلنا في آذانهم صممًا وثقلًا معنويًّا بحيث لا ينتفعون بما يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: لا يسمعون بها سماع انتفاع، وإن كانوا يسمعون بها سماعًا حسيًّا.

﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: ومهما دعوتهم إلى الهدى.

﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ لأن الله طبع على قلوبهم، وختم عليها، وجعل عليها أكنة، فلا يفهمون ما يدعون إليه، وجعل في آذانهم وقرًا وصممًا معنويًّا فلا ينتفعون بما يسمعون، وذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم وضلالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

قال ابن القيم[1]:

والله مـا خـوفي الـذنوب فإنهـا ... لعـلى طريـق العفـو والغفـران
لكـنما أخشـى انسـلاخ القلـب مـن ... تحكـيم هـذا الـوحي والقـرآن

وقد أكد نفي هداية هذا المعرض عن آيات الله لما قدمت يداه، والذي ختم الله على قلبه وجعل في آذانه وقرًا، بثلاثة مؤكدات هي: حرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط، وحرف النفي والتوكيد «لن»، ولفظ «أبدًا» المؤكد لمعنى «لن».

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾:

قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لجميع ذنوب عباده، كما قال تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) في «النونية» ص٣٥٥.

و«الغفور»: اسم من أسماء الله عز وجل، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، أي: صاحب الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمَّت كل حي، كما قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ورحمته عزو وجل تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا﴾، «لو» حرف شرط غير جازم، وهي حرف امتناع لامتناع، والباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لو يعاقبهم بسبب الذي كسبوه، أو بسبب كسبهم من الكفر والإعراض عن آيات الله ونسيان ما قدمت أيديهم.

﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ اللام رابطة لجواب «لو»، أي: لعجل لهم العذاب وأهلكهم ولم يؤخره، ولم يمهلهم، ولكنه عز وجل حليم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله ولا يهمله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: أنهم وإن أخر عنهم العذاب فلن يسلموا منه، بل لهم موعد للعذاب الدنيوي إن استمروا على كفرهم، وهذا وعيد وتهديد بما حصل لهم بعد ذلك في بدر، كما أن لهم موعدًا للعذاب الأخروي يوم القيامة لا بد لهم منه؛ ولهذا قال:

﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾، أي: لن يجدوا من دونه مكانا يَئِلون إليه، ولا مخلصًا وملجأً، وليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل، ولا مفر ولا مهرب.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المراد بالقرى: أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١]، أي: تلك الأمم السابقة والقرون الخالية الظالمة بالكفر

والشرك وتكذيب الرسل، كعاد وثمود ومدين وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم، وأشار إليهم بـ«تلك»؛ لأن هذه الأمم كالحاضرة يرى مشركو قريش آثارهم، ويسمعون أخبارهم، ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، أي: أخذناهم بأنواع العقوبات وعذبناهم واستأصلناهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، أي: حين ظلموا بتكذيب الرسل والكفر والشرك.

﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام: «لِمَهْلَكِهِمْ»، وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام: «لِمُهْلَكِهِمْ».

أي: لم نعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلناهم، وجعلنا لوقت هلاكهم ﴿مَّوۡعِدٗا﴾، أي: وقتًا معلومًا، وأجلًا محدودًا، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون، فلما حان أجلهم أهلكناهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]، [النحل: ٦١].

وفي هذا تحذير وتهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، أي: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، ولا تغتروا بإمهالكم، وترقبوا أخذ الله لكم، فلهلاككم وقت معلوم، وأجل محدود.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير هذه الأمة بأمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم، وامتثالهم لذلك إلا إبليس؛ ليعلموا شدة عداوة إبليس لله عز وجل، ولأبيهم آدم ولهم، ويحذروا من طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ الآية.

٢- فضيلة آدم عليه السلام وشرفه عند ربه؛ لهذا أمر عز وجل الملائكة بالسجود له تشريفًا له وتكريمًا وتعظيمًا.

٣- إثبات وجود الملائكة، وسرعة امتثالهم لأمر الله تعالى، ومبادرتهم بالسجود لآدم، طاعة لله تعالى، وتعظيمًا لآدم عليه السلام.

٤- امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام مخالفة لأمر الله، واستكبارًا على آدم.

٥- أن إبليس كان من الجن في أصل خلقه، خلق من نار؛ ولهذا خانه أصله ففسق عن أمر ربه وخرج عن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق بما فيهم إبليس؛ لقوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

٧- رجوع كل شيء لأصله غالبًا، وكل إناء بالذي فيه ينضح، ولا يجنى من الشوك العنب.

٨- الإنكار والتقريع للمشركين، الذين اتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله، وهم لهم عدو، لعداوتهم لله تعالى، وعداوتهم لأبيهم آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾.

٩- أن من اتخذ إبليس وذريته أولياء فهو عدو لله، وإن زعم موالاة الله؛ لأن موالاة الله لا تجتمع مع موالاة عدوه؛ ولهذا قال: ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾.

١٠- بئس وقبح للظالمين بدلًا اتخاذهم إبليس وذريته أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

١١- أن من أظلم الظلم اختيار ولاية الشيطان، وتقديمها على ولاية الرحمن، وأن من فعل ذلك فهو ظالم أشد الظلم، بدلالة الإظهار في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ مقام الإضمار.

١٢- عدم استحقاق إبليس وذريته اتخاذهم أولياء من دون الله؛ لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، فلم يشهدهم الله خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولم يكن بحاجة إلى اتخاذهم أعوانًا؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

١٣- تفرده عز وجل بخلق السموات والأرض، وخلق الجن والإنس وجميع الخلق، وعظيم قدرته وقوته وغناه، وعدم حاجته إلى أحد من الخلق.

١٤- توبيخ المشركين يوم القيامة بأمره عز وجل لهم بنداء شركائه الذين زعموهم والاستغاثة بهم؛ لفضحهم وبيان بطلان زعمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾.

١٥- دعوة المشركين شركاءهم في الدنيا، واستغاثتهم بهم في ذلك اليوم؛ ليشفعوا لهم، وعدم استجابتهم لهم؛ لأنهم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا يملكون

لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾.

١٦- الحيلولة بين المشركين وبين الوصول إلى شركائهم، والفصل بينهم بموبق ومهلك من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، ويحتمل أن يكون المعنى: وجمعنا بينهم بمهلك من النار يهلكون فيه جميعًا.

١٧- رؤية المجرمين النار في موقف القيامة عيانًا وتيقنهم أنهم واقعون فيها لا محالة، لما قدموه من موجبات ورودها من سيئ الأعمال وقبيح الفعال؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾.

١٨- لا مناص ولا محيد للمجرمين عن جهنم، ولا طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

١٩- إقامة الحجة بتصريف الأمثلة في القرآن، وتنويعها للناس، وتوضيحها؛ لبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحرام من الحلال، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

٢٠- أن الإنسان أكثر شيء جدلًا، يجادل بالباطل؛ ليدحض به الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

٢١- أنه ما منع الناس من الإيمان واستغفار ربهم إلا انتظار أن تأتيهم سنة الله تعالى في الأولين قبلهم بمفاجأتهم بالعذاب وإهلاكهم، أو طلبهم أن يأتيهم العذاب مقابلة وعيانًا يشاهدونه قبل وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين للنبي ﷺ.

٢٢- اتباع كثير من الناس سنن من كان قبلهم، ولو كانوا على ضلال وباطل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

٢٣- أن سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين ثابتة في الأولين والآخرين لا تتغير ولا تتبدل.

٢٤- التحذير من تأخير الإيمان والاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى حتى حلول العذاب وغلق الباب.

٢٥- أن الله عز وجل إنما أرسل الرسل للبشارة للمؤمنين بالجنة، والنذارة للكافرين من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٢٦- مجادلة الذين كفروا ومخاصمتهم بالباطل ليزيلوا به الحق، وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

٢٧- اتخاذهم آيات الله وما أنذروا وخوفوا به من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة استهزاءً وسخريةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾.

٢٨- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن ذكر ووعظ بآيات ربه، ثم تولى وأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فذلك لأنه قد عصى الله على بصيرة.

٢٩- التحذير من الإعراض عن آيات الله، وعدم التأمل والتفكر فيها، ونسيان المرء ما قدمت يداه، وعدم التوبة والاستغفار.

٣٠- معاقبة المكذبين بسبب تكذيبهم، بجعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في آذانهم، فلا يفهمون القرآن، ولا يسمعونه سماع تدبر وانتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

٣١- أن من قدر الله عليهم الكفر، وجعل على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقرًا، فلا سبيل إلى هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى: «الغفور»، وصفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

٣٤- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٣٥- إمهال الله تعالى للمكذبين، وعدم مؤاخذتهم بما كسبوا بتعجيل العذاب لهم، وهذا من آثار مغفرته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا

كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾.

٣٦- أن للمكذبين بآيات الله المعرضين عنها موعدًا لعذابهم محددًا معلومًا لا يتقدم ولا يتأخر، لا محيد لهم عنه ولا محيص، ولا ملجأ لهم منه ولا مهرب، فلا يغتروا بإمهال الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

٣٧- تسلية النبي ﷺ تجاه إعراض قومه عما جاءهم به من الآيات وكفرهم وضلالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة.

٣٨- تحذير المشركين المكذبين أن يحل بهم ما حل بالأمم الظالمة قبلهم من الهلاك؛ بسبب ظلمهم، الذين أمهلوا ولم يهملوا، بل جعل الله لوقت إهلاكهم موعدًا؛ أهلكهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة: قصة موسى وفتاه والخضر؛ بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب رضي الله عنهما؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ فقال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت، فهو ثَمَّ. فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه «يوشع بن نون»، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا؛ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه:** ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾. **فقال: فكان للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا. فقال موسى:** ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾،

قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبًا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا، قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْلٍ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ۝٧٣﴾. قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ قال: وهذه أشد من الأولى. قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال: مائل- فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، قال: فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة

صالحة غصبًا»، وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ قال موسى عليه السلام هذا؛ حرصًا منه على لقاء هذا العبد، الذي أوحى الله لموسى: أنه في مجمع البحرين من هو أكثر منه علمًا؛ ليتعلم منه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾، أي: واذكر إذ قال موسى نبي الله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾، أي: لخادمه يوشع بن نون، وكان تبعًا له، وقد طُويَ ذكره بعد أن لقيا الخضر، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليهما السلام، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾، أي: لا أزال أتابع المسير.

﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن أبلغ مجمع البحرين، أي: ملتقى البحرين؛ لأن الله أوحى إليه، كما في حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ: «أن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك».

﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، أي: حقبًا من الزمان، أي: ولو أن أمضي زمنًا طويلًا، أي: إلى أن أبلغ ذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾، أي: فلما بلغ موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، أي: مجمع بين البحرين، أي: ملتقاهما.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي أمر الله موسى بأخذه معه لما قال موسى: «يا رب فكيف لي به؟»، أي: بهذا العبد الذي هو أعلم مني؟ قال: تأخذ معك حوتًا، وفي رواية: «حوتًا مالحًا» فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل».

وأضاف النسيان إليهما مع أن الناسي هوالفتى؛ لأن شأنهما واحد.

والمراد بالنسيان هنا الذهول والغفلة، لا الترك، أي: ذهلا عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٥، ٤٧٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٨٠، والترمذي في التفسير ٣١٤٩، وأحمد ٥/ ١١٨- ١١٩.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، «سربًا» مفعول به ثانٍ لـ«اتخذ»، أي: اضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾، أي: طريقه في البحر ﴿سَرَبٗا﴾، أي: كالسرب والنفق، حيث أمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ موسى وفتاه مجمع البحرين.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾، أي: لغلامه وخادمه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، أي: أحضر لنا غداءنا، والغداء هو: طعام النهار، مشتق من كلمة «الغدوة»؛ لأنه يؤكل وقت الغدوة.

﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾، أي: من سفرنا هذا الذي جاوزنا فيه المكان ﴿نَصَبٗا﴾، أي: مشقة وتعبًا.

قال ﷺ: «**ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به**». وذلك والله أعلم؛ لأن الشوق للوصول إليه سهل لهما الطريق، فلما جاوزا غايتهما وجدا مس التعب، وهذا من آيات الله، ومن العلامات التى جعلها الله دلالة لموسى عليه السلام على وجود مطلبه، ومن أجل ألا يتمادیا في البعد عن المكان.

قال ابن القيم: «لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب ومسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»[1].

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ لما قال موسى لفتاه المقالة السابقة، قال له فتاه: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ الاستفهام للتعجب، أي: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة؟ وهي صخرة في مجمع البحرين، لما أتياها وضعا رؤوسهما فناما، فانفلت هنالك الحوت.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾، أي: نسيت حفظه وتفقده، فاضطرب في المكتل وخرج منه وسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٣.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، أي: وما أنساني أن أخبرك بما جرى للحوت إلا الشيطان؛ لقوله ﷺ: «**فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت**».

﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، «أن» والفعل «أذكره» في تأويل مصدر في محل نصب بدل اشتمال من الهاء في «أنسانيه»، أي: وما أنساني ذكر ما جرى للحوت لك إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾، أي: واتخذ طريقه في البحر عجبًا، و«عجبًا» مفعول به ثانٍ لـ«اتخذ»، أو مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: محل عجب، أي: كيف اضطرب الحوت في المكتل وسقط منه، وسلك طريقه في البحر بعد أن كان ميتًا زمنًا طويلًا؟! وكيف كان هذا الماء السيّال بمرور الحوت به طريقًا سربًا، مجوفًا خاليًا من الماء، فكان هذا الطريق للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ أي:قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ الإشارة إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت، أي: هذا الذي كنا نطلب من بلوغ المكان الذي نفقد فيه الحوت ونجد فيه الخضر.

﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، أي: فرجع موسى وفتاه يقصان ويتتبعان ويقفوان آثار مشيهما؛ لئلا يخطئا الطريق الأول، حتى انتهيا إلى الصخرة، في المكان الذي انفلت فيه الحوت.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾، أي: فلما وصل موسى وفتاه إلى الصخرة وجدا ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ وهو الخضر عليه السلام، ووصفه بالعبودية تشريفًا له.

وفي الحديث: «**قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبًا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا**».

عن أبي هريرة عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة**[1] **بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**»[1].

ومن هنا طوي ذكر فتى موسى، فلم يرد له بعدُ ذكر؛ لأن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وما كان بينهما.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أعطيناه رحمة عظيمة واسعة من عندنا، ونكر «رحمة» للتعظيم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، أي: وعلمناه من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ نكر للتعظيم، أي: علمًا واسعًا لم يطلع عليه موسى عليه السلام، كما جاء في الحديث أن الخضر قال: «**يا موسى، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه**».

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام للاعتبار والاستفادة بما فيها من العبر والمواعظ والحكم والفوائد والأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾، أي: واذكر إذ قال موسى لفتاه إلى آخر القصة.

٢- فضيلة موسى عليه السلام، وحرصه على الاستزادة من العلم، وقوة عزيمته في ذلك؛ لقوله لفتاه: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

٣- جواز تسمية الخادم: فتى لمن يخدمه، وجواز اصطحابه في السفر لكفاية المؤن وطلب الراحة.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»[٢].

٤- فضيلة طلب العلم، والرحلة في طلبه، وتحمل المشاق.

٥- مشروعية العزم والحزم في معالي الأمور، وعدم التردد أو الفتور، كما في طلب العلم والاستزادة منه، ونحو ذلك.

٦- البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة علم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث الخضر مع موسى عليه السلام ٣٤٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥.

٧- جواز إخبار الخادم ونحوه ممن هم بصحبة المرء عما ينوي القيام به؛ توطينًا لهم على ذلك، وليستعدوا له، ما لم يكن في ذلك محذور؛ لقول موسى لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، كما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهته، مع أن عادته التورية، وذلك حسب المصلحة.

٨- حكمة الله تعالى في نسيان موسى وفتاه لما بلغا مجمع البحرين حوتهما، واتخاذه طريقه في البحر سربًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾.

٩- حكمة الله تعالى في عدم إحساس موسى عليه السلام وفتاه بالجوع والنصب طيلة سيرهما إلا بعد مجاوزتهما المكان الذي أمر الله به؛ مما يدل على أن الموافق للأمر يعان ما لا يعان غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾.

١٠- إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

١١- جواز إخبار الإنسان عما يجده من نصب أو جوع أو ألم، إذا لم يكن ذلك على سبيل التسخط والجزع من قدر الله.

١٢- تذكر فتى موسى بعد أن طلب منه موسى الإتيان بغدائهما وشكواه النصب، نسيانَه أن يخبر موسى بما جرى للحوت حين أويا إلى الصخرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾.

١٣- أن الشيطان من أعظم أسباب النسيان وعدم الذكر لما يحتاج الإنسان إلى ذكره؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾.

١٤- أن ما جرى للحوت- من اضطرابه وحياته واتخاذه في البحر طريقًا سربًا- هو أمر في غاية العجب، فكان ذلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾.

١٥- أن فقدان الحوت هو مبتغى موسى عليه السلام؛ لأن ذلك هو العلامة على مكان الخضر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾.

١٦- رجوع موسى وفتاه على آثارهما يقصانها إلى مكان الصخرة حيث فقد الحوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾.

١٧- وصولهما إلى الخضر ووجودهما له؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ الآية.

١٨- تشريف الله عز وجل للخضر بوصفه بالعبودية الخاصة له عز وجل.

١٩- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾.

٢٠- فضيلة الخضر، ومنة الله تعالى العظيمة عليه بإيتائه رحمة واسعة من عنده، وتعليمه علمًا واسعًا من لدنه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى نبوة الخضر، واستدلوا بهذه الآية، وبقوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾.

وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه لم يكن نبيًّا بل كان عبدًا من عباد الله الصالحين أعطاه الله بعض الكرامات؛ ليبين عز وجل لموسى عليه السلام أنه يفوته من العلم الشيء الكثير، وقد مات الخضر قبل بعثة النبي ﷺ.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ۝٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ۝٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ۝٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ۝٧٤ * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ۝٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ۝٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ۝٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ۝٨٢﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: قال موسى للخضر- بعد أن عرف كل منهما الآخر-: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ سؤال تلطف وتواضع وأدب، أي: هل أصحبك وأرافقك؟ وتأمل هذا الأدب من موسى مع الخضر مع أنه أفضل من الخضر، وكان عند الله وجيهًا؛ وذلك لأنه سيأخذ منه علماً لايعلمه موسى، وهكذا ينبغي أن يكون تلطف المتعلم وتواضعه بين يدي معلمه وشيخه.

قال الشافعي[1]:

تَصَبَّـر عـلى مـر الجفـا مـن معلـم ... فــإن رســوخ العلــم في نبراتــه
ومــن لم يــذق ذل الـتعلم ســاعة ... تجـرع كـأس الجهـل طـول حياتـه

وقال الآخر:

إن المعلــــم والطبيــــب كلـــــيهما ... لاينصـــحان إذا همـــا لم يكرمـــا[1]

﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، أي: لتعلمني، كما جاء في الحديث: «**أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا**».

﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين: «رَشَدًا».

وقرأ الباقون بضم الراء وإسكان الشين: ﴿رُشْدًا﴾.

«ما» موصولة، أي: من الذي علمت رشدًا، أي: ما أسترشد وأهتدي به من علم وخير؛ لأن العلم هو طريق الرشد وحسن التصرف في الدين والدنيا.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾، أي: قال الخضر مجيبًا لطلب موسى اتباعه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

وفي الحديث أيضًا؛ أنه قال بعد هذا: «**يا موسى، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه**».

وقد أكد قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بحرف التوكيد «إن»، وبحرف النفي «لن»، وبعموم «صبرًا» فهي نكرة في سياق النفي، فتعم، وذلك كله لتأكيد تحقق مضمونها، وهو ضيق ذرع موسى وعدم صبره معه.

أي: لا أمنعك من اتباعي، ولكنك لن تقدر على الصبر معي؛ لأنك سترى مني أفعالًا ظاهرها منكر، لكن باطنها معروف، قد خصني الله بعلمه دونك.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، و«ما» موصولة، أي: لا يمكن أن تصبر على الذي ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، أي: لم تحط به علمًا، أي: كيف تصبر على ما يخفى عليك علمه؟! ودليل ا لخضرعلى أن موسى لم يحط بذلك خبرًا قول موسى قبل هذا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فهذا

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص٦٨، «العقد التليد في اختصار الدر النضيد» ص١٤٦.

يدل على أنه لا علم له بها عند الخضر.

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ «صابرا»: مفعول ثانٍ لـ«وجد».

﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾، «أمرًا» نكرة في سياق النفي، أي: ولا أعصي لك أيَّ أمر، ولا أخالفك في شيء أبدًا، وهذا الذي قاله موسى حسب اعتقاده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، ولكنه ما صبر.

وقد علق قوله بالمشيئة فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ ابتعادًا عن الاغترار بنفسه، والإعجاب بها، وحتى لا يلحقه تبعة أو إثم إن لم يصبر، كما قال إسماعيل لأبيه إبراهيم عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢].

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون: «فَلَا تَسْأَلَنِّي»، وقرأ الباقون بإسكان اللام وتخفيف النون: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾.

أي: قال الخضر لموسى مشارطًا له: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾، أي: فإن صحبتني ورافقتني- لإلحاحك عليَّ بذلك- فلا تبتدئني بسؤالي عن شيء مما أفعله، أي: لاتستنكر علي شيئًا مما أفعله.

﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾، أي: حتى أبدأك به قبل أن تسألني، وأخبرك بحقيقة الأمر ووجه الحكمة فيه. وهذا أيضًا من آداب المتعلم مع العالم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣﴾:

﴿فَٱنطَلَقَا﴾، أي: موسى والخضر، أي: سارا ومشيا معًا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾، أي: إلى غاية إذا ركبا في السفينة ﴿خَرَقَهَا﴾، أي: خرقها الخضر بقلعه لوحًا من ألواحها بعد أن دخلت لجة البحر، فلم يصبر موسى ولم يتمالك نفسه أن قال منكرًا على الخضر:

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء وفتحها وفتح الراء «لِيَغْرَقَ» و«أَهْلُهَا» بالرفع، وقرأ الباقون بالتاء وضمها وكسر الراء ونصب أهلها: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ للإنكار والتعجب، واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن تُغرق أهلها، كما في قول الشاعر:

له ملك ينادي كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب[1]

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد جئت، أي: ارتكبت وفعلت ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾، أي: شيئًا عظيمًا فظيعًا، وأَمِر الشيء، أو أَمِر أَمْرُه: بمعنى عَظُم.

كما قال أبو سفيان حين سأله هرقل عن النبي ﷺ وبين له حاله وصفاته، فقال هرقل: إن كان كما تقول فسيملك موضع قدمي هاتين. فقال أبوسفيان لما رجع إلى قومه: أَمِر أَمرُ ابن أبي كبشة! إنه ليخافه ملك بني الأصفر[2]. يعني النبي ﷺ، ومعنى «أمر أمره»، أي: عظم أمره.

واستعظم موسى عليه السلام فعل الخضر لما فيه من تعريض السفينة للتلف، وأهلها للغرق، من غير ذنب، مع ما في ذلك من كفران نعمة حملهم لهما بلا نول.

وفي الحديث: «**فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها! لقد جئت شيئًا إمرًا!**».

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: قال الخضر مذكرًا موسى بما تقدم من الشرط. والاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير.

أي: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: فوقع كما قلت لك، وكما أخبرتك، ﴿قَالَ﴾ موسى للخضر معتذرًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، «ما» مصدرية،

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص٢٣.

(٢) سبق تخريجه.

أي: لا تؤاخذني بنسياني للشرط، وعدم صبري.

وفي الحديث: قال ﷺ: «**كانت الأولى من موسى نسيانًا**».

وكان سبب نسيانه عظم الأمر وخطورة الموقف، حيث خشي أن تغرق السفينة وهم على ظهرها، مما أنساه الشرط السابق.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، أي: ولا تكلفني ولا تحملني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾، أي: من شأني ﴿عُسْرًا﴾، أي: ما يتعسر ويثقل عليَّ، أي: لا تشدد وتضيق عليَّ، وسامحني واصفح عني، فأقر بعدم صبره، واعتذر بالنسيان، وطلب المسامحة والصفح حيث هي أول مرة، وكأن في هذا توطئة لما بعده.

وفي الحديث في آخر خبر السفينة: «**قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة**».

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾، أي: فعذر الخضر موسى بما وقع منه من النسيان وسامحه، وانطلقا يمشيان على الساحل، بعد أن رست السفينة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾، كما جاء في الحديث: «**إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله**».

وفي الحديث: «**الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا**»[1].

فرأى موسى أمرًا منكرًا في نفسه، فلم يصبر ولم يتمالك نفسه أن قال منكرًا على الخضر قتله الغلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر بغير ألف بعد الزاي وتشديد الياء: ﴿زَكِيَّةً﴾، وقرأ الباقون بالألف وتخفيف الياء: «زَاكِيَةً».

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

والاستفهام للإنكار، وفيه معنى التعجب، أي: طاهرة، صغيرة لم تبلغ الحنث، ولم تصل إلى حد التكليف.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير نفس قتلها هذا الغلام فيقتل بها قصاصًا.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، أي: والله لقد جئت منكرًا عظيمًا أشد من الأول.

وقال في خرق السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، أي: أمرًا عظيمًا من حيث عموم ضرره لمن على السفينة، لكنه متوقع فقط، ولهذا لم يحصل، فلم تغرق السفينة.

وقال في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، أي: منكرًا عظيمًا من جهة تحققه؛ لأنه قتل فعلًا.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار، لكنه أشد من الأول؛ لزيادة قوله: «لك»، أي: فقال له الخضر منكرًا ومعاتبًا ومذكرًا بالشرط الأول: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ.﴾ الآية.

قال في الحديث: «**وهذه أشد من الأولى**»، ولهذا أكد هنا بزيادة «لك» دون قصة السفينة؛ لزيادة الإنكار؛ لأن الأولى كانت نسيانًا، وهذه عدم صبر؛ ولهذا قال موسى مشترطًا على نفسه لما رأى أنه لا عذر له:

﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾، أي: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة، أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾، أي: فامنعني من صحبتك.

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بضم الدال وتخفيف النون: «مِنْ لَدُنِي»، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد النون: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾.

«قد» حرف تحقيق، أي: قد بلغت من عندي عذرًا، أي: قد وصلت إلى حال أعذرك فيها بمنعك إياي أن أصحبك؛ لأن موسى أنكر عليه مرتين، مع أنه التزم له ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد أن عذره للمرة الثانية، وشارطه موسى المشارطة الثانية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾، أي: إلى غاية إذا أتيا أهل قرية، وجاء في بعض روايات حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئامًا»[1]، أي: بخلاء.

﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾، أي: طلبا طعامًا من أهلها على سبيل الضيافة.

﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: امتنعوا أن يضيفوهما، وهذا نقص في الإيمان؛ لقوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخرفليكرم ضيفه**»[2].

﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾، أي: في القرية ﴿جِدَارًا﴾ مائلًا معيبًا، ﴿يُرِيدُ أَن﴾، أي: يوشك أن يسقط وينهدم، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضر، أي: رده إلى حالة الاستقامة، إما ببنائه بناءً معتادًا، أو أن الله أعطاه قوةً فأقام الجدار بيده فاستقام، كما قيل.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير: بتخفيف التاء وكسر الخاء من غير ألف وصل: «لَتَخِذْتَ»، وقرأ الباقون بتشديد التاء وفتح الخاء وألف وصل: ﴿لَتَّخَذۡتَ﴾.

أي: قال موسى للخضر برفق ولطف ولين: لو شئت لأخذت على إقامة هذا الجدار أجرًا، أي: عوضًا عن إقامته؛ لأنهم لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، فكان ينبغي ألا تعمل لهم بدون أجر. فلم يعاتبه الخضر، بل استعذر منه قائلًا:

﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾، أي: هذا السؤال منك فرقة ما بيني وبينك فلا صحبة بيني وبينك؛ لأنك قلت في المرة السابقة قبل هذا: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا﴾، وها قد سألتني المرة الثالثة.

عن ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ، قال: كان النبي ﷺ إذا دعا بدأ بنفسه، فقال: «**رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر لرأى من صاحبه العجب، ولكنه قال:** ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا﴾»[3].

---

(١) أخرجها الإمام أحمد ٥/ ١١٩.

(٢) يأتي تخريجه قريبا.

(٣) أخرجه أبو داود في الحروف والقراءات ٣٩٨٤، والطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٣٤٥.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾، السين للتحقيق والقرب، أي: سأخبرك عن قرب قبل المفارقة ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ بتفسير وبيان وجه ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي: بما تؤول إليه عاقبة الذي فعلته أنا من الأفعال التي لم تستطع على ترك المسألة عنها، وعن النكير عليّ فيها صبرًا.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

هذا تأويل وتفسير ما أشكل على موسى فأنكر ظاهره من أفعال الخضر «الثلاثة»: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار بلا أجر، وقد أظهر الله الخضر على باطنه، فأبان ذلك لموسى بقوله:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

«ال» في ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾ للعهد الذكري، أي: أما السفينة التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ فقراء، و«مساكين» جمع، فهم ثلاثة فأكثر.

﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: يكتسبون الرزق عليها في البحر، فيحملون عليها الناس وبضائعهم من جزيرة إلى أخرى، أو يصيدون عليها السمك، وهي رأس مالهم، وسبب رزقهم، مما يوجب الرقة لهم، والرأفة بهم.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أردت»، أي: أردت عيبها، أي: أردت أن أجعل فيها عيبًا بقصد مني، فخرقتها.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾، أي: أمامهم وقدامهم، كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦].

وقال لبيد(١):

ألـيس ورائـي إن تـراءت منيتـي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وهكذا جاء في قراءة لابن عباس رضي الله عنهما: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ»(٢).

ويحتمل أن يكون معنى ﴿وَرَآءَهُم﴾، أي: يطلبهم.

﴿مَّلِكٌ﴾ ظالم، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة سالمة من العيب، بدليل قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وهكذا جاء في قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما: «كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ»(٣).

﴿غَصْبًا﴾ الغصب: أخذ الشيء قهرًا بغير حق، أي: وكان أمامهم وفي طريقهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة تمر عليه ﴿غَصْبًا﴾، أي: قهرًا وظلمًا بغير حق؛ ولهذا خرقتها؛ ليكون فيها عيب تسلم بسببه من ذلك الملك الظالم، فتبقى لأصحابها المساكين يطلبون الرزق عليها.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾:

أي: وأما الغلام الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: كان أبوه وأمه مؤمنين، أي: وكان هو كافرًا؛ كما جاء في حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ **فطبع يوم طبع كافرًا**»(٤).

﴿فَخَشِينَآ﴾ الخشية: أشد الخوف، أي: خفنا خوفًا شديدًا.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«خشينا»، أي: خشينا أن يكلفهما ويحملهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، الطغيان: مجاوزة الحد في معصية الله ومخالفة أمره، والكفر: الجحود، أي: خشينا أن يحملهما على متابعته ومجاوزة

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٥٧.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٨٠، والترمذي في التفسير ٣١٤٩.

(٣) أخرجها عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٨٠، وأبو داود في الحروف والقراءات ٤٧٠٦، والترمذي ٣١٥٠.

أمر الله طغيانًا وكفرًا، إما بسبب محبتهما له، أو حاجتهما إليه، أو غير ذلك، أي: أن قتلي له لأجل سلامة دين أبويه المؤمنين.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بتشديد الدال: «أَنْ يُبَدِّلَهما»، وقرأ الباقون بالتخفيف: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أردنا».

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، أي: خيرًا منه طهارة وصلاحًا في الدين.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي: أقرب رحمة بوالديه، وصلة لهما، وبرًّا بهما.

أي: فأردنا بقتله أن يبدلهما ربهما، أي: أن يتفضل عليهما بمن هو أزكى في الدين وأوصل للرحم.

قيل: أبدلهما الله بجارية، وقيل: بولد ذكر. وفي قوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ما قد يقوي أنها جارية؛ لأن البنت أرحم بوالديها من حيث العموم.

قال قتادة: «وقد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله؛ فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾، أي: الذي كان يريد أن ينقض فأقمته بلا أجر.

﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾، أي: لغلامين صغيرين، ﴿يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قد مات أبوهما، مما يدعو للعطف عليهما ومساعدتهما بإقامة جدارهما، وعدم أخذ الأجر على ذلك.

واليتيم: من مات أبوه قبل أن يبلغ، كما قال ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١).

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، «الكنز»: المال المدفون، أي: وكان تحت هذا الجدار مال مدفون في الأرض لهما.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، أي: وكان أبوهما رجلًا صالحًا، فحفظهما الله بسبب صلاح أبيهما.

قال ابن عباس ﷺ: «حفظا بصلاح أبيهما وما ذكر منهما صلاحًا»(١).

فاجتمع فيهما كونهما يتيمين يستوجبان الرأفة والعطف والرحمة، وكون أبيهما رجلًا صالحًا، وصلاح الآباء له أثر في صلاح أحوال الأبناء في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

وقد روي أن هذا هو الأب السابع لهما، وهذا موافق لعموم الأدلة الدالة على أن الجد يسمى أبًا مهما علا، وفضل الله واسع.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾، أي: فأراد ربك يا موسى ﴿أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أراد»، أي: فأراد ربك بلوغهما أشدهما، أي: فأراد ربك أن يكبر اليتيمان ويبلغا قوتهما ورشدهما.

﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت هذا الجدار، الذي كان إصلاحه وإقامته سببًا لعدم التعرض للكنز تحته حتى بلوغهما؛ لأنه لو انقض الجدار لظهر الكنز، وأخذه الناس.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ «رحمة»: مفعول لأجله منصوب، أي: هذا الذي فعلته في الأحوال الثلاث رحمة من ربك يا موسى بمن ذكر من المساكين أصحاب السفينة، وأبوي الغلام، والغلامين اليتيمين في المدينة.

﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾، أي: وما فعلت الذي فعلته في الأحوال الثلاث عن أمري، أي: من تلقاء نفسي وابتداء من رأيي أو ذكاءً مني، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به، وإلهامه وتوفيقه لي؛ لأن هذا الشيء فوق ما يدركه البشر.

﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، أي: ذلك الذي أخبرتك به وفسرته لك ﴿تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، أي: هو تفسير الذي لم تستطع عليه صبرًا، وضقت

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٣٦٦.

به ذرعًا، والذي وعدتك به بقولي: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾.

قال ابن كثير[1]: «ولما فسره وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِع﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قويًّا ثقيلًا، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾، وهو: الصعود، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾، وهو أشق من ذلك، فقابل كلًّا بما يناسبه لفظًا ومعنى».

الفوائد والأحكام:

١- حسن أدب موسى عليه السلام، وتلطفه مع الخضر في سؤاله له أن يصحبه؛ لقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وهكذا ينبغي للمتعلم حسن الأدب مع معلمه.

٢- حرص موسى عليه السلام على الاستزادة من العلم؛ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

٣- أن عند الخضر من العلم مما علمه الله ما ليس عند موسى؛ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، كما أن عند موسى من العلم مما علمه الله ما ليس عند الخضر، كما جاء في الحديث.

٤- إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: مما علمك الله.

٥- تواضع موسى عليه السلام، فلم يمنعه- وهو ثالث أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام- أن يسعى في الاستزادة إلى علمه بما عند الخضر من علم، وهكذا ينبغي تواضع الفاضل في تعلم علم لا يعلمه ممن هو دونه، وبلا غضاضة.

٦- أن العلم والاستزادة منه من أسباب الرشد، وحسن التصرف في أمور الدين والدنيا؛ لقوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: ما أسترشد به وأهتدي به إلى الخير.

٧- معرفة الخضر عليه السلام بما منحه الله من علم لا يعلمه موسى، أن موسى لن يستطيع معه صبرًا، وذلك لأنه سيفعل أفعالًا ظاهرها منكر لا يصبر عليها موسى،

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٨٤.

بل يضيق بها ذرعًا وينكرها، مع أن باطنها وعاقبتها خير لا يعلمه موسى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾.

٨- إظهار الخضر لموسى العذر والسبب في عدم صبره، وأنه لا يمكن أن يصبر على ما لم يحط به خبرًا، عله أن يعدل عن الإلحاح في طلب صحبته؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾.

٩- عزم موسى عليه السلام وثقته بأنه سيصبر مع الخضر، ولا يخالفه في أيّ أمر؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾.

١٠- أن العلم لا يحصل إلا بالصبر على صحبة العلماء، وثني الركب في حلق العلم، وطول الدراسة، وعدم السأم والملل، والحزم والعزم في الطلب، وتقدير هذا الأمر قدره، قال الشاعر:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرا[1]

وقال الشافعي[2]:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تأويلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

وقال المتنبي[3]:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

فمن استعمل الصبر ولازمه أدرك مأموله في كل أمر سعى إليه بإذن الله.

١١- معرفة موسى عليه السلام بربه، وما يجب له، واحترازه في تعليق صبره مع الخضر وعدم عصيانه له أمرًا بمشيئة الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وهكذا ينبغي ألا يقول الإنسان لشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول: إن

---

(١) البيت لرجل من بني أسد، كما في «ديوان الحماسة» ٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: «ديوانه» ص١١٣.

(٣) انظر: «ديوانه» ص٢/ ٢٧٢.

شاء الله.

١٢- اشتراط الخضر على موسى إن اتبعه ألا يسأله عن شيء ابتداء حتى يكون هو الذي يحدث له منه ذكرًا، وقبوله لهذا الشرط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ فَٱنطَلَقَا﴾، أي: متصاحبين متفقين على هذا الشرط.

١٣- التأني والتثبت وعدم المبادرة في الحكم على الأشياء، حتى يعرف المراد منها والمقصود.

١٤- أن للمعلم إذا رأى المصلحة ألا يبتدئه المتعلم بالسؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة أولى بالاتباع.

١٥- جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

١٦- خرق الخضر للسفينة التي ركباها بعد انطلاقهما معًا، وهذا منكر ظاهر عظيم؛ لما فيه من تعريضها للتلف وتعريض أهلها للغرق، ومبادرة موسى لإنكار ذلك، وعدم صبره؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

١٧- وجوب إنكار المنكر الظاهر بما يناسب من الوسائل باليد أو باللسان أو بالقلب؛ لفعل موسى عليه السلام في الأحوال الثلاث.

١٨- أن ما فعله موسى عليه السلام من الإنكار على الخضر وعدم الصبر مخالف لما اتفقا عليه، ومصداق قول الخضر له بداية: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ لهذا ذكّره به.

١٩- أن ما فعله موسى عليه السلام في هذه المرة من إنكاره على الخضر خرق السفينة كان نسيانًا منه؛ لهذا طلب عدم المؤاخذة به؛ لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾، وفي الحديث قال ﷺ: «**كانت الأولى من موسى نسيانًا**».

٢٠- التجاوز وعدم المؤاخذة على النسيان، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن

نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي صحيح مسلم: «**قال الله: قد فعلت**»(١).

وسواء كان ذلك في حق الله أو في حقوق العباد.

٢١- طلب موسى من الخضر عليهما السلام التسامح معه، والرفق به، وألا يكلفه ما يتعسر عليه؛ لقوله: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾.

وهذا الحوار من المتعلم مع معلمه مستحسن؛ ليبين فيه مدى قدرته واستطاعته، بحيث لا يكلفه معلمه ما يعسر عليه.

٢٢- ينبغي أن يؤخذ من أخلاق الناس ومعاملتهم العفو وما تيسر دون إرهاقهم والمشقة عليهم، مما يسبب النفور والسآمة.

٢٣- قبول الخضر اعتذار موسى بالنسيان، وانطلاقهما مرة ثانية متصاحبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾.

٢٤- قتل الخضر للغلام الذي لقياه في طريقهما، وهذا أشد من الأول؛ لهذا لم يصبر موسى، بل بادر بإنكاره أشد من الأول؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾.

٢٥- تحريم قتل النفس الزكية المعصومة بغير حق من قصاص ونحوه، وأن ذلك من أعظم المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾.

٢٦- أن القصاص ثابت في الشرائع السابقة؛ لقوله: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾، لكن هل يؤخذ من الآية القصاص من القاتل وإن كان غير بالغ؟ هذا ليس بلازم، فيحتمل كون هذا الغلام بالغًا، ويحتمل أن ذلك كان مشروعا فيمن سبق، أما في شريعتنا فلايقاد ممن دون البلوغ.

٢٧- أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها في الأحكام الدنيوية؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة، وقتل الغلام، وكل منهما منكر، وموسى لا يسعه السكوت عنها.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٨- تذكير الخضر مرة ثانية لموسى بما قاله له أولًا من عدم استطاعته معه الصبر وبما شرط عليه، وإنكاره عليه أشد من الأول؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾؛ لقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالمرة الثانية.

٢٩- مبادرة موسى عليه السلام بالاشتراط على نفسه، أنه إن سأل الخضر بعد هذه المرة فهو في حل من ترك مصاحبته، وأنه قد بلغ منه غاية العذر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

٣٠- فضيلة موسى عليه السلام واعترافه بما حصل منه من عدم الصبر، وإنصافه واعتذاره للخضر في ترك مصاحبته، وشهادته له بأنه قد بلغ منه غاية العذر.

٣١- فيما اتصف به موسى عليه السلام في هذا الموقف ثلاث صفات تحتذى: الأولى: الاعتراف بالخطأ أو التقصير، والثانية: الإنصاف وقول الحق ولو كان على النفس، والثالثة: الإقرار لمن قام بما عليه حتى بلغ غاية العذر بإعذاره.

وكل من هذه الصفات يحتاج القيام بها إلى مجاهدة عظيمة للنفس.

٣٢- قبول الخضر ما اشترط موسى على نفسه؛ أنه إن سأله عن شيء بعد هذه المرة فلا يصاحبه لبلوغه العذر منه، وانطلاقهما متصاحبين للمرة الثالثة؛ لقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾.

٣٣- بخل أهل القرية التي مر بها موسى والخضر عليهما السلام، فاستطعما أهلها، وعدم قيامهم بواجب ضيافتهما؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

٣٤- وجوب إكرام الضيف وإضافته إذا نزل بأحد من أهل البلد، كما قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»(١).

٣٥- إقامة الخضر للجدار- الذي وجده هو وموسى يريد أن ينقض- بلا أجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧، وأبوداود في الأدب ٥١٥٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٦- إثبات الإرادة للجدار والجماد؛ لقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾.

وكما قال ﷺ: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**»، وكما في حنين الجذع إليه، وتسبيح الطعام بين يديه(١)، وغير ذلك.

٣٧- عدم صبر موسى، ومساءلته للخضر للمرة الثالثة، التي شرط موسى أنها نهاية المصاحبة بينهما، وغاية العذر للخضر في ترك مصاحبته، وذلك بلوم موسى للخضر، لماذا لم يأخذ على إقامته الجدار أجرًا؟ خصوصًا وأن أهل هذه القرية أبوا أن يضيفوهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

٣٨- مفارقة الخضر لموسى بعد أن أعذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، ويؤخذ من هذا عدم مفارقة الصاحب لصاحبه حتى يعذر منه، وأن موافقة الصاحب لصاحبه فيما لا محذور فيه سبب لبقاء الصحبة، وأن عدم موافقته سبب لانقطاعها.

٣٩- إخبار الخضر لموسى بتأويل وتفسير ما لم يستطع عليه صبرًا، وبادر إلى إنكاره من أفعال الخضر؛ لقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وفي هذا بيان الخضر وجه الحكمة فيما فعل، ونوع من الاعتذار لموسى في إنكاره تلك الأفعال؛ لأن ظاهرها منكر.

٤٠- أن سبب خرق الخضر للسفينة وعيبها؛ لتبقى لأصحابها المساكين الذين يعملون عليها في البحر، وتسلم من ذلك الملك الغاشم الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا؛ لقوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾.

٤١- أن العمل في البحر يجوز كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم.

٤٢- مشروعية العطف على المساكين ومساعدتهم والدفاع عنهم وعن حقوقهم.

٤٣- أن المسكين قد يملك بعض المال؛ لأن الله سمى مُلَّاك السفينة المذكورة:

---

(١) سبق تخريجها.

مساكين وهم يملكون سفينة.

٤٤- إثبات الإرادة للإنسان والاختيار؛ لقول الخضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾.

٤٥- ربما صحت الأبدان بالعلل، فخرق السفينة وعيبها كان سببًا لسلامتها، قال المتنبي[1]:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحَّتِ الأجسام بالعلل

٤٦- أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة يجوز ولو بلا إذنه، حتى ولو ترتب على ذلك إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة ليحصل فيها عيب، فتسلم من غصب الملك الظالم.

٤٧- قتل الخضر للغلام بسبب كفره، وخشية أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانًا وكفرًا؛ لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

٤٨- حفظ الله تعالى لأوليائه المؤمنين، وعنايته بهم، ودفاعه عنهم، وتقديره الخير لهم، والتسخير لخدمتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

٤٩- دفع أكبر المفسدتين بارتكاب ما دونها، وتقديم أعظم المصلحتين على ما دونها، فقتل الغلام مفسدة، لكن بقاءه حتى يفتن أبويه أعظم من ذلك، ويؤخذ من هذا أنه يقتل الكافر خوفًا من أن ينشر كفره في الناس.

٥٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمَا﴾ ﴿رَبُّكَ﴾.

٥١- أن الأولاد قد يكونون فتنة لوالديهم؛ فقد يحملونهم على الكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٥٢- أن سبب إقامة الخضر للجدار الذي يريد أن ينقض، وبلا أجرة: كونه لغلامين يتيمين في المدينة، يستحقان العطف والرحمة والمساعدة، وكان تحته كنز لهما،

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٣٩.

ولو سقط هذا الجدار ربما عثر على كنزهما، وكون أبيهما رجلًا صالحًا، فأقامه ليبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

٥٣- إطلاق المدينة على القرية؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، ثم قال هنا: ﴿لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣﴾ [محمد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، أي: مكة والطائف.

٥٤- أن لصلاح الآباء أثرًا في صلاح الأبناء وحفظهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

٥٥- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، وهي بمعنى: المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

٥٦- استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه قبل هذا بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلى الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

٥٧- عناية الله عز وجل بالأيتام، والحث على حفظ حقوقهم، ودفع الظلم والأذى عنهم.

٥٨- أن ما فعله الخضر في الأحوال الثلاث من خرق السفينة لتبقى لأصحابها المساكين وتسلم من أن يأخذها الملك غصبًا، ومن قتل الغلام لئلا يرهق أبويه المؤمنين طغيانًا وكفرًا، ومن إقامة الجدار ليكون سببًا في حفظ كنز اليتيمين إلى غاية بلوغهما، كل ذلك من رحمة الله تعالى؛ لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٥٩- إثبات رحمة الله تعالى المتعدية إلى عباده؛ لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٦٠- أن ما فعله الخضر من خرق السفينة، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، لم يفعله من تلقاء نفسه، وإنما بأمر الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

٦١- ختم الكلام بمثل ما بدئ به من باب التأكيد، وليكون كالطابع على الكلام؛ لقول الخضر في ختام تأويل الآيات: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وقد قال في أولها: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

٦٢- مقابلة الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، ففي أول الآيات قبل أن يبين تأويل ما فعل وكان الأمر ما زال ثقيلًا قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل: ﴿تَسْتَطِع﴾، فلما بينه ووضحه وظهر وبان وخف الأمر قال: ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأخف بالأخف: ﴿تَسْطِع﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة: «قصة ذي القرنين».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، أي: ويسألك يا محمد أهل الكتاب والمشركون ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، أي: عن صاحب القرنين، وهو ملك طوّاف صالح عادل، ملك وطاف بين المشرق والمغرب، سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب. قيل: إنه على عهد إبراهيم عليه السلام، وأنه طاف بالبيت. وقيل: إنه كان من ملوك الصين.

﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ السين لتحقيق الوعد، و«من» تبعيضية، أي: قل لهم سأقرأ وأقص عليكم من أحواله ما يُتذكر فيه، ويكون عبرة وعظة لمن يتذكر ويعتبر.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ملكناه في الأرض وقويناه وأيدناه وأعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، دانت له البلاد، فملك مشارق الأرض ومغاربها، وخضعت له ملوك الأرض، وخدمته جميع الأمم من العرب والعجم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، أي: وأعطيناه من كل شيء يحتاج إليه في الوصول إلى مراده ﴿سَبَبًا﴾، أي: علمًا ومعرفة ومعونة وقدرة وقوة وطريقًا يصل به إلى ما يريد، فيسرنا له الأسباب والطرق والوسائل لفتح البلدان، وقهر الأعداء، وإذلال أهل الكفر والشرك.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بقطع الهمزة وإسكان التاء هنا وفي الموضعين بعده: ﴿فَأَتْبَعَ﴾، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وتشديد التاء: «فَاتَّبَعَ».

والمعنى: فأخذ بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها واستثمرها بجد وحزم وعزم واتبع السبب الموصل إلى مقصوده وجال في الأرض، وسلك طريقًا باتجاه المغرب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي: حتى إذا وصل مكان مغرب الشمس؛ حيث يلوح في الأفق أنه لا أرض وراءه، أي: بعد أن وصل إلى نهاية الأرض اليابسة، وانتهى إلى البحر.

﴿وَجَدَهَا﴾، أي: شاهدها ورآها في نظره، أي: في نظر العين.

﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر ويعقوب وحفص بغير ألف بعد الحاء، وهمز الياء: ﴿حَمِئَةٍ﴾، وقرأ الباقون بالألف وفتح الياء من غير همز: «حَامِيَةٍ»، أي: في عين ذات طين أسود حارة، وهي أرض البحر؛ لأن الماء إذا مكث طويلًا في الأرض صارت سوداء.

والمعنى: رآها في نظره كأنها تغرب في عين حمئة، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين الأفق الغربي ماء، يرى الشمس كأنها تغرب في سواد الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع، وهي أكبر من هذه العين الحمئة، بل أكبر من الأرض، وهي تدور على الأرض.

قال الشاعر:

بلـغ المشـارق والمغـارب يبتغـي أسـباب أمـر مـن حكـيم مرشـد
فـرأى مغيـب الشـمس عنـد غروبهـا في عـين ذي خلـب وثـأط حرمـد[1]

قال ابن كثير[2]: «أي: وجد الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه».

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾، أي: عند العين الحمئة، وهوالبحر ﴿قَوۡمٗا﴾، أي: أمة عظيمة من بني آدم مكنه الله منهم وأظفره بهم.

﴿قُلۡنَا﴾، أي: قلنا له بعد أن مكناه من أولئك القوم وأظفرناه بهم، مخيرين له بالحكم فيهم:

﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾، «إما» في الموضعين حرف تخيير أو تقسيم، أي: أنت مخير في هؤلاء القوم: إما أن تعذبهم بالقتل والسبي ونحو ذلك، وهذا يدل على أنهم كفار أو فساق، ولو لم يكونوا كذلك لم يرخص له بتعذيبهم.

﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾، أي: وإما أن تحسن إليهم بالمن والفداء ونحو ذلك.

وإنما خيره الله بين قتلهم أو الإحسان إليهم؛ لتمام عقله وعدله.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، «أما» حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«مَن» اسم موصول أيضًا في الموضعين، أي: أما الذي ظلم، أي: بالشرك والكفر، واستمر على ذلك؛ لقوله بعده: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ الفاء: واقعة في جواب الشرط «أما»؛ لاقترانه بـ«سوف»، أي: فسوف نعذبه بالقتل والسبي ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾، أي: عذابًا عظيمًا فظيعًا في

---

(١) البيتان لأمية، وهما في «ديوانه» صـ٢٦، ويقال: هي لـ«تبع» انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٨. و«ذي خلب»: الطين، و«ثأط»: الحمأة، و«حرمد»: الأسود. انظر: «اللسان» مادة: «خلب»، «ثأط»، «حرمد».

(٢) في «تفسيره» ٥/ ١٨٧.

نار جهنم ينكره المعذَّب من شدته وقوته، فيجمع له بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة؛ لأن الكافر لا تطهره العقوبة، بخلاف المسلم فإن العقوبة تطهير له؛ كما جاء في الحديث: «**فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له**»[(١)]. وفي حديث ماعز قال: «أريد أن تطهرني»[(١)].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجملة شرطية كسابقتها، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بالنصب والتنوين، وكسره للساكنين: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقرأ الباقون برفع «جزاء» وإضافته إلى «الحسنى»: «جَزَاءُ الْحُسْنَى».

أي: أما الذي آمن بقلبه بالله تعالى وبما أوجب الله الإيمان به، أي: وعمل عملًا صالحًا بجوارحه، خالصًا لله، موافقًا لشرعه، ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: فله المثوبة الحسنة في الدارين، والجنة في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقد فسر ﷺ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ بالنظر إلى وجه الله الكريم[(١)].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ الجملة معطوفة على جملة جو اب الشرط، والسين للاستقبال، أي: وسنقول له من أمرنا قولًا وأمرًا يسرًا، فنلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة.

فتوعد من ظلم بأمرين: أن يعذبه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا. ووعد المؤمن بأمرين: مجازاته بالحسنى، وأن يعامله باليسر والسهولة.

وبدأ بوعيد الكافر؛ لأن أكثرهم - والله أعلم - كفار. وقدم فيه عذاب الدنيا؛ لأنه قبل عذاب الآخرة، وأيسر منه، ولأن الكافر يخاف من عذاب الدنيا أشد من عذاب الآخرة؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة.

وأما المؤمن فبدأ بوعده بثواب الله في الجنة، ثم ذكر المعاملة له باليسر في الدنيا؛ لأن المؤمن هدفه ومقصوده الوصول إلى الجنة.

وبهذا يتبين ما كان عليه ذو القرنين من الصلاح والعدل والعلم بالسياسة الشرعية

---

(١) سبق تخريجه.

في معاملة كل أحد بما يليق بحاله، وموافقة مرضاة الله تعالى في حكمه فيهم، فاستحق بذلك هذا الثناء والمدح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾، أي: ثم سلك طريقًا، فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وأخضع كل ما مر به من البلاد، ودان له كل من فيها من الأمم، وحكم فيهم بحكمه العدل فيمن قبلهم؛ لأن الله مكنه في الأرض كلها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي: إلى غاية أن بلغ مطلع الشمس من الأرض من جهة الشرق.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾، أي: لم نجعل لهم من دونها بناءً يكنهم ويسترهم منها، ولا أشجارًا تظلهم وتقيهم حرها، أو أن الشمس دائمًا عندهم لا تغرب غروبًا يذكر كما يوجد في بعض البلدان.

وإنما طاف ذو القرنين ما بين مغرب الشمس ومشرقها؛ لأن عمارة الأرض تكون نحو المشرق والمغرب، والسكان يتبعون الشمس من المشرق إلى المغرب أو من المغرب إلى المشرق، أما الشمال والجنوب فأقصى كل منهما ثلج ليس فيه سكان؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث: «**إن الله زوى لي الأرض فرايت مشارقها ومغاربها**»(١).

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾، أي: كذلك مكنا له في الأرض وهيأنا له أسباب ذلك، فأخذ بتلك الأسباب، فملك البلاد، ونفذ حكمه في العباد.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾، «قد» حرف تحقيق، و«ما» موصولة، أي: وقد اطلعنا وأحطنا بالذي عنده من الأسباب العظيمة، وسعة الملك والخير، وحسن التدبير والعدل، وسائر أحواله حيثما توجه وسار.

﴿خُبْرًا﴾، أي: علمًا تامًّا بأحواله كلها باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، دقيقها وجليلها.

---

(١) سبق تخريجه.

والخبر: العلم والإحاطة بالخبر والشيء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، أي: ثم سلك طريقًا، قال المفسرون: متوجهًا من المشرق قاصدًا الشمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين: ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «السُّدَّيْنِ»، والسدين: الجبلين الحاجزين لما وراءهما. وهما جبلان عظيمان يفصلان بين شرق آسيا وغربها، بينهما منفذ ينفذ منه الناس.

قال ابن كثير[1]: «وهما جبلان متناوحان[2]، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل».

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر القاف: «يُفْقِهُونَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَفْقَهُونَ﴾.

أي: وجد من دون السدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وذلك لعجمة ألسنتهم وبعدهم عن الناس، واستعجام أذهانهم وقلوبهم. فلا هم يفهمون لغة الناس، ولا الناس يفهمون لغتهم.

ويظهر من هذا أن مما أعطاه الله تعالى لـ«ذي القرنين» من الأسباب فقه ألسنة الأمم الذين أخضعهم ودانوا له، ودعاهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ومنهم هؤلاء القوم

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٩١.

(٢) أي: متقابلان.

الذين وجدهم دون السد؛ ولهذا راجعوه وراجعهم؛ لقوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «يأجوج ومأجوج»: أمتان عظيمتان من بني آدم، كثيرتا العدد، يقال: إنهما من قبائل بلاد الصين والمغول والتتر.

عن أبي سعيد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين. قال: فذاك حين يشيب الصغير:** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢].

قال: فاشتد عليهم، قالوا يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا، ومنكم رجل»[(١)]. وفي رواية: «**من يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعة وتسعين، ومنكم رجل**»[(٢)].

﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال والكفر والشرك وإخافة الناس، وغير ذلك.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها: «خَرَاجًا»، وقرأ الباقون بإسكان الراء من غير ألف: ﴿خَرْجًا﴾، و«هل» للاستفهام، أي: فهل نجعل لك أجرًا؟

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح السين: ﴿سَدًّا﴾، وقرأ الباقون بضمها: «سُدًّا»، أي: حاجزاً يحصننا ويمنعنا منهم، ويحفظنا من فسادهم وشرهم.

أي: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا يحصنهم منهم، ويقيهم فسادهم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان، قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين. ٢٢٢.

(٢) جاء هذا في رواية البخاري.

وفي هذا دلالة على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، ومعرفتهم اقتدار ذي القرنين على ذلك، وإنما أرادوا أن يجعلوا له خرجًا؛ خوفًا منهم أن يرد طلبهم، وإلا فهم يعلمون أنه وماله من الملك الواسع ليس بحاجة إلى ذلك.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي أعطاني ربي من التمكين والملك خير من هذا الخرج الذي تجعلونه لي، كما قال نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦].

وفي هذا اعتراف من ذي القرنين بنعمة الله تعالى، ودلالة على ديانته، وحسن قصده، وصلاح نيته، وإرادته الخير والإحسان.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ استعف عن أخذ الأجرة منهم على عمله، لكن طلب منهم أن يساعدوه بقوة بدنية، فقال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، أي: ساعدوني بعملكم معي بقوة بأيديكم، وبآلات البناء؛ لقوله بعده: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، وقوله: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، أي: ردمًا مانعًا من عبورهم إليكم، والردم: أشد وأعظم من السد، أي: أكبر مما سألوه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ هذا وما بعده تفسير لقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

و«زبر» جمع «زبرة» وهي: القطعة، أي: أعطوني وناولوني قطع الحديد العظيمة، فجمعوا أرتال الحديد العظيمة المرتفعة كالجبال، مما يدل على الشدة والعظمة في ذللك الوقت.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وابن عامر بضم الصاد والدال: «الصُّدُفَيْنِ»، وروى أبو بكر عن عاصم بضم الصاد وإسكان الدال: «الصُّدْفَيْنِ»، وقرأ الباقون بفتح الصاد والدال: ﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾.

و«الصدفين»: جانبي الجبلين، أي: حتى إذا ساوى السد بين الجبلين، أي: حاذاهما طولًا وعرضًا وارتفاعًا.

﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾، أي: أوقدوا وأججوا على هذا الحديد نارًا عظيمة، وانفخوا بالمنافيخ ذات الهواء الشديد؛ لتكون في غاية الحرارة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، أي: إلى غاية إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد كله نارًا تتأجج.

﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ لما بلغ ما بين الجبلين من الحديد غاية الحرارة وصار كله نارًا، ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾، «أفرغ»، أي: أصب، ﴿عَلَيۡهِ﴾، أي: على الحديد، ﴿قِطۡرًا﴾، «القطر»: النحاس المذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾ [سبأ: ١٢].

أي: أعطوني نحاسًا مذابًا أصبه على هذا الحديد الملتهب نارًا؛ ليستحكم، ويكون أشد قوة وصلابة، فكان هذا السد غاية في الارتفاع والطول والعرض، وغاية في الشدة والقوة والصلابة والاستحكام؛ ولهذا قال:

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾.

قرأ حمزة بتشديد الطاء وإدغام التاء في الطاء والجمع بين ساكنين: ﴿فما اسطّاعوا﴾، وقرأ الباقون بفك الإدغام: ﴿فما استطاعوا﴾.

أي: فما اسطاع يأجوج ومأجوج وما قدروا أن يظهروا على هذا السد والردم، ويصعدوا ويعلوا عليه؛ لارتفاعه وملاسته، و«أن» والفعل في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«اسطاعوا»، أي: فما اسطاعوا ظهوره.

﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾، أي: وما استطاعوا أن ينقبوه ويخرقوه من أسفله؛ لثخنه وصلابته وإحكامه وشدته وقوته، فكفى الله شر هؤلاء المفسدين، وهم يأجوج ومأجوج.

ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلًّا بما يناسبه، فقال: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ۝٩٧﴾؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالبًا- على زيادة المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ۝٩٩﴾:

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، أي: قال ذو القرنين لما بنى السد وأحكمه: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، أي: هذا السد وهذا العمل الذي أقدرني الله عليه، رحمة من ربي، وليس بحولي ولا بقوتي ولكن رحمة منه عز وجل بي، ورحمة من ربي بالناس، حيث جعل هذا السد والردم المنيع حائلًا بينهم وبين يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض.

فاعترف بنعمة الله تعالى عليه وعلى الناس الذي حفظهم الله بهذا السد، وأضاف النعمة إلى ربه عز وجل شكرًا له على نعمته وفضله، وهذه حال الخلفاء الصالحين.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾، أي: فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج، وذلك من علامات الساعة وأشراطها.

﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾، أي: جعل ذلك السد والردم المحكم المتقن ﴿دَكَّآءَ﴾ مندكًّا منهدمًا مساويًا للأرض، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: مساويًا للأرض.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، أي: واقعًا ولا بد، كائنًا لا محالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، [الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها، قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**»، وحلق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «**فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وعقد التسعين**»(٢). يعني شيئًا يسيرًا، لكن ما ظهر فيه فتح وشق- وإن كان يسيرًا- لا بد أن يتسع.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع... قال: «**ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد**

---

(١) أخرجه البخاري فيالفتن- قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب» ٧٠٥٩، ومسلم في الفتن- اقتراب الفتن ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن ٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣، وأحمد ٦/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، قصة يأجوج ومأجوج ٣٣٤٧، ومسلم في الفتن ٣٨٨١.

كان بهذه مرة ماء»[١].

﴿* وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ إلى يأجوج ومأجوج والناس الموجودين آنذاك، أي: وتركنا يأجوج ومأجوج والناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم اندكاك السد والردم ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، أي: يختلط ويضطرب بعضهم في بعض، تشبيهًا بموج البحر؛ لكثرة يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وبهذا الاختلاط يُفسد يأجوج ومأجوج على الناس حياتهم، ويعيثون في الأرض فسادًا، بالقتل ونهب الأموال، وإهلاك الحرث والنسل، وغيرذلك.

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ إلى الخلائق كلهم من الإنس والجن، أي: وتركنا بعضهم يوم القيامة يموج ويضطرب في بعض، من شدة الحيرة والذهول من أهوال ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤].

ويقوي هذا الاحتمال ما بعده: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾، أي: وعرضنا جهنم يومئذٍ يموج الخلائق بعضهم في بعض يوم القيامة.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، «الصور»: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟**» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**»[٢].

والمراد: ونفخ في الصور النفخة الثانية لبعث الناس من قبورهم خلقًا جديدًا، وقد سبقتها النفخة الأولى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٣٧، والترمذي في الفتن ٢٢٤٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٢٥٤٨، وقال: «حديث حسن».

ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾، أي: فجمعنا الخلائق كلهم الإنس والجن والملائكة والوحوش والدواب، وأحضرناهم للحساب ﴿جَمْعًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: جمعًا عظيماً تامًّا لا يغادر منهم أحدًا، أولهم وآخرهم، إنسهم وجنهم، وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠].

الفوائد والأحكام:

١- سؤال أهل الكتاب والمشركين للنبي ﷺ عن قصة ذي القرنين في معرض أسئلتهم له تعنتًا وتعجيزًا، كما سألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن الروح، وإجابته ﷺ لهم بما يسكتهم ويقطع حجتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

٣- تعليم الله تعالى له ﷺ ما يجيبهم به، وإيحاؤه إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ الآيات.

٤- الاكتفاء من قصة وخبر ذي القرنين بما فيه التذكير والعظة والعبرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

٥- تمكين الله عز وجل لذي القرنين في الأرض، وإيتاؤه من كل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

٦- أن الله عز وجل مالك الملك، يعطي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء؛ بقدرته وحكمته وعلمه وعدله.

٧- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا.

٨- عمل ذي القرنين بكل ما آتاه الله من الأسباب المادية والمعنوية؛ لهذا تم له ما أراد، وأدرك بغيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

٩- أن من جمع بين العمل وفعل الأسباب مع الإيمان بالله، والتوكل عليه؛ يسر الله له أمور دينه ودنياه، ومن جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل،

والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وفي الحديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»[(١)].

١٠- سلوك ذي القرنين طريقًا حتى بلوغه مغرب الشمس، جهة البحر المحيط ورؤيته الشمس في نظر عينه كأنها تغرب في عين حمئة، كما هو المعتاد لمن انتهى إلى ساحل البحر يراها كأنها تغرب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

١١- وجوده لقوم كفار عند مغرب الشمس، وتمكنه منهم وظهوره عليهم، وتخيير الله له في الحكم فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

١٢- تمام علمه ومعرفته بالسياسة الشرعية وتدينه وصلاحه، وعدله في معاملة كل أحد بما يليق به؛ بتعذيب من ظلم واستمر على شركه وتوعده بعذاب الله يوم القيامة، ومجازاة من آمن وعمل صالحًا، بالحسنى والتيسير له بالقول والأمر والمعاملة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

١٣- الحذر من الظلم بالشرك وغير ذلك، وأن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

١٤- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

١٥- إثبات المعاد والحساب والجزاء، والعذاب الشديد للظالمين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

١٦- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا بالمثوبة الحسنى من الله عز وجل والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾.

١٧- أن على من قدر على أعدائه ألا تنسيه نشوة الانتصار عليهم العدل فيهم، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٤، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

١٨- لا بد من الجمع بين الإيمان باطنًا بالقلب، والعمل ظاهرًا بالجوارح؛ لقوله: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

١٩- أن المهم في العمل كونه صالحًا جامعًا بين الإخلاص والمتابعة؛ لقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بحذف الموصوف: «عملًا»، والاكتفاء بالصفة: «صالحًا».

٢٠- سلوك ذي القرنين طريقًا من مغرب الشمس إلى مطلعها؛ استمرارًا لتطوافه في الأرض، ووجوده عندها قومًا لم يجعل الله لهم من دونها سترًا يقيهم حرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴿٩٠﴾﴾.

٢١- إحاطة الله عز وجل خبرًا وعلمًا بما عند ذي القرنين من الخير والأسباب العظيمة وبأحواله، وما مكن فيه من الملك وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا ﴿٩١﴾﴾.

٢٢- سعة علم الله عز وجل وإحاطته بجميع أحوال خلقه؛ باطنها وظاهرها، ودقيقها وجليلها، وخفيها وجليها.

٢٣- سلوك ذي القرنين سببًا وطريقًا من مطلع الشمس، حتى بلغ بين السدين، ووِجدانه من دونهما قومًا لا يفقهون قولًا؛ لاستعجام ألسنتهم وأذهانهم وأفهامهم؛ لبعدهم عن الناس، وقدرته على محاورتهم بما أعطاه الله من الأسباب، التي منها- والله أعلم- فقه ألسنة الأمم الذين أخضعهم الله له ودانوا له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ﴿٩٣﴾﴾.

٢٤- بلوغ ذي القرنين وتطوافه في جميع أرجاء الأرض مشارقها ومغاربها وسائر جهاتها.

٢٥- أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض بالقتل ونهب الأموال وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢٦- طلب هؤلاء القوم من ذي القرنين أن يجعلوا له أجرًا؛ ليجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا يحصنهم منهم؛ لقولهم: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

٢٧- تحدُّث ذي القرنين بفضل الله عليه، واستغناؤه عن أخذ الخرج منهم بما مكنه ربه فيه من الخير، وقصده الإحسان إليهم بدون مقابل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

٢٨- أن على خليفة المسلمين وولي أمرهم التعفف- ما أمكنه ذلك- عن أموال رعيته، وأخذ الأجرة منهم في مقابل عمل يأتيه لهم؛ ففي ذلك حفظ كرامته.

٢٩- موافقته على بناء السد لهم، وطلبه منهم إعانته بقوة بأيديهم وبالآلات من الحديد والنحاس، وبالنفخ؛ لقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

٣٠- ينبغي لخليفة المسلمين وحكامهم المساعدة في رفع الأذى ورفع الظلم عن إخوانهم المسلمين، وعمن طلب ذلك من المجاورين.

٣١- أن القوي من الخلق مهما أوتي من القوة قد لا يستغني عن أن يستعين بغيره، حتى بمن هو دونه؛ لقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، وهذا يدل على ضعف الخلق مهما أوتوا من قوة.

٣٢- أن من أعظم الأشياء صلابة وقوة الحديد المذاب عليه النحاس.

٣٣- بلوغ هذا السد والردم غاية الارتفاع، وغاية الثخانة والصلابة والإحكام والقوة؛ ولهذا ما استطاع يأجوج الصعود عليه، ولا استطاعوا خرقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

٣٤- أن هذا السد رحمة من الله تعالى للناس، جعله الله حائلًا بينهم وبين يأجوج ومأجوج؛ ليسلموا من شرهم وفسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

٣٥- تحدث ذي القرنين بنعمة الله تعالى عليه، ونسبته ما أقدره الله عليه من عمل السد إلى الله عز وجل وشكره على ذلك؛ لقوله: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، وهكذا يجب على كل مؤمن شكر نعمة الله تعالى عليه ونسبتها إليه عز وجل، والتحدث بها.

٣٦- إثبات رحمة الله تعالى المتعدية إلى عباده.

٣٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّى﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّى﴾.

٣٨- أن لهذا السد العظيم أجل، فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج- وذلك من علامات الساعة الكبرى- جعله الله عز وجل دكًّا مساويًا للأرض؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾.

٣٩- أن وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وغير ذلك من علامات الساعة وقيامها، والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك؛ حق كائن لا محالة؛ لقوله: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّى حَقًّا﴾.

٤٠- اضطراب يأجوج ومأجوج والناس يوم خروجهم؛ لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعۡضٍ﴾.

٤١- اختلاط الخلائق كلهم بعضهم في بعض يوم القيامة من الإنس والجن، واضطرابهم وحيرتهم وذهولهم لشدة أهوال ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعۡضٍ﴾.

٤٢- إثبات النفخ في الصور النفخة الثانية لبعث الخلائق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٤٣- جمع الخلائق كلهم في القيامة للحساب، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، أي: أبرزنا جهنم وأظهرناها، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، يوم يموج الخلائق بعضهم في بعض، ﴿عَرْضًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: عرضًا بينًا جليًّا ظاهرًا أمامهم؛ ليروها عين اليقين، وما فيها من العذاب والنكال، قبل دخولها؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم.

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1].

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾، أي: الذين كانت أعينهم في غشاوة ﴿عَن ذِكْرِي﴾، أي: عن القرآن الكريم، وعن التأمل في آياتي الشرعية والكونية، كما قال

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١]،، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الإسراء:٤٦].

قال ابن القيم: «وهذا يتضمن معنيين؛ أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولًا، ثم يسري منه إلى العين»(١).

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ هذا أبلغ من «وكانوا صمًّا»؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، و«سمعًا» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: وكانوا لا يستطيعون أيَّ سمع، أي: لا يقدرون على أيِّ سمع.

والمعنى: أنهم لا يستطيعون سماع أيِّ شيء من الذكر والآيات؛ لشدة إعراضهم ومكابرتهم وبغضهم للقرآن وللرسول ﷺ، ولو سمعوا شيئًا من ذلك بآذانهم؛ لم ينتفعوا بشيء منه بقلوبهم ولم يستجيبوا، فكأنهم لم يسمعوا، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ الاستفهام للإنكار.

أي: أفظن الذين كفروا أن يجعلوا ﴿عِبَادِي﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين الذين يشركونهم معي وغيرهم من المخلوقات، كالشمس والقمر والأشجار والأحجار وغيرذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم:٩٣].

﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾، أي: أن يجعلوا عبادي هؤلاء أولياء لهم من دوني، أي: أن هذا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٧.

أمر غير ممكن، وبطلانه متقرر في العقول؛ لأن أولياء الله لا يوالون أعداء الله، بل ينكرون عبادتهم لهم ويتبرؤون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

فمن زعم أنه يتخذ أولياء الله أولياء له وهو معادٍ لله فهو كاذب، فليس هو بولي لهم، ولا هم بأولياء له.

ويحتمل أن يكون المعنى: أفحسب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء، أي: أن يكون لهم من دون الله أولياء ينصرونهم من دون الله، ويدفعون عنهم وينفعونهم.

أي: لا يظنوا ذلك، فليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان: ٣].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فلا منافاة بينهما.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: أعددنا جهنم وهيأناها وجهزناها.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: ضيافة لهم، ومقرًّا ومنزلًا. والنزل في الأصل: ما يعد من القرى للضيف، وفي هذا نوع من التهكم والسخرية بهم، والتبكيت لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾:

قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ بدأ الكلام بـ«قل» والاستفهام؛ للاهتمام، أي: قل يا محمد للناس محذرًا لهم ومنذرًا: هل أخبركم بالأخسرين أعمالًا؟ و«أعمالًا» تمييز، أي: بالذين هم أخسر الناس أعمالًا، أي: أشد الناس خسرانًا.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، «الذين» صفة لـ«الأخسرين»، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم، أي: الذين ضاع سعيهم وعملهم في الحياة الدنيا وذهب سدى؛ لأنه على غير هدى.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾، أي: وهم لشدة جهلهم وضلالهم يظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: أنهم يحسنون عملًا، أي: يظنون أن عملهم حسن؛ لعمى قلوبهم، وانطماس بصائرهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وكما قيل:

يقضـــى عـــلى المـــرء في أيـــام محنتـــه ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(١)

وبين «يحسبون» و«يحسنون» جناس غير تام.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ تفسير لقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾، أي: هم أولئك الذين كفروا بآيات ربهم، أي: جحدوا آيات ربهم الشرعية، وآياته الكونية، وكذبوا بها.

﴿وَلِقَائِهِ﴾، أي: وكفروا بلقائه وكذبوا به، فأنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، ولقاء الله تعالى. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: فبطلت أعمالهم بسبب كفرهم بآيات ربهم ولقائه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «روح المعاني» ١/ ١٥٦.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، أي: قدرًا، أي: فلا قدر لهم عندنا يوم القيامة ولا وزن، ولا نثقل موازينهم؛ لخلوها من الخير والعمل الصالح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وقال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾** »[1].

وفي حديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه؛ أنه كان يجتبي سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**مم تضحكون؟!**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه! فقال: «**والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد**»[2].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾، الإشارة لما سبق، أي: ذلك المذكور من حبوط أعمالهم، وسقوط منزلتهم عند الله، و«الباء»: للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كفرهم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ الجملة معطوفة على «كفروا»، أي: بسبب كفرهم واتخاذهم آياتي ورسلي هزوًا، أي: بسبب جعلهم آياتي الشرعية والكونية ﴿وَرُسُلِى﴾ الذين أرسلتهم إليهم وأيَّدتهم بالمعجزات؛ لدعوتهم وهدايتهم.

﴿هُزُوًا﴾، أي: محلًّا للاستهزاء والسخرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء:٣٦]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾:

لما بين أعمال الكافرين ومآلهم؛ أتبع ذلك بذكر أعمال المؤمنين ومآلهم، جمعًا بين الوعيد والوعد، والترهيب والترغيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٢٠- ٤٢١.

الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ خاصة ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾، «الفردوس»: أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها وأحسنها، ﴿نُزُلًا﴾، أي: ضيافة لهم، ومكانًا لنزولهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**[1].

والفردوس: البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين من أشجار العنب وغيرها، ويُجمع على «فراديس»، قال جرير:

فقلت للركب إذ عنَّ المسير بنا ... يا بعد يَبرينَ من باب الفراديس[2]

وعلى هذا فالمراد بالفردوس: جميع منازل الجنان، بدليل ذكر لفظ: «جنات» بالجمع وإضافتها إلى الفردوس، فيشمل الوعد بهذا جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدين كل بحسب حاله، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

قال ابن القيم: «والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيرها من الجنات».

قال حسان:

وَإنَّ ثواب الله كلِّ مخلَّدٍ ... جنان من الفردوس فيها يخلد[3]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين لابثين فيها، لا يظعنون عنها.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٨، ١٢٩.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي: لا يريدون عنها تحولًا، ولا يتطلعون إلى غيرها؛ لتمام وكمال ما هم فيه من النعيم، والذي أعلاه وأجله رؤية وجه الله الكريم، وكما قيل:

فحلت سواد القلب لا أنا باغيًا ... سواها ولا عن حبها متراخيًا[1]

فهم مع خلودهم فيها، وطول إقامتهم، لا يتطرق إليهم في تلك المنازل العظيمة السأم أو الملل، فلا يختارون عنها متحولًا، ولا يريدون منها بديلًا، ولا يتطلعون لغيرها؛ لعلمهم أنه لا أفضل منها مقامًا، ولا ألذ منها نعيمًا، وبلوغهم فيها غاية الرضا فيما هم فيه من النعيم، حتى إن من كان منهم في منزلة أقل لا يرى أن هناك من هو أرفع منزلة منه، أو أعظم نعيمًا منه، كما جاء في الحديث[2]؛ ليحصل له كمال الطمأنينة والرضا، ولا يتطرق إليه الغم والحزن، نسأل الله تعالى من فضله.

ومن هنا أخي الكريم يتبين لك حقارة الدنيا ونعيمها، فمهما بلغ الإنسان من التنعم فيها فهو في شغف إلى غيره، بل إنه كلما ازداد فيها تنعمًا انتابه السأم والملل أكثر، فهو بين الظعن والترحال، والتنزه والأسفار هنا وهناك، وكل ذلك لا يروي له غليلًا، ولا يشفي له عليلًا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥- ١٩].

قال لبيد[3]:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، انظر: «مغني اللبيب» صـ٢٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٨، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ في ذكر أدنى أهل الجنة منزلة، وفيه ذكر ما يعطيه الله تعالى، وقوله: «ما أعطي أحد مثل ما أعطيت».

(٣) انظر: «ديوانه» ص٣٢، «جمهرة أشعار العرب» ص٨٥، «الأغاني» ١٥/ ٣٥٢.

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وصدق المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وسلم: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[1].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾الآية.

عن ابن عباس ﷺ، قال: «قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾»[2].

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، أي: قل يا محمد للناس مبينًا لهم سعة علم الله وكمال تقديره وتدبيره، وتمام حكمه وحكمته وشرعه، وكتابته مقادير كل شيء.

﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾، «لو» شرطية غير جازمة، و«أل» في «البحر» للجنس، أي: لو كانت جميع البحار، أي: جميع بحار الدنيا.

﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، «المداد»: الحبر الذي يكتب فيه بالقلم، و«كلمات الله» تنقسم إلى قسمين: كلمات كونية، وكلمات شرعية، أي: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وحكمه وأحكامه وأوامره وآياته الكونية والشرعية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن- سورة الكهف ٣١٤٠، والنسائي في الكبرى في التفسير، قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ ١١٣١٤، وأحمد ١/ ٢٥٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لفرغ البحر وفني ماؤه مدادًا.

﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «يَنْفَدَ»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَنفَدَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى «قبل»، أي: قبل نفاد كلمات ربي.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾، أي: ولو جئنا بمثل البحر آخر ثم آخر ثم آخر، إلى ما لا نهاية له من البحور.

﴿مَدَدًا﴾ له وزيادة عليه، أي: لنفدت كل هذه البحور قبل أن تنفد كلمات ربي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

والمقصود: بيان أن كلمات الله عز وجل لا تنفد ولا تنتهي مهما نفدت البحار، وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن البحار مخلوقة كغيرها، وجميع المخلوقات مآلها الزوال والفناء.

وأما كلام الله فهو صفة من صفاته الثابتة غير المخلوقة، التي لا نهاية لها ولا نفاد.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ولغيرهم من الناس أجمع: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا بشر مثلكم كغيري من سائر البشر، لست ملكًا، ولا أملك من الأمر شيئًا، ولا أعلم الغيب، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: يوحي الله تعالى إلي، والوحي لغة: الإعلام بسرعة وخفاء. وشرعًا: هو كلام الله عز وجل المنزل على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

والمعنى: إنما أنا بشر مثلكم فضلت عليكم بالوحي فقط.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، «أنما» أداة حصر، مثل «إنما»، أي: ما إلهكم ومعبودكم الذي يجب أن تعبدوه إلا إله ومعبود واحد، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أي: فمن كان منكم يأمل لقاء ربه وحسابه وجزاءه وثوابه ويخشى عقابه.

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، واللام: للأمر.

﴿عَمَلٗا﴾ مفعول مطلق، ﴿صَٰلِحٗا﴾ صفة له، أي: عملًا صالحًا خالصًا لله تعالى، تبعًا لسنة الرسول ﷺ.

قال ابن القيم: «ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل بجميع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة»(١).

﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ معطوف على قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾، وتأكيد له، أي: ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا من الخلق.

وهذا كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦﴾ [فصلت: ٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٢).

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- عرض جهنم يوم العرض الأكبر للكافرين عرضًا بيِّنًا؛ ليروها عيانًا وما فيها من الأغلال والأنكال، تعجيلًا لهم بالعذاب المعنوي والهم والحزن؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٣٩٨٥.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٨.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

٢- أن الكافرين إنما عوقبوا بما هم عليه من الكفر، وعرضت عليهم جهنم وتوعدوا بها؛ لأن أعينهم كانت عميًا عن ذكر الله والنظر والتأمل في آياته، وكانوا صمًّا لا يستطيعون سماعه ولا ينتفعون به؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

٣- أن القرآن الكريم هو ذكر الله تعالى، وهو تذكير به وعظة وعبرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرِى﴾.

٤- أن من لم ينتفع بما وهبه الله من البصر والسمع بالاهتداء بهما إلى معرفة الله تعالى؛ فهو كمن فقدهما بل أشد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

٥- بطلان ظن المشركين الذين عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين من دون الله أنهم أولياء لهم؛ لأن هؤلاء المعبودين إنما هم أولياء لله تعالى، وأعداء لمن عادى الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

٦- أنه لا ولي للمشركين من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٦].

٧- إثبات العبودية الخاصة لله تعالى، وهي عبودية الملائكة والأنبياء والصالحين، وأن أهل عبوديته الخاصة هم أهل ولايته؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

٨- إعداد جهنم وتجهيزها وتهيئتها يوم القيامة ضيافة للكافرين ومنزلًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

٩- أن جهنم معدة مهيأة الآن لأهلها الكافرين، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، [آل عمران: ١٣١].

١٠- التهكم والسخرية والتبكيت للكافرين بوصف جهنم بكونها لهم نزلًا، والنزل في الأصل: ما يعد من القرى للضيف، فبئس النزل جهنم.

١١- أن الأخسرين أعمالًا هم الذين ضل سعيهم وعملهم في هذه الحياة، مع

ظنهم أن عملهم حسن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

١٢- أن من أعظم المصائب والبليات أن يكون الإنسان على ضلال وباطل، وهو يظن أنه على هدى وحق، وأنه يحسن صنعًا.

١٣- أن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا هم الذين كفروا بآيات ربهم وكذبوا بلقائه وحسابه للخلائق ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٥- إثبات لقاء الله عز وجل ومحاسبته للخلائق ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾.

١٦- حبوط أعمال الذين كفروا بآيات الله وبطلانها؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

١٧- أنه لا وزن ولا قيمة يوم القيامة لمن كفروا بآيات الله ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

١٨- إثبات وزن الأعمال يوم القيامة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ فمفهوم هذا أن من عداهم من المؤمنين بآيات الله ولقائه يقام لهم وزن.

١٩- أن سبب حبوط أعمال المذكورين وبطلانها، وعدم إقامة الوزن لهم يوم القيامة هو كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

٢٠- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم خاصة جنات الفردوس ضيافة ومنزلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

٢١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلوب وعمل الصالحات بالجوارح، بين إيمان الباطن والإخلاص بالقلب وبين عمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

٢٢- لا بد من كون العمل صالحًا جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾.

٢٣- أن جنات الفردوس معدة ضيافة ومنزلًا لأهل الإيمان والعمل الصالح.

٢٤- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبديًّا، وعدم رغبتهم في التحول عنها؛ لتمام رضاهم عما هم فيه من النعيم، وتمام معرفتهم أنه لا نعيم أفضل منه، وهذا الرضا وهذا الشعور هو نعيم يضاف إلى نعيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾.

وفي الحديث: «**أن الله يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ هل تريدون شيئًا أزيدكم؟...**»، إلى قوله: «**اليوم أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا...**» إلى قوله: «**فيتجلى لهم، فما أعطوا شيئًا أحب من ذلك**»(١).

٢٥- أن الله تعالى قد فضح الدنيا بفنائها وانقضائها، وكون القاطن فيها عرضة للسأم والملل، فلا يكاد الإنسان يقيم في موطن إلا وهو يتطلع إلى الظعن إلى غيره، فتراه يلهث متنقلًا هنا وهناك بين المتنزهات، يبحث عن الأجواء المناسبة، والمناظر الجميلة، والحياة السعيدة، وكل ذلك لا يبل له صدى، ولا يروي له غليلًا.

٢٦- إثبات الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وكتابته لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي...﴾ الآية.

٢٧- أن كلمات الله تعالى الكونية والشرعية لا تنفد، فلو جعل ماء بحار الدنيا كلها وأمثالها، وأمثالها إلى ما لا نهاية له من البحار مدادًا لكتابة كلماته عز وجل؛ لنفد ماء تلك البحار كلها، وكلماته عز وجل لم تنفد؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾.

٢٨- ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني، فللدلالة على سعة كلماته عز وجل الكونية والشرعية وكثرتها، وعدم نفادها، وكتابته لكل شيء، وواسع ملكه

---

(١) سبق تخريجه.

عز وجل وعلمه، وتمام قدرته وحكمه وحكمته، وغير ذلك، ضرب الله عز وجل هذا المثل، وليس معنى ذلك: أن كلماته عز وجل قد تنفد بنفاد البحار مهما أمدت وتضاعفت هذه البحار.

٢٩- أن النبي ﷺ ما هو إلا بشر كغيره من سائر البشر، اختصه الله تعالى بوحيه عز وجل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٣٠- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية.

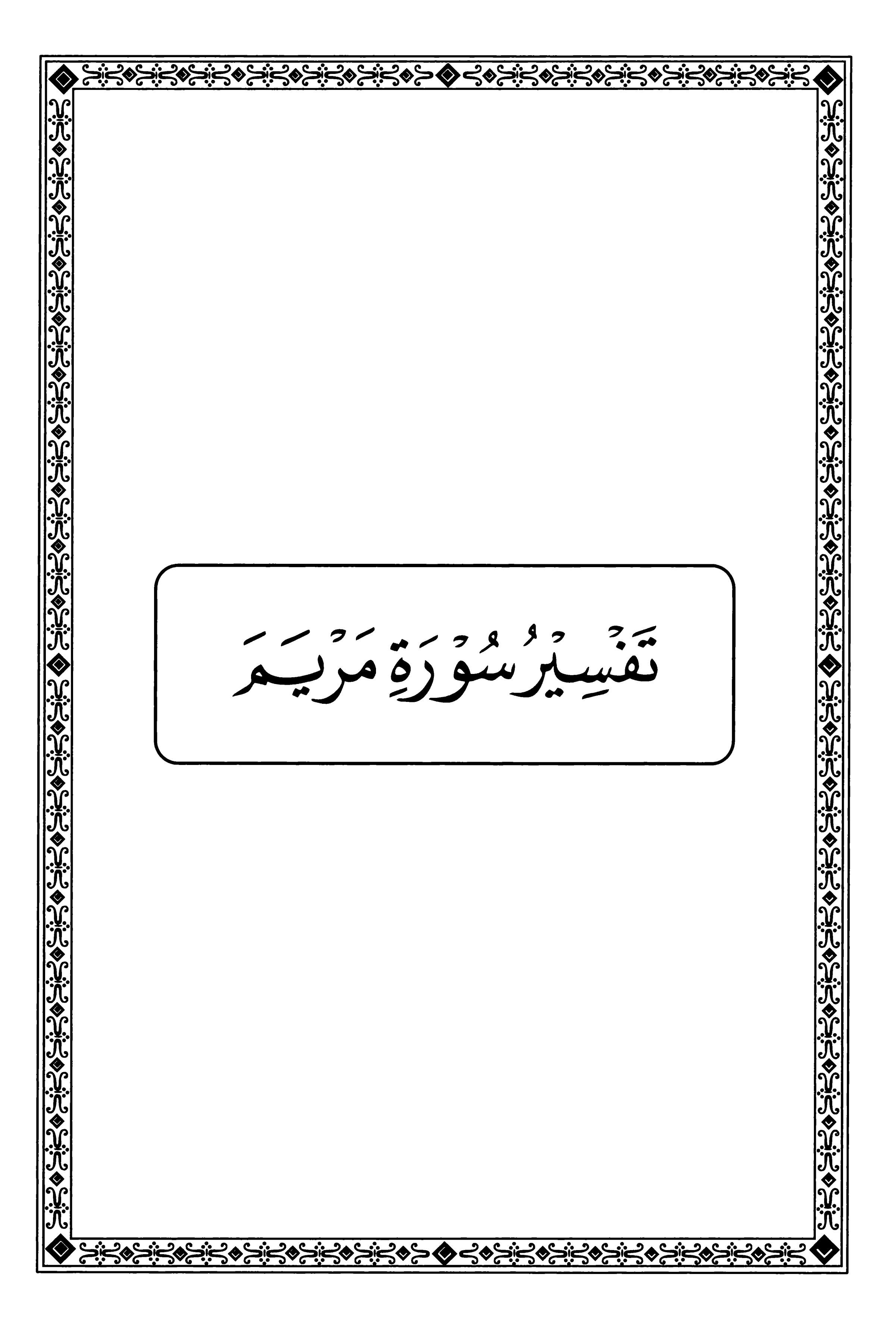
٣١- إثبات وحدانية الله تعالى وتفرده بالإلهية، وأن ذلك مما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ وبعثه به، كما بعث بذلك جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٣٢- أن على كل مؤمن يرجو لقاء الله وثوابه، ويخاف ويخشى عقابه، وجوب الاستعداد لذلك بالعمل الصالح، وألا يشرك بعبادة ربه أحدًا من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

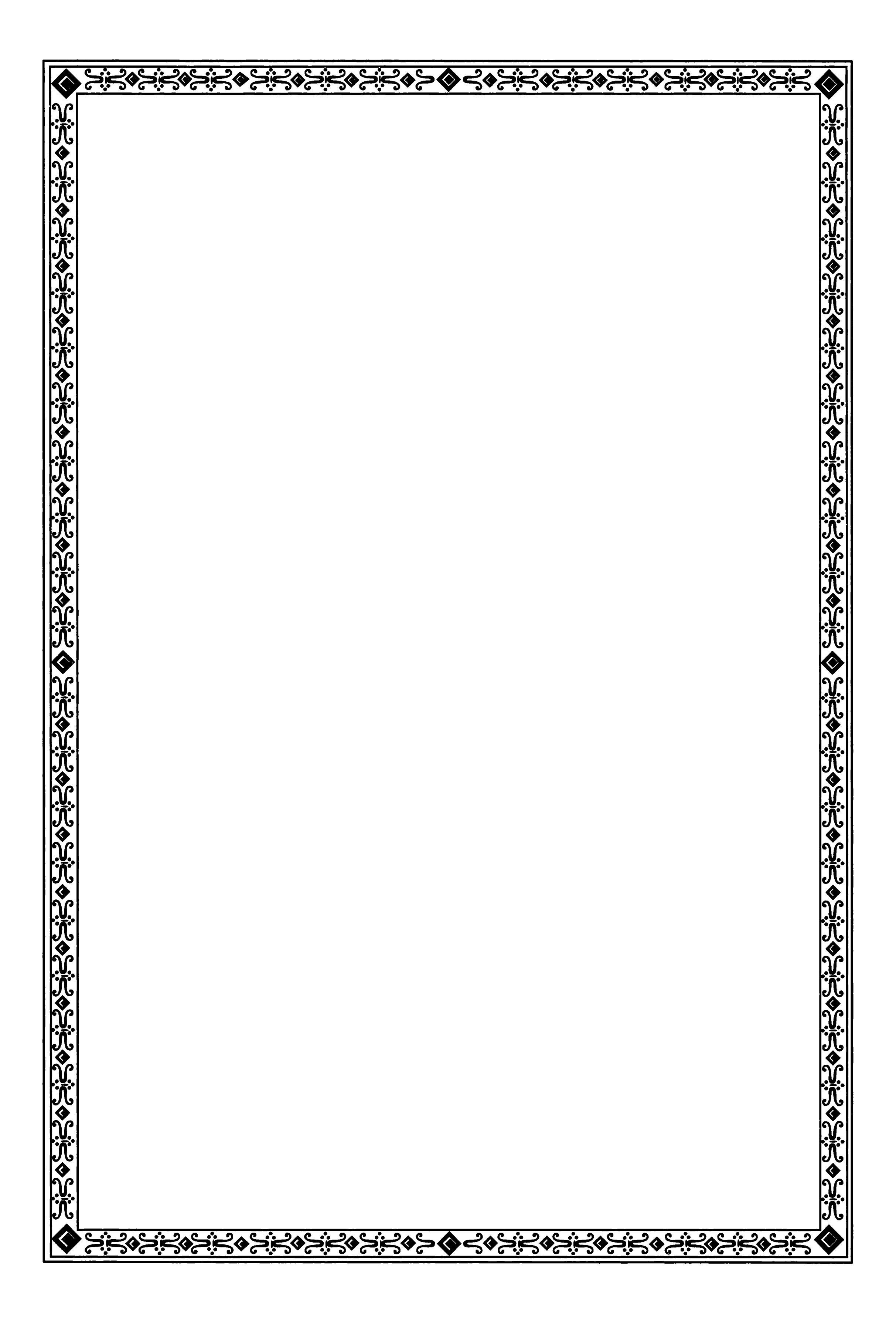
٣٣- وجوب الإيمان بالمعاد، ولقاء الله وحسابه للخلائق، ومجازاته لهم، وأن من لم يؤمن بذلك لا ينفعه العمل الصالح والعبادة وترك الشرك؛ لمفهوم قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية.

٣٤- إثبات ربوبية الله الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة مريم» لذكر قصة مريم عليها السلام فيها أطول من غيرها من السور، عدا سورة آل عمران، وقد نزلت بعدها في المدينة.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ والآيات بعدها.

وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن أبيه، عن جده قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية، فقال: «**والليلة أنزلت علي سورة مريم، فسمها مريم،**» فكانت تسمى مريم، وكان يكنى بأبي مريم(١).

وتسمى: «سورة كهعيص»؛ رُوي هذا عن جماعة من السلف.

ب- مكان نزولها:

مكية.

عن أم سلمة رضي الله عنها في قصة الهجرة إلى الحبشة من مكة: «أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي، فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء موسى ليخرج من مشكاة واحدة»(٢).

ج- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: «إنهن من العتاق الأُوَل، وهن من تلادي»(٣).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة مريم بالحروف المقطعة، وبذكر قصة زكريا وتضرعه لربه، وإجابة الله دعاءه وتحقيق سؤله، قال تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ

---

(١) أخرجه الطبراني في " الكبير"٢٢/ ٣٣٢(٨٣٤)، وفي"مسند الشاميين"٢/ ٣٥٠(١٤٧٨)،والدولابي في"الكنى والأسماء"١/ ١٥٨(٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٠١،٢٠٣،٥/ ٢٩٠،٢٩٢، وانظر "سيرة ابن هشام" ١/ ٣٣٦.

(٣) سبق تخريجه.

عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

٢- ذكر قصة مريم، وقصة عيسى ووجوده من غير أب، وتكليمه الناس صبيًّا، واختلاف الأحزاب في شأنه، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٣- بيان أن الظالم أصم أعمى عن الحق، قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

٤- أمر النبي ﷺ بإنذار الناس يوم الندامة والحسرة، وبيان أن الله يرث الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

٥- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ودعوته لأبيه وحواره معه، ثم اعتزاله له ولقومه وما يعبدون، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

٦- ذكر قصة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

٧- ذكر قصة إسماعيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

٨- ذكر قصة إدريس عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

٩- بيان أن هؤلاء المذكورين في السورة ابتداء بزكريا عليه السلام وختاما بإدريس عليه السلام هم ممن أنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

١٠- ذكر حال الناس بعد هؤلاء الأنبياء، وبيان سوء عاقبتهم، إلا من تاب

وأناب منهم، قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

١١- بيان أن الملائكة تتنزل بأمر الله لها، وبيان أن النسيان منتفٍ عن الله تمامًا، وأنه سبحانه خالق السموات والأرض، مستحق للعبادة، ليس له مثيل ولا نظير سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- ذكر شبهة إنكار البعث التي قال بها الضالون، والرد عليها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

١٣- بيان أن جميع الخلائق تمر على الصراط، والنجاة لمن آمن منهم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

١٤- بيان موقف الكفار من الآيات إذا تليت عليهم، وبيان أن الله قد أهلك قبلهم من تفوق عليهم ماديًّا، ثم بيان أن الله سيمهل من هذه حاله ليزداد ضلالًا على ضلاله، وفي المقابل يزيد الله الذين اهتدوا هدى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

١٥- التعجيب من حال الكافر الذي جمع بين كفره وادعائه أنه سيعطى المال والولد في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾﴾.

١٦- بيان أن المشركين اتخذوا معبودات ينتصرون بهم من دون الله تعالى، وما علموا أنهم سيتبرؤون منهم ويكونون لهم أعداء، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

١٧- بيان أن الله سلط الشياطين على الكافرين، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾﴾.

١٨- بيان حال المتقين وحال المجرمين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

١٩- زعم الكفار أن لله ولدا- تعالى الله عن ذلك- والرد على زعمهم الباطل، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

٢٠- وعد الله من آمن به وعمل صالحًا بحبه لهم وتحبيبهم إلى عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

٢١- بيان أن الله يسر القرآن؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

٢٢- بيان عاقبة الأمم السابقة، والتهديد للمكذبين، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾.

قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: سبق الكلام عن الحروف المقطعة أوائل السور، وذكر الحكمة فيها في مطلع سورة البقرة.

وقد بدئت هذه السورة بخمسة من هذه الحروف، وهو الحد الأعلى في عدد الحروف التي ابتدئت بها هذه السور؛ لأن منها ما ابتدئ بحرف، ومنها ما ابتدئ بحرفين، ومنها ما ابتدئ بثلاثة أحرف، ومنها ما ابتدئ بأربعة أحرف، ومنها ما ابتدئ بخمسة أحرف وهي هذه السورة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وسورة الشورى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾[الشورى: ١- ٢].

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، أي: هذا ذكر رحمة ربك- يا محمد- عبده ونبيه زكريا، في استجابته عز وجل لندائه، وبشارته بالولد وهبته له.

وقد وصفه عز وجل بالعبودية له؛ لأنها أشرف ما يوصف به البشر، وكان زكريا عليه السلام نبيًّا من أشرف أنبياء بني إسرائيل، وكان نجارًا يأكل من عمل يده، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كان زكريا نجارًا»**[1].

والمراد: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾، أي: ذكرها للتذكير بها، فهو بمعنى: «اذكر»؛ كقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾، وغير ذلك ممن ذكر في هذه السورة، أو في غيرها من الأنبياء والصالحين.

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، فضائل زكريا عليه السلام ٢٣٧٩، وابن ماجه في التجارات، باب الصناعات ٢١٥٠، وأحمد ٢/ ٢٩٦، ٤٠٥.

والمقصود من ذلك: التذكير بنعم الله تعالى عليهم، والثناء عليهم، وبيان فضائلهم، والحث على الاقتداء بهم.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين نادى ربه، أي: دعا ربه.

﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾، أي: دعاءً خفيًّا، أي: دعا ربه خفية؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء، وأقرب للإجابة.

وقد نادى عليه السلام ربه في هذه الآيات ودعاه ست مرات بوصف الربوبية؛ كما في دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى الرب: الخالق الملك المتصرف.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، أي: ضعف العظم مني، وإذا ضعف العظم خارت القوى وضعف جميع البدن؛ لأن العظم قوام البدن، والتعريف في «العظم» للجنس، فيشمل عموم العظام.

عن سعيد بن المسيب، قال: «لما صدر عمر بن الخطاب من منى أناخ بالأبطح، ثم كوّم كومة بطحاء، ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط»[1].

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، معطوف على: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، و﴿شَيْبًا﴾ تمييز، والشيب: بياض الشعر بسبب الكبر غالبًا.

والمعنى: وانتشر الشيب في الرأس، واضطرم البياض في السواد كاضطرام النار في الهشيم؛ كما قال ابن دريد[2]:

أما ترى رأسيَ حاكى لونُه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى

واشتعل المبيض في مسوده ... مثل اشتعال النار في جَزْل الغضا

فتبرأ عليه السلام من الحول والقوة، وأقر بضعفه وكبره، وتعلق بحول الله وقوته.

وانتشار الشيب في الرأس وكثرته فيه أمارة على التوغل في الكبر؛ لأن الشيب لا يكثر في الرأس أو يعمه إلا بعد أن يعم اللحية غالبًا؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن من إجلال الله:**

---

(١) أخرجه مالك في الحدود ١٥٦٠.

(٢) انظر: شرح المقصورة ص ٢.

إكرام ذي الشيبة المسلم»[(١)].

والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، قال الشافعي[(٢)]:

خبت نار نفسي باشتعال مفارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شهابها

أيا بومة قد عششت فوق هامتي ... على الرغم مني حين طار غرابها

رأيت خراب العمر مني فزرتني ... ومأواك من كل الديار خرابها

أأنعم عيشًا بعدما حل عارضي ... طلائع شيب ليس يغني خضابها

وعزة عمر المرء قبل مشيبه ... وقد فنيت نفس تولى شبابها

إذا اصفر لون المرء وابيض شعره ... تنغص من أيامه مستطابها

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، «شقيًّا» خبر «كان» منصوب، والشقي: من الشقوة؛ وهي الحرمان، أي: ولم أكن بدعائك ربي شقيًّا محرومًا من الإجابة، بل كنت سعيدًا تجيبني إذا سألتك؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[مريم: ٤٨]، أي: عسى أن أكون سعيدًا، مستجاب الدعوة، وفي الحديث: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»[(٣)]، أي: بل يسعد بهم جليسهم.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾، قرأ الكسائي بتسكين الياء: «الموالي».

وقرأ الباقون بنصبها: «الموالِيَ»، و«الموالي» جمع: «مولى» بمعنى: «الولي»، وهم العصبة.

﴿مِن وَرَآءِى﴾، أي: من بعدي، قال النابغة[(٤)]:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهبُ

أي: وليس بعد الله.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٣، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٤٤، ٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٢٦٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٢٣.

أي: وإني خفت الموالي والعصبة من بعد موتي، أي: أخاف وأخشى أن يتصرفوا بعدي في الناس تصرفًا سيئًا.

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، أي: عقيمًا لا تلد أصلًا، وهو وصف خاص بالمرأة.

ثم بعد أن مهد بالتوسل إلى ربه بضعفه، وكبر سنه، واضطراره لسؤاله، وتبرأ من حوله وقوته، وأثنى على ربه باستجابته سابق دعائه، سأل حاجته ومطلوبه، فقال: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾.

أي: أعطني وامنحني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك، والمراد بالعندية هنا: عندية خاصة؛ لأن كل شيء من عند الله تعالى.

﴿وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم «يرثْني ويرثْ»، وقرأ الباقون برفعهما: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾.

﴿وَلِيّٗا ٥﴾، أي: ولدًا وارثًا ومعينًا يلي الأمر من بعدي؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩] وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾، أي: يرث النبوة، ويكون نبيًّا من بعدي، وعلى هذا فالمراد بالولاية في قوله: ﴿وَلِيّٗا﴾ الولاية في الدين، وقيل المعنى: يرث مالي.

والصحيح الأول، والدليل قوله تعالى بعده: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾، أي: ويرث من آل يعقوب النبوة قطعًا، وأيضًا: فإن زكريا عليه السلام- وكذا غيره من الأنبياء- أجل وأعظم من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده: أن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونهم.

كما أن زكريا عليه السلام لم يكن ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يده، وقل

أن يجتمع عند مثله شيء من المال، والأنبياء عليهم السلام أزهد الناس في الدنيا.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا نورث؛ ما تركناه صدقة**»[١].

فمن شفقة زكريا عليه السلام على الدين، وخشيته عليه الضياع بسبب ولاية من ليس أهلًا للولاية فيه، سأل ربه أن يهبه من لدنه وليًّا يرث النبوة منه ومن آل يعقوب، وليس لأمر سوى ذلك، وحق له أن يخاف على دين الله من التبديل والتغيير؛ فإن في موت الأنبياء والعلماء الربانيين والمصلحين ثلمةً لا تسد.

قال الشافعي[٢]:

فما تخرب الدنيا بموت شرارها ... ولكن بموت الأكرمين خرابها

وقال الآخر:

ولست أبالي أن يقال: محمد ... أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولكن دينًا قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

فيا رب إن قدرت رجعى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا ... رشيدًا يضيء النهج والليل قاتم[٣]

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾، أي: مرضيًّا عندك وعند خلقك في دينه ودنياه، وفي خُلُقه وخَلْقه.

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨].

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، قول النبي ﷺ: «**لا نورث؛ ما تركناه صدقة**». ١٧٦١، وأحمد ٢/ ٤٦٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «موارد الظمآن لدروس الزمان» ٢/ ١٧٩.

(٣) الأبيات للشيخ محمد عبده، كما في «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا ١/ ٤١١، و«مذكرات محمد عبده» ص٧.

تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

٢- ذكر رحمة الله عز وجل عبده زكريا باستجابته لندائه، وبشارته بيحيى وهبته له، وغير ذلك؛ للتذكير والامتنان به، وأخذ العبرة والعظة منه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ الآيات.

٣- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة بيحيى وبأوليائه عز وجل.

٤- تشريف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبيته عز وجل الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٥- إثبات عبودية زكريا عليه السلام الخاصة لله تعالى، وتشريفه بهذه العبودية؛ لقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾.

٦- نداء زكريا عليه السلام، ودعاؤه ربه بخفية أن يهبه وليًّا يرثه من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ الآيات.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لزكريا ولأوليائه الصالحين، وتشريف زكريا بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٨- إثبات سماع الله عز وجل التام، الواسع لجميع الأصوات والنداءات خفيها وجهرها؛ لأنه إذا سمع الخفي فسماعه للجلي والجهر من باب أولى.

٩- فضيلة إخفاء الدعاء؛ لأنه أبعد عن الرياء، وأقرب للإجابة.

١٠- تقديم زكريا عليه السلام، وتمهيده لسؤاله بالتوسل إلى ربه بضعفه وكبر سنه، وأنه لم يكن يومًا ما شقيًّا بدعائه، محرومًا من إجابته، بل كان سعيدًا مستجاب الدعوة، وباضطراره إلى سؤاله لخوفه الموالي من بعده، وعقم زوجته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ۝٥﴾.

١١- ينبغي للسائل أن يقدم بين يدي سؤاله ما يكون سببًا لإجابته، بذكر حالته، والأسباب التي اضطرته للسؤال، ونحو ذلك، والثناء على المسؤول، وكما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناءُ[١]

١٢- أن من علامة الكبر ودنو الأجل: وهن العظم والبدن، ومشيب الرأس؛ لقول زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾.

١٣- سرعة انتقال الشيب وعمومه للشعر عند الكبر؛ كاشتعال النار في الهشيم؛ لقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾.

١٤- ثناء زكريا عليه السلام على ربه، واعترافه بنعمه عليه وسابق فضله في استجابته لدعائه؛ لقوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾.

١٥- مخافة زكريا عليه السلام من العصبة من بعده أن يتصرفوا في الناس تصرفًا سيئًا مخالفًا لما هو عليه من الدين؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾.

١٦- سؤاله عليه السلام ربه أن يهبه من لدنه وليًّا يرث النبوة منه ومن آل يعقوب؛ لقوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾.

١٧- إثبات نبوة زكريا عليه السلام؛ لقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾، والمراد بذلك: ميراث النبوة.

١٨- دعاؤه عليه السلام ربه أن يجعل هذا الولي الذي يهبه له ﴿رَضِيّٗا﴾ مرضيًّا عند ربه، وعند الخلق في دينه وخلُقه وخَلْقه؛ لقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾.

* * *

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» ص١٧.

قال الله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

ذكر في الآيات السابقة نداء زكريا ودعاءه رب أن يهبه من لدنه وليًّا يرث النبوة منه ومن آل يعقوب، ثم بشره به في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾.

قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾، بهذا أجاب الله عز وجل نداء زكريا، وقوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ الآية، فبشره به على ألسنة الملائكة؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي خطاب الله تعالى لزكريا بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ إثبات نبوته عليه

السلام.

والتبشير: الإخبار بما يسر، والوعد بالعطاء؛ كما قال ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «**فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم**»[١].

﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾، أي: سماه الله: يحيى، فكان اسمًا موافقًا لمسماه، أحياه الله حياة حسية بدنية، وحياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم، وهي أهم وأعظم، فتمت بذلك على زكريا المنة، واكتملت به النعمة.

﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾، أي: لم يسم قبله أحد بهذا الاسم، وقيل: لم نجعل له من قبل مساميًا ومماثلًا فيما أعطاه الله من الصفات الحميدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، قال مجاهد: «ولم نجعل له شبهًا ومثلًا»[٢].

وعلى هذا لا بد أن يكون هذا العموم مخصوصًا بإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، ونحوهم ممن هم أفضل من يحيى قطعًا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم تلد العواقر مثله ولدًا»[٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾.

لما جاءته البشارة بالولد تعجب واستغرب، وكأنه وقت دعائه وسؤاله إياه لم يستحضر هذا المانع؛ لشدة حرصه على الولد.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾، الاستفهام للتعجب، أي: قال متعجبًا: يا رب، كيف يكون لي غلام؟!

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، أي: عقيمًا لا تلد أصلًا من أول عمرها، مع كبرها.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٤٦٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦١- ٤٦٢ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر أوائل: «عِتيًّا، جِثيًّا، صِليًّا»، وقرأ الباقون بضمها: «عُتيًّا، جُثيًّا، صُليًّا».

أي: والحال أني قد بلغت من شدة الكبر «عتيًّا»، أي: نهاية الكبر واليبس، وفي سورة آل عمران: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله إجابة عن استفهام زكريا وتعجبه، وقيل: قال الملك: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، الخطاب لزكريا، والإشارة إلى البشارة بالولد.

﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، لم يقل: «قلت»، بل قال: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، الضمير «هو» يعود إلى إيجاد الولد له وامرأته عاقر وهو قد بلغ غاية الكبر، أي: هو يسير سهل.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «خلقناك» بالنون والألف على لفظ الجمع، وقرأ الباقون: ﴿خَلَقْتُكَ﴾ بالتاء مضمومة من غير ألف على لفظ الإفراد.

أي: وقد أوجدتك من قبل من العدم ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولم تك شيئًا يذكر، بل كنت عدمًا؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان.

فاستدل عز وجل على قدرته على إيجاد الولد بين امرأة عاقر ورجل قد بلغ غاية الكبر، بقدرته قبل ذلك على خلق الإنسان من العدم، فمن قدر على الإيجاد من العدم أقدر على إيجاد الولد مما ذكر من باب أولى، وليس الثاني منهما بأصعب من الأول.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾.

لما بشره الله عز وجل بالولد ووعده به، طلب علامة ودليلًا على وجوده؛ زيادة لاطمئنان قلبه، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: ليجتمع لي

مع علم اليقين عين اليقين، وليس الخبر كالعيان.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾، أي: قال زكريا لما بشره الله تعالى ووعده بالولد: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾، أي: يا رب، اجعل لي علامة على وجود ما بشرتني به، وتحققه، وحصوله.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله مجيبًا له: ﴿ءَايَتُكَ﴾، أي: علامتك على حصول ذلك: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: ٤١].

والمعنى: علامتك على ذلك: ألا تستطيع تكليم الناس ثلاث ليال بأيامها، أي: ثلاثة أيام بلياليها، أي: يعتقل لسانك، فلا تستطيع أن تكلم الناس إلا إشارة ورمزًا، مع قدرتك على الذكر والتسبيح؛ كما قال في آية آل عمران: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال في هذه السورة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾.

﴿سَوِيّٗا﴾، حال من المخاطب، أي: حال كونك سويًّا صحيحًا سليمًا معافى، من غير خرس ولا بكم، ولا مرض ولا علة.

وقيل: ﴿سَوِيّٗا﴾ صفة لـ ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾، أي: ثلاث ليال كاملة بأيامها.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾.

الفاء عاطفة، و ﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ بيت أو محتجر يخصص للصلاة والعبادة، وهو المكان الذي بشر فيه بالولد؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: فأشار إليهم إشارة خفية سريعة، ورمز لهم: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، «أن» تفسيرية، أي: بأن سبحوا الله تعالى.

﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، البكرة: أول النهار، والعشي: آخر النهار، أي: سبحوا صباحًا

ومساءً.

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وذكره وتحميده وتهليله وتكبيره، وعبادته بأنواع العبادة.

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: ١٢-١٥].

طوى الكلام في ذكر ولادة يحيى وشبابه وتربيته، إلى مرحلة الأمر له بقوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾، أي: خذ الكتاب بجد واجتهاد، وحزم وعزم؛ حفظًا وفهمًا وعلمًا وعملًا، والمراد بالكتاب: التوراة، أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وبها يحكم أنبياء بني إسرائيل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، أي: وأعطيناه ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾، أي: النبوة والحكمة والعلم والفهم؛ كما قال تعالى في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [يوسف: ٢٢].

﴿صَبِيّٗا﴾، أي: وهو صغير حدث.

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾، معطوف على ما قبله، أي: وآتيناه حنانًا، أي: محبة وشفقة ورحمة، ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: من عندنا لا يقدر عليها غيرنا.

والتحنن: التعطف والمحبة والشفقة والرحمة، ومنه يقال: حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها، وحن الرجل إلى وطنه، قال الحطيئة(١):

تحنن عليَّ هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالًا

---

(١) انظر: «ديوانه» ص ٧٢.

وقال طرفة بن العبد[1]:

أبـا منـذر أفنيـت فاسـتبق بعضـنا　　　حنانيك بعض الشر أهون مـن بعـضِ

﴿وَزَكَوٰةً﴾، أي: وآتيناه زكاة، أي: طهارة معنوية وتزكية لنفسه بالأعمال الصالحة، وطهارة حسية من الأحداث والنجاسات، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩].

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ۝﴾، لربه، مجتنبًا ما نهى الله عنه من الذنوب والمعاصي.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، لما ذكر طاعته وتقواه لربه، أتبع ذلك بذكر بره لوالديه، وطاعته لهما، وعدم معصيتهما.

قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ معطوف على ﴿تَقِيًّا﴾، أي: وكان برًّا بوالديه، أي: محسنًا إليهما قولًا وفعلًا وبذلًا.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝﴾، أي: ولم يكن جبارًا متكبرًا على والديه عصيًّا لهما، بل كان متواضعًا لهما، مطيعا لهما، وعلى البر بهما.

و﴿عَصِيًّا﴾، خبر ثان لـ«يكن»، أي: ولم يكن ذا عصيان لوالديه، بل كان بارًّا بهما، مطيعًا لهما غاية الطاعة.

فكان عليه السلام جامعًا بين طاعة الله تعالى وتقواه، وبين البر بوالديه، والتواضع لهما، وطاعتهما، ولهذا أثابه الله تعالى بقوله:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝﴾، أي: أن له السلامة والأمان في هذه الأوقات والمواطن الثلاثة، التي هي أشد ما يكون على الإنسان:

يوم ولادته وخروجه من بطن أمه، من ذلك المكان الأمين والقرار المكين، إلى الدنيا وما فيها من المصائب والأحزان، والآلام وتسلط الشيطان.

ويوم موته، وما فيه من هول المطلع وعذاب القبر.

ويوم بعثه وما فيه من الفزع الأكبر، وأهوال يوم القيامة، وعذاب النار.

قال سفيان بن عيينة: «أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى

---

(١) انظر: «ديوان طرفة» ص ٢٠٨.

نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا، فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾»[1].

والمراد- والله أعلم- : أن له السلام والأمان في هذه الأيام وما بعدها، أي: في المراحل والدور الثلاث: مرحلة الدار الدنيا، ومرحلة دار البرزخ، ومرحلة القيامة والدار الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- بشارة الله عز وجل لزكريا عليه السلام، بغلام له اسمه: يحيى، استجابة لسؤاله ربه أن يهبه وليًّا يرث النبوة بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾.

٢- إثبات نبوة زكريا عليه السلام، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وبشارته له.

٣- فضيلة يحيى عليه السلام، وعلو منزلته عند الله، فقد خصه الله تعالى بأن سماه سبحانه بنفسه: «يحيى»، واختار له هذا الاسم الذي لم يكن له من قبل سميًّا، وفضله على كثير من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾.

٤- التفاؤل بالاسم الحسن، وأنه قد يكون لصاحبه نصيب من مسماه؛ كما قال بعضهم: «سميته يحيى ليحيا».

وفي حديث صلح الحديبية، لما أرسلت قريش سهيل بن عمرو للصلح، ورآه النبي ﷺ، قال متفائلًا: «**لقد سهل لكم من أمركم**»[2].

٥- تعجب زكريا عليه السلام، واستبعاده أن يكون له غلام، وامرأته عاقر وقد بلغت غاية الكبر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لزكريا؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ﴾.

٧- تأكيد البشارة والوعد لزكريا بولادة يحيى له؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٤٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: كذلك قال ربك وقدره كونًا.

٨- بيان أن حصول مولود له وامرأته عاقر لا تحمل مع بلوغه غاية الكبر، أمر هين يسير على الله تعالى؛ لأنه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

٩- بيان قدرة الله تعالى التامة على ذلك؛ لقدرته عز وجل على ما هو أعظم منه، وهو خلق الإنسان وإيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

١٠- سؤال زكريا عليه السلام من ربه آية على ما بشره به من وجود الولد، ليطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ﴾.

١١- منح الله له آية على ذلك، وهي عدم قدرته على تكليم الناس ثلاث ليالٍ بأيامها من غير خرس ولا علة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾.

١٢- أن الآية كما تكون تمكينًا من فعل الشيء- كما في جعل عصا موسى عليه السلام تلقف إفك السحرة، وكما في إقدار عيسى بإذن الله تعالى على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك- قد تكون منعًا من فعل الشيء بسلب القدرة عليه؛ كما في سلب قدرة زكريا على تكليم قومه هذه المدة، مع قدرته على الذكر والتسبيح، وهذه من أعظم الآيات.

١٣- خروج زكريا عليه السلام على قومه من محرابه ومصلاه، وإيحاؤه إليهم رمزًا وإشارة أن سبحوا بكرة وعشيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

١٤- مشروعية التسبيح في البكور والعشي، والغدو والآصال، والصباح والمساء.

١٥- إثبات نبوة يحيى عليه السلام، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وأمره عز وجل له بأخذ التوراة بقوة وجد واجتهاد، حفظًا وفهمًا وعلمًا وعملًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

١٦- منة الله تعالى على يحيى بإيتائه الحكم والحكمة والعلم والفهم صبيًّا؛ لقوله

تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

١٧- تفضله عز وجل على يحيى بإيتائه الحنان والرحمة والمحبة من عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

١٨- تزكيته عز وجل ليحيى، بتوفيقه له لتزكية نفسه بالإيمان والأعمال الصالحة، ومن الذنوب والمعاصي والأحداث والنجاسات؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً﴾.

١٩- تقواه عليه السلام لربه، واجتنابه ما نهى الله تعالى عنه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

٢٠- بره عليه السلام بوالديه، وتواضعه لهما، وطاعتهما، وعدم تكبره عليهما، وعدم معصيته لهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

٢١- مجازاة الله تعالى، وإثابته ليحيى عليه السلام على اتصافه بأكمل الخصال وأتم الصفات، وتزكيته لنفسه، وتقواه لربه، وبره وطاعته لوالديه، بالسلام والأمان له يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

٢٢- أن من أشد المواقف وأصعبها على المرء: يوم ولادته وخروجه من المكان الأمين والقرار المكين في بطن أمه، إلى الدنيا وما فيها من المصائب والأكدار، ويوم موته وما فيه من هول المطلع وعذاب القبر والبرزخ، ويوم بعثه وما فيه من الفزع الأكبر وأهوال القيامة وعذاب النار؛ لأن الله خص هذه الأيام الثلاثة بالذكر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾.

ذكر عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، وكانت من الآيات العجيبة العظيمة، ثم أتبعها بما هو أعجب منها وأعظم، وهي قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، تدرجًا من الأدنى إلى الأعلى، كما قرن بين هاتين القصتين في سورة آل عمران وسورة الأنبياء؛ لما بين القصتين من التشابه والتقارب في المعنى من حيث دلالة كل منهما على تمام قدرة الله تعالى وعظمة سلطانه، وأنه لا يعجزه شيء، حيث أوجد من زكريا- مع كبره وعقم زوجته- ولدًا زكيًّا طاهرًا، وأوجد من مريم ابنها عيسى ابن مريم من غير أب، فسبحان العليم القدير!

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾، أي: واذكر يا محمد ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: في القرآن العظيم، أعظم كتب الله على الإطلاق.

﴿مَرۡيَمَ﴾، أي: مريم ابنة عمران عليها السلام من سلالة نبي الله داود عليه

السلام، وكانت من بيت اختاره الله واصطفاه وطهره، وقد نذرتها أمها قبل ولادتها محررة لخدمة بيت المقدس، وأعاذتها بعد ولادتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم، وتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفلها عز وجل نبيه زكريا عليه السلام، وصب عليها رزقها ويسره لها؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٧].

اصطفاها الله عز وجل وطهرها على نساء العالمين، فكانت قانتة راكعة ساجدة، متبتلة دائبة على العبادة والطاعة، ملازمة لمحرابها، عفيفة محصنة لفرجها، مصدقة بكلمات ربها وكتبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران: ٤٢- ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، أي: تباعدت وانفردت عن أهلها، واعتزلتهم، وتنحت عنهم، ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، أي: مما يلي الشرق عنهم، شرق بيت المقدس.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾، أي: سترًا ومانعًا، استترت به منهم وتوارت عنهم؛ لتنفرد وتتفرغ لعبادة ربها، وليتم الله ما أراد من مجيء الملك إليها منفردة.

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾، أي: جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ

ﱡﭐ ﭐﻟﺮُّﻭﺡُ ﭐﻟۡﺄَﻣِﻴﻦُ ١٩٣ ﱠ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾، أي: جاء إليها بصورة إنسان، في أكمل صورة، وأتم خلقة، وأحسن هيئة؛ لتتمكن من رؤيته، وتستطيع مكالمته.

﴿قَالَتۡ﴾، أي: قالت مريم لما تمثل لها جبريل في صورة بشر، وهي في مكان منفرد عن أهلها بينها وبينهم حجاب:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾، أي: أستجير بالرحمن وألتجئ وأعتصم به منك؛ لأنها خافت، وظنت أنه يريدها على نفسها.

﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، أي: إن كنت تقيًّا تخاف الله، فلا تتعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، ولهذا امتدحها الله تعالى وأثنى عليها بتحصينها فرجها وكمال عفتها، فنعتها بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [الأنبياء:٩١].

﴿قَالَ﴾، أي: قال جبريل لمريم عليها السلام، مطمئنًا لها، ومزيلًا ما حصل عندها من الخوف على نفسها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا رسول ربك، بعثني الله إليك، ولست بشرًا.

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب وورش بالياء بعد اللام: «ليهب»، وقرأ الباقون بالألف: ﴿لِأَهَبَ﴾، و«الهبة»: العطية، أي: لأعطيك وأمنحك.

﴿غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، أي: طاهرًا من الذنوب والآثام.

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾، أي: قالت مريم متعجبة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾، أي: كيف يكون لي غلام؟ فالاستفهام للتعجب.

﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾، أي: ولم يجامعني بشر بنكاح حلال، أي: لم أكن ذات زوج.

﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾، أي: ولم أك زانية، ولا يتصور مني ذلك.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾، أي: قال جبريل مجيبًا لاستفهام مريم وتعجبها من هبة الغلام لها وإن لم تكن ذات زوج ولا هي بغي: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ الخطاب لمريم، والإشارة إلى هبة الله لها غلامًا زكيًّا.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، الضمير «هو» يعود إلى هبة الغلام لها، أي: هو علي يسير سهل.

وهذا كقول زكريا عليه السلام قبل هذا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: ٨]، وقوله عز وجل له: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ [مريم: ٩].

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، الواو: عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن نجعل هذا الغلام آية للناس على تمام قدرة الله تعالى في خلقه من أنثى بلا ذكر؛ كما قال تعالى:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

فخلق عز وجل آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، فسبحان الله العليم القدير!

كما أن في الآية دلالة على أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بقدر الله تعالى.

ولهذا لا يذكر عيسى في القرآن- غالبًا- إلا منسوبًا لأمه؛ للتنبيه إلى عظيم قدرة الله تعالى في خلقه من أنثى بلا ذكر، في حين أن الأنبياء يذكرون في القرآن غير منسوبين حتى ولا لآبائهم.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، معطوف على ﴿آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، أي، ورحمة منا به وبوالدته وبالناس، بجعله نبيًّا من الأنبياء، ومن الصالحين، يدعو إلى توحيد الله تعالى، وينهى عن الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: ٤٥- ٤٦]، أي: يدعو إلى عبادة الله تعالى في مهده وكهولته.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾، أي: وكان وجود هذا الغلام من مريم بنفخ جبريل روح الله في فرجها أمرًا مقدرًا في علم الله تعالى، مكتوبًا في الأزل، كائنًا لا محالة كما قدر الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

ولهذا قال: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾، أي: فحملت بهذا الغلام بعد أن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها.

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾، أي: فتباعدت به.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾، أي: مكانًا قاصيًا بعيدًا عن قومها؛ لئلا تراهم ولا يروها؛ لاستشعارها اتهامهم لها بالريبة، وأنهم لن يصدقوها فيما تخبرهم به.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾، الفاء هنا وفي قوله: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ للتعقيب، فالجملتان معطوفتان على قوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾.

قال ابن القيم: «إنما عطف بالفاء- مع أن بين مجيء المخاض والحمل مهلة- لأن المهلة التي بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة، قيل: كانت يومًا، وقيل: كانت ثلاث ساعات، وعليه أكثر المفسرين، حتى يتميز حملها عن سائر النساء، ويكون ذلك كرامة لها، فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك»(١).

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: «ليس إلا أن حملت فولدت»(٢).

وقال ابن كثير(٣): «فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر». وقال أيضًا: «فالمشهور الظاهر- والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن». وهذا هو الظاهر والأقرب؛ لعدم الدليل على خلافه.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾، أي: فألجأها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، تستند إليه وتتمسك به عند اشتداد الطلق، وهذه النخلة في المكان الذي انتبذت فيه عن أهلها،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٣٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٤٩٧، قال ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢١٦: «وهذا غريب».

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٢١٦، ٢١٧.

يقال: في قرية يقال لها: «بيت لحم».

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، أي: قبل هذه الحال.

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ قرأ حمزة وحفص بفتح النون: ﴿نَسْيًا﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «نِسيًا»، أي: وكنت شيئًا لا يذكر ولا يعرف.

وإنما تمنت هذا- وإن كان تمني الموت في الأصل لا يجوز- لأنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود وتتهم بالريبة، وأن الناس لن يصدقوها في خبرها، فبعد أن كانت عندهم صِدِّيقة عابدة، تصبح- فيما يظنون- بغيًّا زانية.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وحفص وروح عن يعقوب بكسر الميم والتاء: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ على أن «مِن» حرف جر.

وقرأ الباقون بفتحهما: «مَن تحتَها» على أن «مَن» موصولة، أي: فناداها الذي تحتها، أي: المولود- وهو عيسى عليه السلام- مسليًا لها، ومبشرًا وموصيًا لها، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩].

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾، لتحقيق أنه ناداها عند وضعه- قبل أن ترفعه- مبادرة للتسلية والبشارة والتوصية، ودلالة على تمام قدرة الله تعالى.

وهذه آية عظيمة ومعجزة أخرى في عيسى عليه السلام، فالأولى في خلقه من أم دون أب، والثانية: في كلامه بعد ولادته، فسبحان العليم القدير!

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، أي: قائلًا لها: «أن لا تحزني»، و«أن» تفسيرية، أي: بأن لا تحزني.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، تعليل لقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، أي: لأن ربك قد جعل تحتك سريًّا، أي: قد جعل تحتك نهرًا وجدول ماء لتشربي منه.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، أي: حركيه؛ لتتحرك بذلك النخلة وتهتز.

قال الشاعر:

ألم تـــر أن الله قــــال لمـــريمٍ: وهـزي إليـك الجـذع يسّـاقط الرطبْ

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سببْ[1]

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾، قرأ حمزة بفتح التاء والقاف وتخفيف السين: «تَساقَط»، وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾.

وقرأ يعقوب بالياء على التذكير وفتحها، وتشديد السين، وفتح القاف: «يَسَّاقَط»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث، وتشديد السين، وفتح القاف: «تَسَّاقَط».

﴿رُطَبٗا﴾، الرطب: التمر الذي لم يتم جفافه.

﴿جَنِيّٗا﴾، طريًا، أي: تمرًا طريًّا لذيذًا نافعًا.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾، أي: فكلي من هذا الرطب، واشربي من هذا الجدول والنهر.

﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾، طيبي نفسًا، واهنئي عيشًا وسرورًا، وهذا تسلية وبشارة لها فيما يتعلق بنفسها وحالها خاصة، وأما ما يتعلق بقومها فأوصاها بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ﴾، أي: فقولي لهم بالإشارة فقط؛ لقوله بعده: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، «النذر»: إلزام الإنسان نفسه فعل شيء لله، أو قوله، مما هو في الأصل ليس واجبًا عليه.

﴿صَوۡمٗا﴾، أي: صمتًا وسكوتًا عن الكلام، وكان السكوت عندهم مما يتعبد به شرعًا.

﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾، بيان وتأكيد لما قبله، و ﴿إِنسِيّٗا﴾، نكرة في سياق النفي، أي: فلن أكلم اليوم أيَّ إنسان.

وإنما أمرها الله عز وجل بهذا لتستريح من قالة الناس وكلامهم؛ لأنها لو خاطبتهم بنفي ما سيتهمونها به فلن يصدقوها، فلا فائدة في ذلك.

وفيه طمأنة لها بأن الله سيتولى أمرها، وسيسخر لها من يقوم بحجتها ويثبت براءتها، بمعجزة تقابل معجزة حملها بدون زوج، وهو كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، وذلك أعظم شاهد على صدقها وبراءتها.

---

(١) البيتان نسبا للبندنيجي في «الدر الفريد» ٤/ ١٦٠، وهما بلا نسبة في «ثمار القلوب» ص٥٩٠، و«ربيع الأبرار» ٣/ ٤٦٢.

وإذا لم يكن في الكلام فائدة متحققة فالصمت أسلم وأحكم؛ ولهذا قال ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[١]، وقال ﷺ: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**[٢].

وقد قيل: «لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب».

وقال الشاعر:

ولئن ندمتَ على سكوتك مرة ... فلتندمن على الكلام مرارًا[٣]

ويتأكد هذا أو يجب إذا كان الكلام قد يجر إلى ما لا تحمد عقباه، من مجاراة أهل السفه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الشاعر:

اترك محاورة السفيه فإنها ... ندم وغب بعد ذاك وخيمُ[٤]

وقال الشافعي[٥]:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوتُ

وقال أيضًا[٦]:

يكلمني السفيه بكل قبح ... وأكره أن أكون له مجيبَا

يزيد حماقة وأزيد حلمًا ... كعود زاده الإحراق طيبا

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، والتذكير بما فيها من العبر والعظات والدلالة على تمام قدرة الله تعالى، وعظيم نعمته عليهما، والتنويه بفضل مريم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٧، وابن ماجه في الزهد ٣٩٧٦، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٥٤٢.

(٤) البيت لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» ص٤٠٣.

(٥) انظر: «ديوانه» ص٥١.

(٦) انظر: «ديوانه» ص٤٥- ٤٦.

وابنها عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦] الآيات.

٢- تباعد مريم عليها السلام عن أهلها وانفرادها عنهم، واتخاذها من دونهم حجابًا؛ لتتفرغ لعبادة الله تعالى؛ وليتم ما أراد من مجيء الملك إليها منفردة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾.

٣- إرسال جبريل عليه السلام إليها وتمثله لها بشرًا تام الخلق؛ لتتحمل رؤيته وتفهم كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾.

٤- قدرة الله تعالى في جعل الملك قد يتمثل بصورة بشر، أو ما شاء الله؛ بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾.

٥- عدم قدرة البشر على رؤية الملائكة على صفتهم التي خلقوا عليها.

٦- مخافة مريم عليها السلام، وظنها أنه يريدها على نفسها، واستعاذتها بالرحمن منه، وتخويفها إياه بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾.

٧- إثبات اسم الله «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة له: الذاتية والفعلية، العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾.

٨- طمأنته عليه السلام لها بأنه ليس بشرًا، وإنما هو رسول ربها ليهب لها غلامًا زكيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾.

٩- تعجبها عليها السلام من أن يكون لها غلام، وهي ليست ذات زوج، ولا يتصور منها الفجور؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾.

١٠- بيان جبريل لمريم عليهما السلام، بأن ما أخبرها به من هبة الغلام لها هو ما قال ربها: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١] لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾.

١١- أن في خلق عيسى ابن مريم من أم بلا أب آية من أعظم آيات الله تعالى ودلائل تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾.

١٢- أن في خلق عيسى من أم بلا أب وتزكيته وتشريفه بالنبوة والرسالة رحمة منه عز وجل له، ولوالدته، وللناس الذين بعثه الله فيهم يدعوهم إلى توحيد الله لا شريك له.

١٣- أن إيجاد عيسى من مريم بنفخ جبريل «روح الله» في فرجها أمر قد قضاه وقدره في الأزل، وكتبه في اللوح المحفوظ.

١٤- حملها عليها السلام به بعد النفخ فيها من روح الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾.

١٥- ابتعادها بعد أن حملت مكانًا قاصيًا عن أهلها؛ لئلا تراهم ولا يروها؛ لاستشعارها باتهامهم لها، وأنهم لن يصدقوها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

١٦- إلجاء المخاض والطلق وآلام الولادة لها إلى جذع النخلة؛ لتستند إليه؛ لتتمسك به عند شدة الطلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

١٧- تمنيها أنها ماتت قبل هذه الحال وكانت شيئًا لا يذكر؛ لعلمها أنها ستؤذى بسبب هذا الولد وتتهم بالريبة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

١٨- جواز تمني الموت عند خوف الفتنة في الدين.

١٩- المعجزة الباهرةْ، والآية الظاهرةْ، والنعمة العظيمة على عيسى وأمه، في تمكين الله عز وجل له من الكلام بعد ولادته؛ لتسلية أمه وبشارتها وتوصيتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ الآية.

٢٠- تسلية عيسى لأمه عليهما السلام، وبشارته وتهنئته لها بما من الله به عليها من المشرب والمأكل؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لمريم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكِ﴾.

٢٢- لا بد من بذل السبب في طلب الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ مع أنه عز وجل قادر على إسقاط الرطب عليها من النخلة دون هزها.

٢٣- قدرة الله تعالى في تيسيره رزق مريم، بإجراء النهر تحتها، وتمكينها من هز النخلة، وإسقاطها عليها رطبًا جنيًّا.

٢٤- تعليمه وتوصيته عليه السلام لأمه كيف تصنع لتسلم من قالة الناس؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

٢٥- أنه كان في شريعتهم جواز النذر على الصمت، وكان ذلك مما يتعبد به في ملتهم، أما في شريعتنا فلا يجوز ذلك، وليس مما يتعبد لله به.

٢٦- أن الصمت حكمة وفيه سلامة، ما لم يكن عن قول الحق والخير فلا ينبغي حينئذٍ الصمت.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧- ٣٣]:

قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، أي: فأتت بوليدها قومها بعد أن تعالّت من نفاسها، ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾، أي: حال كونها تحمله، واثقة بأن الله سيكفيها أمرها ويبرئها.

﴿قَالُوا۟﴾ لما رأوا الولد معها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد جئت ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أي: أمرًا عظيمًا مفترى، ومنكرًا فظيعًا، يريدون بذلك: الزنا، أخزاهم الله، وحاشاها من ذلك.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، ليس المراد بـ«هارون» هذا: أخا موسى عليهما السلام كما قيل؛ لأن بين هارون أخي موسى وبين عيسى زمنًا طويلًا، وإنما هو ممن سموا باسم هارون عليه السلام؛ لأن الناس كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم؛ كما في حديث المغيرة بن

شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟! قال: فرجعت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**ألا أخبرهم أنهم كانوا يتَسمَّوْن بالأنبياء والصالحين قبلهم**»[1].

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾، أي: ما كان أبوك رجل سوء يرتكب الفواحش.

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، أي: وما كانت أمك زانية.

أي: إنك من بيت طاهر، ومن أبوين عفيفين، فكيف صدر منك هذا، وخالفتِ سيرتهما؟! حاشاها من ذلك.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾، أي: لما استرابوا في أمرها ورموها بالفرية، واتهموها، وكانت قد نذرت يومها صومًا وصمتًا عن الكلام أشارت إليه، أي: أن كلموه يجبكم عني؛ لثقتها بأن الذي أنطقه بندائه لها بعد وضعه وهو تحتها بقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ سينطقه ببيان الحق والذب عن عرضها.

﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾، أي: قال قومها: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، و«المهد» فراش الصبي وما يمهد لوضعه.

أي: أنكروا أن تحيلهم على مكالمة من كان في المهد صبيًّا صغيرًا، أي: كيف نلقي عليه السؤال؟ وكيف نترقب منه الجواب؟

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، بهذا قطع حجة قومه في قولهم: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ وأسكتهم، وكما يقال: قطعت جهيزة قول كل خطيب، وليس الخبر كالعيان.

وقد صدر كلامه بوصف نفسه بالعبودية لله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، وهي

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب، النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ٢١٣٥، والترمذي في تفسير سورة مريم ٣١٥٥، وأحمد ٤/ ٢٥٢.

أعظم ما يوصف به البشر.

وفي هذا رد على من غلا فيه من النصارى بقولهم: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: قضى أن يؤتيني الكتاب؛ يعني: الإنجيل.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾، أي: قضى أن يجعلني نبيًّا بوحيه إليَّ وإنزاله الكتاب عليَّ.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، «البركة» كثرة الخير والنفع واليمن، أي: وجعلني كثير الخير والنفع، معلمًا للخير، وداعيًا إلى توحيد الله تعالى ناهيًا عن الشرك، أحل الله على يدي لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم، وبارك على تلك البقاع وأهلها بسببي.

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾، أي: في أي مكان وزمان كنت.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون سببًا وعاملًا للخير أينما حل وارتحل.

﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، «الوصية»: الأمر المؤكد، أي: أمرني أمرًا مؤكدًا بإقامة الصلاة وأدائها فرضها ونفلها، وابتدأ بها لأنها أعظم حقوق الله تعالى بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية.

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، أي: وأوصاني وأمرني بإيتاء الزكاة وإعطائها لمستحقيها، الواجب منها والمستحب. وثنى بالوصية بها؛ لأنها أعظم الحقوق بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية.

﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، أي: مدة حياتي، وهذا كقوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾، الواو عاطفة، أي: وجعلني برًّا بوالدتي، أي: مطيعًا لها، محسنًا إليها، متواضعًا ذليلًا لها، مترحمًا عليها.

وذكر طاعته لوالدته بعد ذكر طاعته لله تعالى؛ لأن الله كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته عز وجل والإحسان إلى الوالدين؛ كما قال تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾، أي: ولم يجعلني جبارًا غليظًا مستكبرًا عن عبادته عز وجل وطاعته، وعن بر والدتي وطاعتها، فأشقى بسبب ذلك.

قال بعض أهل العلم: لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا، ثم قرأ هذه الآية(١).

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾، أي: والسلام عليَّ من الله، كما في قوله تعالى في حق يحيى بن زكريا: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾.

فقول عيسى عليه السلام: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ الآية: تنويه بكرامته، أجراه الله عز وجل على لسانه؛ ليعلموا أنه محل العناية والحفظ والسلامة من ربه.

وقوله هنا: ﴿وَالسَّلَامُ﴾ معرفًا بـ«ال» الدالة على الجنس، حتى كأن جنس السلام بأجمعه عليه.

وفي هذا دلالة على تفضيله على يحيى بن زكريا؛ لأن الله قال في شأن يحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم:١٥] بالتنكير، ولا شك أن عيسى أفضل من يحيى عليهما السلام؛ لأن عيسى أحد أولي العزم من الرسل، الذين هم أفضل الرسل على الإطلاق.

وفي هذا أعظم الرد على اليهود في قولهم- أخزاهم الله- : ولد من زنى، ومات مصلوبًا، ويحشر مع الكفرة؛ لزعمهم أنه كفر بالتوراة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾.

قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب اللام: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «قولُ الحق»، ويشهد لهذا قوله: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: ٦٠].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٣٣، عن عبدالله بن واقد أبي رجاء عن بعض أهل العلم.

أي: ذلك الذي قصصناه عليك وأخبرناك خبره هو عيسى ابن مريم عليه السلام، أرسل الله جبريل عليه السلام إلى أمه مريم، فنفخ فيها من روحه، فحملت به وولدته، وهو عبدالله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا، إلى آخر ما جاء في قصته.

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: هو قول الحق والخبر الصدق، فهو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله وحده لا شريك له، وأنه محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»(١).

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: الذي فيه يشكون، أي: الذي فيه يشك المبطلون من أهل الكتاب، فاليهود المغضوب عليهم ينكرون نبوته ورسالته، بل ويتهمون أمه بالزنا، ويزعمون أنه ولد زنا، عليهم من الله ما يستحقون.

والضالون من النصارى- أخزاهم الله- غلوا فيه، ورفعوه إلى مقام الإلهية، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾، بعدما بين أن قول الحق في عيسى عليه السلام؛ أنه عبدالله ونبيه، نزه عز وجل نفسه عن الولد ردًّا على غلاة النصارى.

و«من» في قوله ﴿مِن وَلَدٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي، أي: ما كان لله أن يتخذ أيَّ ولد سبحانه؛ لكمال غناه عن خلقه.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾، أي: تنزيهًا له عز وجل عن الولد وعن جميع النقائص والعيوب،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ ٣٤٣٥، ومسلم في الإيمان، من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة وحرم على النار، وأحمد ٥/ ٣١٣، ٣١٤.

وعن مماثلة المخلوقين في حاجتهم إلى الولد وغير ذلك.

وفي هذا رد على النصارى في قولهم الباطل: المسيح ابن الله، كما أن فيه ردًّا على اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، تعالى الله عن قولهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أي: إذا أراد شيئًا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩- ٦٠].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وروح بكسر الهمزة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: «وأن الله».

بعدما بين غنى الله عز وجل عن الولد، وكمال قدرته، وتمام تصرفه، بيَّن أن الله عز وجل هو ربه وربهم، وخالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وفي هذا إثبات لتوحيد الربوبية، واستدلال به على إثبات توحيد الإلهية؛ لقوله بعده: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، أي: فاعبدوه وحده لا شريك له.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الهدى الذي جئتكم به وأمرتكم بالأخذ به؛ من الإقرار بربوبية الله تعالى وإلهيته وعبادته وحده ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: طريق عدل قويم، موصل إلى مرضاة الله تعالى والسعادة في الدنيا والآخرة، وإلى جنته؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾، أي: فاختلفت فرق الضلال من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم في عيسى عليه السلام، بين غالٍ وجافٍ، بعد بيان الحق فيه، وأنه عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فغلا فيه طوائف من النصارى، فمنهم من قال: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك.

وجفا في حقه اليهود، فكذبوه وأنكروا رسالته، وادعوا أن كلامه سحر، واتهموا أمه- أخزاهم ولعنهم- بالفاحشة، وأنه ولد زنا.

وآمن به بعض النصارى والمسلمون، وقالوا: هو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، الفاء: عاطفة، و«ويل»: كلمة وعيد وتهديد بالهلاك والعذاب.

﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من شهود يوم عظيم، وهو يوم القيامة الذي يشهده الأولون والآخرون، وأهل السموات وأهل الأرض، والخالق والمخلوق، والذي فيه الفضائح والأهوال، والجزاء على الأعمال.

وقوله ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ولم يقل: «لهم»؛ للتسجيل على أولئك الأحزاب بالكفر، وليعم هذا الوعيد كل من كفر، ولأن من بينهم من آمن بأن عيسى عليه السلام عبدالله ورسوله.

فتوعد عز وجل بالعذاب الشديد كل من كفر من جميع هذه الأحزاب من أهل الكتاب وغيرهم، ممن كذبوا رسله أو غلوا فيهم، وافتروا على الله وزعموا أن له ولدًا، ولم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه عز وجل يمهل ولا يهمل، كما قال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٢]»[(١)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، الصبر على الأذى ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة، لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ٢٨٠٤، وأحمد ٤/ ٤٠٥.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، صفتا تعجب، أي: ما أشد سمع هؤلاء الكفار وبصرهم! ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، يوم القيامة، أي: أنهم أسمع شيء وأبصره في ذلك، بعد فوات الأوان ومعاينة العذاب، فيقرون بكفرهم وشركهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: في الدنيا، ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في ضلال وتيه وبعد عن الحق بيِّن واضح، لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يعقلون، ولا يهتدون إلى الحق.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾، أي: وأنذر الكفار ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، أي: يوم القيامة، يوم الندامة الشديدة، والتلهف على التفريط في جنب الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٥٦- ٦٠].

﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: تم أمر الله عز وجل بحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا، وسوق المجرمين إلى جهنم وردًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥- ٨٦].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل ترون هذا؟ قال: فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هو الموت. قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ**

﴿ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾، وأشار بيده»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم، فيقول: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت، كل خالد بما هو فيه**»[٢].

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، الجملتان في محل نصب على الحال، أي: وهم اليوم في غفلة في الدنيا عما أنذروا به، وهم لا يصدقون به.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾، أي: نرث الأرض وجميع الذي عليها من المخلوقات، بحيث يفنى ويهلك جميع الخلق، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويبقى الله تعالى وتقدس؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝٤٠﴾، أي: وإلينا وحدنا يرجع ويرد جميع الخلائق، فنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

الفوائد والأحكام:

١- مجيء مريم بولدها إلى قومها تحمله، واثقة بأن الله سيكفيها أمرها ويبرئها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥ﴾.

٢- مبادرة قومها إلى اتهامها بالفاحشة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٠، ومسلم في صفة الجنة، النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩، وأحمد ٣/ ٩.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ٦٥٤٤، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٥٠.

٣- أن لما عليه الوالدان من سلوك وأخلاق أثرًا في أخلاق أولادهما غالبًا.

٤- أن الزنا أمر منكر عظيم، وكبيرة من كبائر الذنوب.

٥- عفة والدي مريم وصلاحهما وديانتهما وطهارتهما.

٦- لزوم مريم الصمت، واكتفاؤها بالإشارة إلى وليدها في ردها لاتهام قومها لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، أي: كلموه يجبكم عني؛ لثقتها بأن الذي أنطقه بندائه لها من تحتها بتسليتها وبشارتها وتوصيتها بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ الآية، سينطقه ببيان الحق، والذب عن عرضها.

٧- إنكار قومها وتعجبهم من إحالتها إياهم لتكليم من كان في المهد صبيًّا صغيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾.

٨- مبادرة عيسى عليه السلام في الإجابة عن أمه، والرد على اتهام قومها لها ببيان أنه عبدالله، أعطاه الله الكتاب وجعله نبيًّا ومباركًا، وبيان ما أوصاه الله تعالى به وما وعده ومنَّ عليه به من السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

٩- إن أشرف ما يوصف به البشر هو العبودية لله تعالى؛ ولهذا ابتدأ عيسى عليه السلام بوصف نفسه بذلك فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

١٠- الرد على الذين يغلون في عيسى ويرفعونه إلى مقام الإلهية، فيقولون: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

١١- إثبات نبوة عيسى عليه السلام وإيتائه الإنجيل؛ لقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾، وفي هذا الرد على اليهود المنكرين رسالته وغيرهم؛ قال ابن تيمية: «فيها الرد على الغلاة في المسيح، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه»[(١)].

١٢- مباركة الله تعالى على عيسى حيثما كان، بكونه معلمًا للخير وداعيًا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، أحل الله على لسانه لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم، وكان سبب البركة في تلك البقاع؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٨.

١٣- التفاؤل بأهل الخير؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

١٤- وصية الله تعالى له بالصلاة والزكاة طيلة عمره؛ لقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

١٥- ينبغي ملازمة عبادة الله تعالى بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وغيرها، حتى يلقى الإنسان ربه؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

١٦- توفيق الله تعالى لعيسى بجعله برًّا بوالدته محسنًا إليها، مطيعًا لها، غير جبار، ولا مستكبر عن عبادة ربه وطاعته، ولا عن بر والدته وطاعتها، فيشقى بسبب ذلك؛ لقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

١٧- عظم مكانة الصلاة والزكاة وبر الوالدين؛ لأن الله أوصى بها عيسى عليها السلام، وخصها من بين العبادات.

١٨- فضيلة عيسى عليه السلام وكرامته عند الله، ومجازاة الله تعالى له بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا، أي: في دار الدنيا، ودار البرزخ، والدار الآخرة؛ لقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

وفي هذا رد على اليهود في قولهم الباطل في حقه عليه السلام.

١٩- أن ما قصه الله تعالى وأخبر به في هذه الآيات عن عيسى ابن مريم عليه السلام، هو قول الحق، والخبر الصدق، فهو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾.

٢٠- تشكيك أهل الكتاب في عيسى عليه السلام، فمنهم من غلا فيه وهم النصارى، ومنهم من جفا في حقه، وهم اليهود كذبوه وأنكروا رسالته.

وقول الحق فيه هو ما ذكره الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

٢١- تنزيه الله عز وجل عن الولد، وأنه ما ينبغي له أن يتخذ ولدًا سبحانه؛ لكمال غناه، وعدم حاجته إلى الولد، ولا إلى أحد من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾.

٢٢- الرد على من نسب الولد إلى الله؛ كقول النصارى: المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وقول المشركين: الملائكة بنات الله، وإبطال ذلك، وتنزيه الله تعالى عن ذلك، وعن كل نقص، وعن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾.

٢٣- كمال غناه عز وجل، وكمال قدرته، وأنه إذا أراد أمرًا إنما يقول له: كن فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾.

٢٤- إثبات عيسى عليه السلام ربوبية الله تعالى له وللناس، ووجوب عبادته عز وجل وحده، استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

وفي هذا الرد على من غلا فيه من النصارى فرفعه إلى مقام الإلهية.

٢٥- أن ما جاء به عيسى قومه؛ من وجوب الاعتراف بربوبية الله تعالى وإلهيته، وعبادته وحده لا شريك له؛ هو الصراط المستقيم، المؤدي للسعادة في الدارين؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾.

٢٦- اختلاف الأحزاب من أهل الكتاب في عيسى عليه السلام، فمنهم من غلا فيه، وهم أكثر النصارى، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا.

ومنهم من كذبه وجحد رسالته وهم اليهود، بل ذهبوا- عليهم من الله ما يستحقون- إلى اتهامه بأنه ولد زنا، أخزاهم الله وقبحهم.

ومن النصارى من آمن بأنه عبد الله ورسوله، كما آمن بذلك المسلمون.

٢٧- الوعيد والتهديد للذين كفروا بما جاء به عيسى وغيره من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام؛ من مشهد يوم القيامة العظيم، وما فيه من الأهوال والأغلال والنكال؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾.

٢٨- ما أشدَّ سمع الكفار وبصرهم عند قدومهم على الله تعالى يوم القيامة، حين لا ينفعهم ذلك، وقد كانوا في الدنيا صمًّا عن سماع الحق، وعميًا عن إبصاره؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

٢٩- إثبات يوم القيامة، والرد إلى الله تعالى ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

٣٠- ضلال الظالمين بالكفر والشرك البيِّن في الدنيا عن سماع الحق وإبصاره، وعن الاستعداد لمشهد يوم القيامة العظيم وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾.

٣١- إنذار الكفار وتحذيرهم يوم الحسرة يوم القيامة، حين يقضي الله بين العباد، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

٣٢- كثرة الحسرات وشدة الندامات يوم القيامة؛ لهذا سمي: يوم الحسرة.

٣٣- غفلة الكفار عن يوم الحسرة والقضاء فيه بين العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير، وما أنذروا فيه، وعدم إيمانهم، وكفرهم وجحودهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾.

٣٤- أن لله ميراث السموات والأرض ومن عليها، ومرد الخلق كلهم إليه، وحسابهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: واذكر يا محمد، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾، أي: في القرآن الكريم، ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: قصة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾، الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: قد بلغ الغاية في الصدق في أقواله وأفعاله وأحواله، وغاية التصديق بالحق، ﴿نَبِيًّا﴾ خبر ثانٍ لـ«كان»، أي: أكرمه الله واصطفاه بالنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾، أي: حين قال لأبيه «آزر»: ﴿يَا أَبَتِ﴾، أي: يا أبي، وابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه.

﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ «لم» حرف جر واستفهام، أي: لماذا تعبد؟ فأخرج الكلام معه مخرج السؤال، ولم يقل: لا تعبد؛ احترامًا له، ورفقًا به، وتلطفًا معه.

﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي لا يسمع صوتًا، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ مرئيًّا.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، «شيئًا» نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يغني عنك أي شيء، أي: لا يجلب لك نفعًا، ولا يدفع عنك ضررًا؛ لأنها أحجار وجمادات لا تنفع

ولا تضر، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها، نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، كرر النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هنا وفيما بعده للتأكيد، ولاستعطاف أبيه واستنزاله لقبول الموعظة، لأنها مقام إطناب.

و«ما» موصولة، أي: قد جاءني من العلم الذي لم يأتك، ولم يقل: أنا عالم وأنت جاهل لا علم عندك، أو ليس عندك من العلم شيء، وإنما أتى بألطف عبارة، فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، فكأنه قال: أنت عندك علم لكن جاءني من العلم ما لم يأتك.

﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ﴾، أي: أدلك وأرشدك.

﴿صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾، أي: طريقًا عدلًا مستقيمًا، لا عوج فيه، موصلًا إلى السعادة في الدارين، ونيل المطلوب، والنجاة من المرهوب. وهذا كما قال موسى لفرعون: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات: ١٩].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾، بطاعتك له وعبادتك الأصنام؛ لأن كل من عبد غير الله فقد عبد الشيطان؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ﴾ [النساء: ١١٧- ١١٨]، وقال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس: ٦٠- ٦١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾، تعليل للنهي عن عبادته، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: إنه؛ لزيادة التنفير من الشيطان.

و﴿عَصِيّٗا﴾، صيغة مبالغة، أي: عظيم العصيان، مستكبرًا عن طاعة ربه.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ﴾، أي: يصيبك ﴿عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، بسبب كفرك وشركك، وعصيانك لما آمرك به وأرشدك إليه.

ومن تلطفه مع أبيه أنه نسب الخوف لنفسه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، وذكر لفظ «المس» الذي هو ألطف من غيره، ونكَّر «عذاب» وذكر «الرحمن» ولم يقل: الجبار ولا القهار.

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾، أي: قرينًا متابعًا له فيما هو عليه من الكفر والعصيان، ومصاحبًا له في النار؛ كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل: ٦٣].

وقد تدرج عليه السلام في دعوة أبيه من الأسهل إلى ما فوقه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال أبو إبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، أي: كيف ترغب عن آلهتي؟ والرغبة عن الشيء: تركه والعدول عنه، أي: أراغب أنت عن عبادة آلهتي يا إبراهيم وتاركها وعادل عنها؟

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾، اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته عن سب آلهتي وشتمها وذكرها بالسوء.

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، اللام واقعة في جواب القسم. و«الرجم» يكون بالقول؛ كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، كما يكون بالفعل بالرمي بالحجارة وغيرها.

والمراد بالرجم في الآية: الرجم بالقول، أي: لأرجمنك بسيئ القول والسب والشتم اقتصاصًا منك، وانتصارًا لآلهتي، ويدل عليه قوله بعده:

﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، الهجر بمعنى: الترك، ﴿مَلِيًّا﴾، منصوب على الظرفية، أي: اهجرني واتركني زمنًا طويلًا لا تكلمني.

ويحتمل أن يكون ﴿مَلِيًّا﴾ حالًا من فاعل ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾، أي: اهجرني واتركني حال كونك ﴿مَلِيًّا﴾، أي: سويًا سالمًا من عقوبتي إياك، أي: اهجرني وعرضك وافر، وجسمك معافى من أذاي.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ يقول: اجتنبني سويًّا»(١).

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾، لما أيس عليه السلام من استجابة أبيه له، بعد أن قابله أبوه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٥٤.

بالوعيد والتهديد له، قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾، أي: مسالمة لك يا أبي، فلست فيما دعوتك إليه إلا ناصحًا لك، ولن ينالك مني مكروه ولا أذى لما لم تستجب لي، وهذا منهج الرسل عليهم السلام وأتباعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٥٥].

﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، السين الأولى للاستقبال، والثانية للطلب، أي: سأستغفر لك في المستقبل، أي: أطلب لك المغفرة من ربي، أي: أسأله أن يهديك فيغفر ذنبك ويستره ويتجاوز عنك؛ كما في قوله عليه السلام: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝٤٧﴾، تعليل لقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، أي: لأنه كان بي حفيًّا، أي: ذا احتفاء وعناية بي ولطفًا ورأفة، يجيبني إذا دعوته.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾، الخطاب لأبيه وقومه المشركين، ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، «ما» موصولة، أي: والذي تعبدون من الأصنام والأوثان من دون الله، أي: أبتعد عنكم وأجتنبكم وآلهتكم التي تعبدونها غير الله، وأتبرأ منكم.

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾، أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، وأسأله من فضله.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾، «عسى» هنا تفيد ثقته عليه السلام بأنه لن يشقى بدعائه ربه، بل سيجيب الله دعاءه، ويسعد بذلك، وفي هذا تعريض بالمشركين ودعائهم لآلهتهم، وأن ذلك سبب شقائهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٥٠﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلما اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، وابتعد عنهم وفارقهم والذي يعبدونه من دون الله من الأصنام، حفاظًا على دينه، واعتزازًا به.

﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾، أي: آتيناه ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن

إسحاق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩﴾، أي: وكلًّا من إسحاق وابنه يعقوب جعلنا نبيًّا.

فلما اعتزل عليه السلام أباه وقومه المشركين- في الله ولله- أبدله الله خيرًا منهم، فوهبه ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، وجعل كلًّا منهما نبيًّا في حياة إبراهيم عليه السلام، فأقر الله بهما عينه في حياته، ولم يذكر يوسف بن يعقوب؛ لأنه ولد بعد موت إبراهيم، كما لم يذكر من جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل؛ لأنهم جاؤوا بعد ذلك.

وليست مفارقة الأهل والوطن والعشيرة بالأمر السهل، بل هي أشق الأشياء على النفوس، لكن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾، أي: ووهبنا لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب وعقبهم من رحمتنا بكثرة الأنبياء والصالحين فيهم، وسعة الرزق، وحيازة الأرض المقدسة.

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٥٠﴾، أي: ذكرًا حسنًا، وثناء عطرًا باقيًا في الناس، يدعون لهم، ويصلون ويسلمون عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر خبر إبراهيم خليل الرحمن، وإثبات صديقيته ونبوته، والتذكير بقصته مع أبيه؛ وما في ذلك من الدلالة على فضيلة إبراهيم، وعظيم نعمة الله تعالى عليه، وما فيه من الدروس والعظات والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾ الآيات.

٢- توقيره عليه السلام لأبيه، واحترامه له بندائه له باسم الأبوة: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، فلم يناده باسمه، وتكراره هذا النداء أربع مرات تأكيدًا لاحترامه له، واستعطافًا واستنزالًا له لقبول الموعظة.

٣- إنكاره عليه السلام على أبيه عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني

عن عابدها شيئًا؛ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

٤- بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تملك جلب نفع، ولا دفع ضر، وهكذا كل ما عبد من دون الله، فلا يستحق العبادة إلا من كان سميعًا بصيرًا، بيده جلب النفع ودفع الضر، وهو الله عز وجل وحده.

٥- تلطفه عليه السلام مع أبيه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾، فلم يقل: إني عالم وأنت لا تعلم، أو أنت جاهل، ونحو ذلك.

٦- حرصه عليه السلام على تخليص أبيه من الشرك، وهدايته إلى الصراط المستقيم.

٧- أن الوالدين والأقربين أولى بالإنذار والدعوة والنصح، وأولى بالمعروف؛ كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

٨- أن من عبد غير الله، أو أشرك مع الله غيره؛ فهو عابد للشيطان؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

٩- التحذير من عبادة الشيطان وطاعته؛ لشدة عصيانه لربه، ومخالفته لأمره؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾.

١١- شدة شفقته عليه السلام، وخوفه أن يمس أباه عذاب من الرحمن فيكون قرينًا للشيطان، ومصاحبًا له في النار؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

١٢- أن مقام الدعوة والموعظة مقام يحتاج إلى الإطناب والبسط والتدرج من الأسهل إلى ما فوقه.

١٣- إنكار أبيه عليه رغبته عن عبادة الأصنام، وتهديده له لئن لم ينته عن سبها وشتمها برجمه بسيئ القول، وتوعده إياه بالعقوبة، ونهيه له عن تكليمه زمنًا طويلًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾.

١٤- مسالمة إبراهيم لأبيه لمّا لم يستجب له، وعدم تأنيبه له أو سبه أو شتمه؛ لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾.

١٥- موعدة إبراهيم لأبيه استغفار ربه له، بطلب الهداية له والمغفرة؛ لقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، وقد استغفر عليه السلام لأبيه وفاءً بوعده له، لكنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّيٓۖ﴾.

١٧- عناية الله عز وجل بإبراهيم، ورأفته به، ولطفه واحتفاؤه به؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾.

١٨- عزمه عليه السلام على اعتزال أبيه وقومه وما يعبدون من دون الله من الأصنام، وابتعاده عنهم؛ لقوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

١٩- إفراده عليه السلام ربه بالدعاء والعبادة والمسألة؛ لقوله: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾.

٢٠- ثقته عليه السلام باستجابة ربه لدعائه وعبادته، وأنه سيسعد بسبب دعائه ربه ولن يشقى؛ لقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾، وفي هذا تعريض بشقاء المشركين بدعائهم آلهتهم من دون الله.

٢١- هبة الله تعالى له وإبداله لما اعتزل أباه وقومه المشركين وآلهتهم- في الله ولله- خيرًا منهم: ابنيه إسحاق ويعقوب، وجعلهما نبيين، وهبة الله له ولذريته من رحمته النبوة وسعة الرزق والخير والذكر الحسن والثناء الجميل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾.

٢٢- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

٢٣- ينبغي اعتزال أهل الشرك والكفر والمعاصي والبعد عنهم، حفاظًا على الدين واعتزازًا به.

٢٤- إثبات نبوة إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

٢٥- أن الذكر الحسن للإنسان في حياته وبعد مماته من نعم الله عز وجل على العبد، فهو عاجل بشرى المؤمن في حياته، وينال به العبد في حياته وبعد مماته دعاء الصالحين، واستغفارهم له، وسلامهم عليه، وترضيهم عنه وغير ذلك، فطوبى لمن نقى سريرته، وأحسن في هذه الحياة سيرته، وخلف له ذكرًا حسنًا.

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثًا حسنًا لمن وعى[1]

* * *

(١) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤، وانظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾:

لما ذكر عز وجل إبراهيم الخليل عليه السلام وأثنى عليه، أتبع ذلك بذكر الكليم موسى عليه السلام وأثنى عليه؛ لأنه وجميع أنبياء بني إسرائيل من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ولأن موسى يأتي في الفضل بعد إبراهيم عليهما السلام بين أولي العزم من الرسل، فأولهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى عليهما السلام.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾، أي: واذكر يا محمد في القرآن الكريم خبر موسى الكليم وقصته، وعظيم نعمة الله تعالى عليه، وفضيلته عليه السلام، وما في ذلك من العظات والعبر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام، أي: مصطفًى مختارًا، أخلصه الله واختاره واصطفاه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقرأ الباقون: «مخلِصًا» بكسر اللام، أي: مخلِصًا لله تعالى العبادة، لا يبتغي بعمله سوى وجه الله ومرضاته والدار الآخرة.

وهذان المعنيان متلازمان؛ فإن الله أخلصه؛ لإخلاصه، كما أن إخلاصه موجب لاستخلاصه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فنبأه بوحيه عز وجل إليه، وأرسله بأمره له بتبليغ الناس ما أوحى الله به إليه.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، أي: جبل الطور، جبل بين الشام ومصر، ويقال له: «طور سيناء»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

والمعنى: كلمناه من جانب الطور؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾، أي: من جانب الجبل الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن، أي: الأبرك؛ من اليمن والبركة، كما في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨].

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، أي: مناجيًا لنا.

قال السعدي(١): «والفرق بين النداء والنجاء: أن النداء: هو الصوت الرفيع، والنجاء: ما دون ذلك. وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم».

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾، استجابة لسؤاله وشفاعته في أخيه في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: ٢٩- ٣٦].

وقوله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص: ٣٤]، وقوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشعراء: ١٣- ١٤].

قال بعض السلف: «ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في أخيه هارون أن يكون نبيًّا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾»(٢).

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١١٧.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٢٣٣.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان هارون أكبر من موسى»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾، أي: واذكر في القرآن الكريم خبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقصته وفضله، وهو أكبر ولد إبرهيم، وأمه هاجر، وهو شريك أبيه إبراهيم في بناء الكعبة؛ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ وهو أبو العرب أفضل الشعوب، الذين منهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ، فهو خيار من خيار من خيار.

وفُصل ذكره- والله أعلم- عن ذكر أبيه وأخيه؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره بذكره مستقلًّا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، تعليل لما قبله، أي: إنه لا يعد وعدًا إلا صدق ووفى به وأنجزه، ومن أعظم ذلك: صدقه وعده أباه إبراهيم بأن يجده صابرًا على الذبح؛ كما قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾، جمع الله له بين النبوة والرسالة، وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة.

وقد قال ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(٢).

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾، أي: أمه وأهل بيته وأصهاره جرهمًا وغيرهم.

﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، أي: بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، الواجب منهما والمستحب؛

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٦١.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٠٥، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

لأن الصلاة قوام العبادات البدنية، والزكاة قوام العبادات المالية؛ بالصلاة يتجلى الإحسان في عبادة الله تعالى والإخلاص له، وبالزكاة يحصل الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾، لقيامه بما يرضي ربه عز وجل رضي الله عنه وأرضاه.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾، سبق الكلام على مثله في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

و«إدريس» كان قبل نوح في عمود نسب نوح؛ ولهذا قال الطبري[1] في كلامه على قوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: «فالذي عَنى به «من ذرية آدم» إدريس».

وقال ابن تيمية: «ذكر آدم لأجل إدريس»[2].

وقال ابن كثير[3] بعد ذكر كلام الطبري: «قلت: هذا هو الأظهر؛ أن إدريس في عمود نسب نوح عليه السلام»، أي: أنه من أجداد نوح عليه السلام.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، أي: مكانًا ذا علو وارتفاع في العلم والذكر والمنزلة، ففي حديث أنس رضي الله عنه في خبر الإسراء: أن النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء الرابعة واستفتح جبريل ففتح لهما، فإذا بإدريس فرحب، ودعا بخير، ثم قال: يقول الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾»[4].

وروي عن الحسن وغيره: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: «الجنة»[5].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، الإشارة للأنبياء المذكورين في هذه

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٥/ ٥٦٥.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٨.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٢٣٧.

(٤) سبق تخريجه في مطلع سورة الإسراء.

(٥) ذكره في «تفسيره» ٥/ ٢٣٦.

السورة وغيرهم من الأنبياء، أي: إلى جنس الأنبياء كلهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تعظيمًا لهم، ورفعة لمنزلتهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقيل: إن الإشارة تعود إلى الأنبياء المذكورين في السورة فقط، والأول أولى؛ لقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾، وهذا يعم جميع الأنبياء وغيرهم ممن هداه الله واجتباه.

قال ابن كثير[1]: «ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية: جنس الأنبياء؛ أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾، إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٣- ٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

عن مجاهد أنه قال لابن عباس: «أفي «ص» سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فنبيكم محمد أُمر أن يَقتدي بهم، قال: وهو منهم يعني: داود»[2].

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قال الطبري[3]: «فالذي عَنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عَنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عَنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم؛ ولذلك فرّق تعالى في أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم ﷺ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع سفينة نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جد نوح».

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٣٢.

(٣) في «جامع البيان» ١٥/ ٥٦٥، وانظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٨.

وقال ابن كثير(١): «قلت: هذا هو الأظهر: أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام.

وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل: «والولد الصالح» كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام».

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾، أي: ومن الذين وفَّقْنا للإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾، أي: وممن اصطفينا واخترنا لرسالاتنا ووحينا وطاعتنا.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾، أي: إذا تقرأ عليهم آيات الرحمن التي أنزلها على رسله، الدالة على عظمته عز وجل ورحمته، والمتضمنة الحجج والبراهين ودلائل الإعجاز والعظات والعبر، والوعد والوعيد.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، قرأ حمزة والكسائي بكسر الباء: «بِكِيًّا»، وقرأ الباقون بضمها: «بُكيًّا».

و ﴿سُجَّدًا﴾، حال، أي: خروا على الوجوه والأذقان سجدًا لله تعالى وخضوعًا له، واستكانة وتعظيمًا، وشكرًا له على نعمه العظيمة، والتي أعظمها وأجلها نعمة الهداية والإيمان والاصطفاء.

«البكي»: جمع «باكٍ»، وهي معطوفة على «سجدًا»، أي: حال كونهم يبكون من خشية الله.

عن أبي معمر، قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد فيها، فقال: هذا السجود، فأين البكي؟ يريد البكاء»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- ذكر خبر موسى الكليم وقصته، ونعمة الله وثنائه عليه، والتذكير بذلك؛ لما فيه من الدروس والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ الآية.

٢- فضيلة موسى عليه السلام؛ لاصطفاء الله تعالى له واختياره، ولإخلاصه عليه

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٦٧.

السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾.

٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام ونبوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

٤- إثبات نداء الله عز وجل، وتكليمه لموسى، وتقريبه ومناجاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾.

٥- أن نداء الله عز وجل لموسى كان من جانب الطور الأيمن منه عليه السلام في وقت مسيره، أو الأيمن: ذو اليمن والبركة.

٦- منة الله تعالى على موسى عليه السلام، وهبته عز وجل من رحمته أخاه هارون نبيًّا؛ استجابة لسؤاله وشفاعته في أخيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

٧- التذكير بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقصته، وبيان فضائله، وما في ذلك من العظات والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾الآيتين.

٨- إبراز كمال عناية الله عز وجل بإسماعيل، بذكره مستقلًّا عن أبيه وأخيه إسحاق.

٩- امتداحه والثناء عليه بكونه صادق الوعد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

١٠- فضيلة صدق الوعد، والترغيب فيه؛ لأن الله امتدح به إسماعيل عليه السلام، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣].

وقال ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر**»[(١)]، وقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[(٢)].

١١- إثبات رسالة إسماعيل ونبوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٠٧، وأبو داود في الأدب ٤٩٨٩، والترمذي في البر والصلة ١٩٧١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، علامة المنافق ٣٣، ومسلم في الإيمان، صفات المنافق ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- أن إسماعيل أشرف من إسحاق عليهما السلام؛ لأن الله وصف إسماعيل بالرسالة والنبوة، ووصف إسحاق بالنبوة فقط.

١٣- قيامه عليه السلام على أهله بأمرهم بالصلاة والزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.

١٤- أن الأقربين أولى بالأمر والنهي والدعوة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1].

وقال ﷺ: «**رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، ثم أيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، ثم أيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»[2].

١٥- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الدين؛ لذكرهما خاصة من بين العبادات.

١٦- إثبات تمام رضا الله عز وجل عن إسماعيل، وربوبيته عز وجل الخاصة به؛ لقيامه بما يرضي ربه، فرضي الله عنه وأرضاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

١٧- كما يدين المرء يدان، فمن حفظ الله وعمل بما يرضيه، حفظه الله ورضي عنه وأرضاه.

١٨- ذكر إدريس عليه السلام في القرآن الكريم، والثناء عليه بصديقيته وإثبات نبوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

١٩- عظم منزلة إدريس عليه السلام عند الله عز وجل، ورفعته له؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٨٩٥، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقال: «حديث غريب حسن».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، الحث على قيام الليل ١٣٠٨، والنسائي في قيام الليل ١٦١٠، وابن ماجه في إقام الصلاة، ما جاء فيمن أيقظ أهله ١٣٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠- ثناء الله عز وجل على هؤلاء الأنبياء، الذين ذكرهم في السورة ثناءً عامًّا، بعد أن أثنى على كل منهم ثناء خاصًّا، وثناؤه عز وجل على جميع الأنبياء غيرهم بإنعامه عليهم بالنبوة، وهدايته إياهم، واجتبائهم وخضوعهم وخشوعهم له، وخرورهم إذا تتلى عليهم آيات الله سجدًا وبكيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

٢١- ينبغي الاقتداء بهؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم بالنبوة وهداهم واصطفاهم، في أخلاقهم وصفاتهم وأعمالهم، وما ذكر من أحوالهم؛ لأن من أعظم الحكم في ذكرهم: الإغراء والحث على الاقتداء بهم، كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولهذا يشرع السجود عند هذه الآية بإجماع أهل العلم؛ اقتداء بأنبياء الله كما أمر الله عز وجل.

٢٢- ينبغي إحضار القلب عند قراءة القرآن وسماعه، والخضوع والتدبر، عسى القلب أن يخشع، وعسى العين أن تدمع، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، على النبي ﷺ سورة النساء، ولما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «**أمسك**» فإذا عيناه تذرفان(١).

٢٣- الحذر من قسوة القلب والإعراض، وعدم تدبر آيات الله والاتعاظ بها، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ۝٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ۝٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣﴾.

بعدما ذكَّر عز وجل بأنبيائه، وأثنى عليهم وعلى من اتبعهم ممن هداهم الله واجتباهم، للاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، أتبع ذلك بذم خلوف جاءت بعدهم، بسبب تضييعهم الصلوات، واتباعهم الشهوات، وتوعدهم وهددهم. وفي ذلك تنفير وتحذير من مسلكهم.

قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾، أي: فخلف من بعد أولئك الأنبياء الأطهار وأتباعهم الأخيار، أي: جاء بعدهم «خلف» و«الخلْف» بسكون اللام: عقب السوء، وبفتحها: عقب الخير.

قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾، أي: خلْف سوء، وهذا يشمل جميع الأمم التي ضلت بعد أنبيائها، فبعد ذهاب كل نبي وأتباعه يأتي بعدهم خلوف حالهم كما قال تعالى:

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: فرطوا فيها، إما بتركها، أو الإخلال بشروطها وأركانها وواجباتها، وتفويت وقتها، وغير ذلك.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥] هل هو عن فعل الصلاة- يعني: تركها بالكلية- أو السهو فيها، كما جرت العادة من صلاة الغفلة الذين لا يعقلون من صلاتهم شيئًا؟ فأجاب:

«بل المراد بهاتين الآيتين: من أضاع الواجب في الصلاة، لا مجرد تركها، هكذا فسرها الصحابة والتابعون، وهو ظاهر» إلى أن قال: «وهكذا فسروا قوله: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، بأن إضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وإضاعة حقوقها»(١).

وقال ابن القيم: «وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها، والتحقيق: أن إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها وواجباتها وأركانها، وأيضًا فإن مؤخرها عن وقتها عمدًا متعدٍّ لحدود الله، كمقدمها عن وقتها، فما بالها تقبل مع تعدي هذا الحد، ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر؟»(٢).

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: واتبعوا ما تشتهيه نفوسهم من الشهوات: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة اتباع الهوى.

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، أي: خسارًا وشرًّا وخيبة يوم القيامة في جهنم، وفي هذا أشد الوعيد والتهديد.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، «إلا» أداة استثناء بمعنى: «لكن»؛ لأن الاستثناء منقطع، وقيل: متصل.

و«من» موصولة، أي: إلا الذي تاب من الكفر والمعاصي، وتضييع الصلاة، واتباع الشهوات، فأقلع عن ذلك وندم عليه، وعزم على عدم العودة إليه، مخلصًا لله، في وقت تقبل فيه التوبة.

﴿وَءَامَنَ﴾، أي: وآمن بقلبه، أي: صدق بكل ما أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٤٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٤٣.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا بجوارحه، وحذف الموصوف واكتفى بالصفة «صالحًا»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

أي: إلا من تاب ورجع وأناب إلى الله تعالى، وآمن باطنًا وظاهرًا، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له[1]؛ ولهذا قال:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: فأولئك التائبون المؤمنون العاملون الصالحات يدخلون الجنة، مجازاة لهم على توبتهم وإيمانهم وعملهم الصالح، وأشار إليهم بإشارة البعيد تشريفًا لهم.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا» نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يظلمون أي شيء بنقص من حسناتهم وأجورهم، أو بزيادة في سيئاتهم، بل تبدل سيئاتهم حسنات كرمًا من الله تعالى وفضلًا؛ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، «جنات» بدل من «جنة»، و«جنات» مضاف، و«عدن» مضاف إليه، من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«عدن» بمعنى: إقامة، أي: جنات إقامة أبدية لا تنقطع ولا تفنى.

﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلق بـ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: التي وعد الرحمن عباده المؤمنين بظهر الغيب، فآمنوا بها وعملوا لها وما رأوها؛ لقوة إيمانهم وشدة يقينهم، ولو رأوها لكانوا أشد طلبًا لها؛ كما في حديث: «**يسألونك الجنة، قال: وهل رأوها؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو أنهم رأوها؟ قالوا: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة**»[2].

ويحتمل أن يكون ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلقًا بـ ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فكيف لو رأوه؟ لكن الاحتمال الأول أولى؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التوبة ٤٢٥٠، من حديث عبيدة بن عبدالله عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقوله بعده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾، أي: موعوده، ﴿مَأۡتِيّٗا﴾، أي: آتيًا لا محالة، ولا بد من وقوعه؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، كما قال تعالى: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾ [المزمل: ١٨].

وأيضًا: كان موعوده مأتيًّا إليه، أي: العباد صائرون وآتون إليه.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾، أي: لا يسمعون في هذه الجنات «لغوًا»، أي: كلامًا لاغيًا، باطلًا ساقطًا، لا فائدة فيه، ولا معنى له.

﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو استثناء منقطع بمعنى: «لكن»، أي: لكن يسمعون فيها سلامًا من الله تعالى عليهم، ومن الملائكة، ومن بعضهم لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦]، وقال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ [يونس: ١٠].

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا﴾، أي: ولهم عطاؤهم وطعامهم في الجنات؛ من المآكل والمشارب وأنواع اللذات.

﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾، أي: في جميع الأوقات لا ينقطع، فمنتصف الوقت الأول: «بكرة»، ومنتصفه الثاني: «عشيًا»، وذلك بتقدير الوقت؛ لأنه ليس هناك ليل ولا نهار، بل هم في ضوء ونور أبدًا.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾، قرأ رويس: «نُوَرِّثُ» بفتح الواو وتشديد الراء، وقرأ الباقون بالإسكان والتخفيف: ﴿نُورِثُ﴾.

وأشار إليها بإشارة البعيد: «تلك» تعظيمًا لها، أي: تلك الجنة العظيمة ﴿ٱلَّتِي نُورِثُ﴾، أي: نعطي ﴿مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾، أي: من كان تقيًّا لله تعالى، ممتثلًا ما أمر الله به، مجتنبًا ما نهى الله عنه؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل

عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾:

سبب النـزول:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**ما يمنعك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية**»(١).

قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، أي: وما نتنزل نحن الملائكة إلا بأمر ربك يا محمد، الذي له وحده الأمر والنهي والتدبير، أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرًا، فنحن عبيد مأمورون؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، اللام: لام الملك والتدبير، و«ما» موصولة.

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾، أي: الذي أمامنا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾، أي: الذي وراءنا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: الذي عن أيماننا وعن شمائلنا؛ لأن ما كان بين اليمين والشمال هو ما بين الأمام والخلف.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٥، والترمذي في التفسير ٣١٥٨.

والمراد: له خاصة: الملك والتدبير في الدنيا والآخرة، وما بينهما، أي: في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، أي: وما كان ربك يا محمد نسيًّا، أي: أنه عز وجل منزه عن النسيان لكمال علمه؛ كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

وقال ﷺ: «**وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**»[١].

والمراد: وما كان ربك يا محمد لينساك ويهملك، بل لم يزل معتنيًا بك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٣].

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، تعليل لكمال علمه وتنزهه عن النسيان، أي: خالق السموات والأرض والذي بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾، أي: فاشتغل بعبادته يكفك كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، أي: واصبر لعبادته، والاصطبار: شدة الصبر.

وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعبد عن جميع التعلقات والشواغل.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، أي: مثيلًا ومضاهيًا في ذاته وصفاته، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا تعلم له سميًّا من جميع الوجوه، لا عقلًا ولا سمعًا.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الخَلْف الذين جاؤوا بعد الأنبياء وأتباعهم الصالحين؛ لإضاعتهم الصلاة واتباعهم الشهوات، وتوعدهم وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

٢- عظم مكانة الصلاة وخطر إضاعتها، وأن تركها كفر؛ لأن الله رتب على إضاعتها هذا الوعيد الشديد؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» ٤/ ٢٩٧- ٢٩٨، والحاكم ٤/ ١٢٩ وصححه، كما صححه ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٥٢، وقد سبق ذكر الحديث بتمامه من حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه.

فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١).

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة**»(٢).

٣- التحذير من إضاعة الصلاة بتركها، أو الإخلال بشروطها وواجباتها، ومن اتباع الشهوات، وخطر ذلك؛ لأن الله ذم الخلف بسبب ذلك؛ وتوعدهم وهددهم بالخيبة والخسران، والعذاب يوم القيامة.

٤- كرم الله تعالى وفضله على العباد بفتح باب التوبة لهم، والحث عليها وعلى الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٥- أن التوبة تجب ما قبلها، وأن الإسلام يجب ما قبله.

٦- لا بد من الجمع بين الإيمان باطنًا، والعمل الصالح ظاهرًا، أي: الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٧- لا بد من كون العمل «صالحًا»، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٨- منة الله عز وجل على من تاب وآمن وعمل صالحًا بعفوه عنهم، وإدخالهم الجنة دار الخلد والنعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾الآيات.

٩- كمال عدله عز وجل في حساب الخلائق، ومجازاة كل بعمله من غير نقص من حسناته، أو زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

١٠- أن الجنات دار إقامة أبدية لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

١١- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل: رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨٢، وأبو داود في السنة ٤٦٧٨، والترمذي في الإيمان ٢٦١٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما جاء فيمن ترك الصلاة ١٠٧٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٢١، وابن ماجه ١٠٧٩، وأحمد ٥/ ٣٤٦، ٣٥٥، من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

١٢- إثبات عبودية المؤمنين لله عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَهُۥ﴾، ﴿عِبَادِنَا﴾.

١٣- ثناء الله عز وجل على المؤمنين بإيمانهم بالغيب؛ لإيمانهم به عز وجل وبما وعدهم من الجنات مما لم يروه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

١٤- أن وعد الله تعالى وموعده آتٍ لا محالة، لا بد من إتيانه، والمصير إليه؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾.

١٥- تنزيه أسماع أهل الجنة وتطهيرها، فلا يسمعون فيها إلا سلامًا من ربهم، أو من الملائكة، أو من بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

وفي هذا من النعيم المعنوي ما قد يفوق النعيم الحسي، نسأل الله من فضله.

١٦- أن رزق أهل الجنات وطعامهم على الدوام في جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

١٧- تعظيم الجنة والتنويه بها، وأنه عز وجل خص بتوريثها أهل عبادته وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾..

١٨- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ لأنه عز وجل خص بتوريث الجنة أهل تقواه.

١٩- أن جبريل وغيره من الملائكة لا يتنزلون إلا بأمر الرب عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢١- أن له عز وجل ملك وتدبير أمر الكون كله، وأمر الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

٢٢- تمام علم الله عز وجل، وتنزهه عن النسيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

٢٣- تسليته ﷺ، والإشارة إلى عناية الله تعالى به، وأنه عز وجل ما كان لينساه.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للكون كله؛ السموات والأرض وما بينهما، وسعة ملكه، وكمال خلقه، وتمام تدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

٢٥- أمر الله عز وجل له ﷺ بالاشتغال بعبادته والصبر عليها، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتعريض بعدم الاشتغال بغير ذلك؛ لأن الله سيكفيه ما أهمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾.

٢٦- أن في الاشتغال بعبادة الله تعالى تسلية عن كل شاغل، وعوض عن كل فائت.

٢٧- أنه لا سمي لله تعالى ولا مثيل ولا شبيه، ولا ند ولا مضاهي؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: الكافر المنكر للبعث.

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، و«ما» زائدة للتوكيد، أي: ويقول الإنسان الكافر منكرًا للبعث ومتعجبًا ومستبعدًا لإعادته بعد موته: أئذا مت وصرت رميمًا وترابًا ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؟! اللام للتوكيد، و﴿حَيًّا﴾، حال، أي: لسوف أخرج من قبري حيًّا، أي: هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا حسب عقله القاصر، وتصوره الفاسد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧- ٧٩].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الذال والكاف مع ضم الكاف: ﴿يَذْكُرُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدهما وفتح الكاف: «يذّكّر».

والاستفهام للإنكار والتعجيب من ذهول الإنسان المنكر للبعث عن خلقه الأول، أي: أولا يذكر الإنسان أن الله خلقه من قبل ولم يك شيئًا يذكر، بل كان عدمًا، فيستدل بذلك على قدرته عز وجل على إعادته بعد موته، أي: فيستدل بالبداءة والخلق الأول على الإعادة والخلق الثاني؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ

أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئًا أحد**»(١).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، الفاء: استئنافية، والواو: للقسم، أي: أقسم بربك يا محمد، وفي إقسامه عز وجل بنفسه تعظيم لنفسه الشريفة، وتأكيد لهذا الخبر- وهو عز وجل أصدق القائلين- على ما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار الهامة بالقسم، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنجمعن هؤلاء المشركين المنكرين للبعث، والشياطينَ الذين كانوا يعبدونهم من دون الله.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، «ثم» حرف عطف هنا وفي المواضع بعده، واللام للقسم هنا، وفي قوله: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾، وقوله: ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ﴾.

﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾، أي: باركين على ركبهم من شدة الهول، خاضعين ذليلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، النزع: إخراج الشيء من غيره، والشيعة: الفرقة التي شايع بعضها بعضًا، وغالب ما يستعمل في الذم؛ ولهذا لا يطلق إلا على فرق الضلال؛ لتفرقهم واختلافهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٩٧٤، والنسائي في الجنائز، وأحمد ٢/ ٣٥٠، ٣٥١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الشاعر:

فتفرقــوا شــيعًا فكــل مدينــة فيهــا أمــير المــؤمنين ومنــبرُ(١)

والمعنى: ثم لنخرجن من كل فرقة من فرق المشركين والظالمين وأهل البدع، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾، أي: تمردًا وعصيانًا وتجبرًا، أي: الأشد فالأشد كفرًا وظلمًا وتمردًا، والأغلظ فالأغلظ إثمًا وجرمًا وعقوبةً وعذابًا، فنلقيهم في نار جهنم.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾»(٢).

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٣٩﴾ [الأعراف: ٣٨- ٣٩].

وهذا جزاء وفاقًا لأعمالهم، فيتوجه العذاب إلى السادات والكبراء أولًا، ثم تكون الأتباع تبعًا لهم فيه؛ كما كانوا تبعًا لهم في الدنيا.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾، ﴿صِلِيًّا﴾، تمييز منصوب، أي: لنحن أعلم بالذين هم أولى بجهنم، أي: بمن هم الأولى بدخول جهنم، ومقاساة حرها، ومضاعفة عذابها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾:

قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، الخطاب لجميع للخلائق إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، و«إلا» أداة حصر، والضمير في ﴿وَارِدُهَا﴾ يعود إلى جهنم، وهذا قسم من الله تعالى، والتقدير: وإن منكم والله إلا واردها، أي: إلا وارد جهنم، يدل على

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «ديوان الحماسة» ١/ ١٧٦.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢٤٦.

هذا قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد يلج النار إلا تحلة القسم**»[1]، والمراد بتحلة القسم: الورود على النار.

والورود: الدخول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمعنى: ما منكم أحد إلا وهو وارد جهنم، أي: داخلها، وهذا ما يدل عليه ظاهر السياق، فجميع الخلق يردون جهنم، أي: يدخلونها كلهم برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وذلك بمرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم على قدر أعمالهم.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: كان ورودهم جهنم على ربك يا محمد ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: أمرًا محتومًا لازمًا، وحكمًا مقضيًا لا بد من وقوعه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، أي: ثم بعد ورود الخلق كلهم جهنم، وتساقط المجرمين فيها والكفار، وأهل المعاصي والأوزار، بحسب كفرهم وسوء أعمالهم، ﴿نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، أي: نخلص الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه منها، فيجتازونها ويعبرون الصراط، سرعتهم على قدر أعمالهم، ثم يُشفع الله الملائكة والنبيين والمؤمنين بأصحاب الكبائر من المؤمنين، ويُخرج من النار كل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وكل من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، ولو لم يعمل خيرًا قط.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، أي: ونترك الظالمين بالشرك والكفر في جهنم ﴿جِثِيًّا﴾، أي: باركين على ركبهم.

وعن حفصة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرًا والحديبية. قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، فضل من مات له ولد فاحتسب ١٢٥١، وابن ماجه في الجنائز ١٦٠٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٢، ٣٨٥.

وقد روي أن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه بكى في مرضه، فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا(١).

الفوائد والأحكام:

١- إنكار المشركين والكفار للبعث والمعاد وحياة الأجساد بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

٢- إثبات قدرة الله تعالى التامة على البعث؛ لأنه خلق الإنسان من قبل ولم يك شيئًا، فهو سبحانه قادر على بعثه وإعادته من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

٣- إقسام الله عز وجل بنفسه الشريفة على حشر المشركين والمنكرين للبعث، والشياطين الذين يعبدونهم من دون الله، وإحضارهم حول النار جثيًّا على الركب؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾.

٥- إثبات البعث بعد الموت، وجمع الخلائق للحساب والجزاء، وإثبات جهنم.

٦- التحذير من عبادة الشياطين، واتباعهم في الكفر وتزيين المعاصي، وإنكار البعث وغير ذلك.

٧- أن أول الظالمين إدخالًا للنار وإصلاءً فيها الأشد فالأشد منهم عتوًّا وكفرًا وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذا أعظم التهديد والوعيد لهم.

٨- إثبات اسم الله «الرحمن» وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٩- علم الله عز وجل التام بمن هم أولى دخولًا للنار ومقاساة لحرها، لشدة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٩٤، ٥٩٦.

كفرهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

١٠- إثبات وتأكيد ورود جميع الخلائق نار جهنم؛ إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، ومرورهم على الصراط المنصوب على متنها، وأن ذلك أمر محتم، وقضاء مبرم، لا بد منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

١١- تخليص المتقين من النار باجتيازهم وعبورهم الصراط على قدر أعمالهم، وشفاعة الملائكة والأنبياء والمؤمنين لأهل الكبائر منهم، وبرحمة أرحم الراحمين وإخراجه من النار كل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وكل من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾.

١٢- ترك الظالمين والمجرمين في النار جثيًّا على الركب بعد ورودهم عليها وسقوطهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

١٣- الترغيب في تقوى الله، والترهيب من الظلم والكفر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: وإذا تقرأ على الكفار المكذبين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آيات الله «القرآن الكريم».

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: واضحات، ظاهرات الدلالة على أنها حق وجاءت بالحق، وأن المؤمنين بها هم الذين على الحق.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، بالله ورسله وآياته، مغترين بحالهم، محتجين على صحة ما هم عليه من الكفر، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، محتقرين لهم، متكبرين عليهم؛ لما هم فيه من الفقر وخشونة العيش.

﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾، استفهام تقريري، أي: أي الفريقين: نحن أو أنتم؟

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، قرأ ابن كثير بضم الميم: «مُقامًا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مَّقَامًا﴾، أي: منزلًا ومسكنًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٧].

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، أي: مجلسًا وناديًا، والندي: المجلس والنادي الذي يجتمع فيه الرجال؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

أي: أننا خير مقامًا، أي: خير منكم في أماكن إقامتنا، أي: في منازلنا ودورنا وقصورنا.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: وأحسن نديًّا منكم، فنادينا أعمر، ورواده أكثر، وهو أظهر وأشهر، وهم في هذا يعرِّضون بدار الأرقم بن أبي الأرقم التي يجتمع فيها المؤمنون، وهذا

كما قال الله تعالى عنهم في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، وكما قال قوم نوح له عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾ [الشعراء: ١١١].

وهذا منهم قلب للحقائق؛ لأن ما افتخروا به من كونهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾ قد يكون سببًا لهلاكهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، الواو استئنافية، و«كم» خبرية للتكثير، و ﴿قَرْنٍ﴾ بمعنى: «أمة»، أي: وكثير من القرون، أي: الأمم أهلكناهم قبلهم بسبب كفرهم.

﴿هُمْ﴾، أي: هؤلاء القرون المهلكون، ﴿أَحْسَنُ﴾، أي: أحسن من هؤلاء المشركين المكذبين له ﷺ.

﴿أَثَٰثًا﴾، أي: متاعًا؛ من أوانٍ وملابس، وفرش وزخارف، وبيوت وأموال، وغير ذلك.

﴿وَرِءْيًا﴾، أي: مناظر وأشكالًا.

أي: فلم ينفعهم ولم يمنعهم من عذاب الله ما هم فيه من النعيم، مع كونهم ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ من هؤلاء المكذبين للنبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾.

لما ذكر اغترارهم وتكبرهم بسبب ما هم فيه من النعم، واحتقارهم للمؤمنين، وتوعدهم وهددهم بما حل بالمكذبين قبلهم، مع أنهم أحسن تنعمًا منهم، أتبع ذلك ببيان أن ما هم فيه من الإمداد هو من الاستدراج لهم.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المغترين بما هم فيه من النعم:

﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾، بأن اختار الضلالة ورضيها لنفسه، فأحاطت به إحاطة الظرف بالمظروف، فبعد كل البعد عن الهدى.

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾، بما هو فيه من الضلالة، عقوبة له على اختياره الضلالة، فيمهله ويملي له استدراجًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: إلى غاية إذا رأوا، أي: إذا رأى هؤلاء الضالون الذي يوعدون به ويُهددون.

﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾، «إما» في الموضعين حرف تفضيل، أي: إما العذاب العاجل في الدنيا بالقتل والإهلاك بأنواع العقوبات الدنيوية.

﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، أي: وإما أن تأتيهم الساعة، أي: القيامة، بغتة فيؤخذون بعذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٠٧﴾ [يوسف: ١٠٧].

﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾، هذا في مقابل زعمهم أنهم ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ۝٧٣﴾، وهدم له من أساسه.

والفاء في قوله: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ رابطة لجواب الشرط «إذا»، والسين لتوكيد حصول العلم، أي: فسيعلمون حين يرون العذاب العاجل في الدنيا، أو عذاب القيامة في الآخرة.

﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: أنهم هم شر مكانًا، وليسوا كما يدعون: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾.

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾، أي: وأنهم هم أضعف جندًا، وليسوا أحسن نديًّا؛ كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

لما ذكر أنه يمد للضالين في ضلالهم عدلًا منه؛ لاختيارهم الضلال لأنفسهم، أتبع ذلك ببيان أنه يزيد الذين اهتدوا هدى فضلًا منه؛ لاختيارهم الهدى.

قوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى العلم النافع والعمل الصالح، بتوفيق الله ﴿هُدًى﴾، أي: إيمانًا وعلمًا وعملًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، أي: الأعمال الصالحات التي تبقى ويبقى ثوابها؛ من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة، وقراءة وتسبيح وتحميد وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، إلى غير ذلك من أعمال بدنية وقلبية.

قال ﷺ: «**ما لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**» وفي بعض الروايات: «**فأبقيت**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها غير كتفها**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله**

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢، من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٧٠.

وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله»(١).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في نعيم القبر وعذابه، قال ﷺ: **«ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح»**(٢).

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾، «خير» خبر «الباقيات»، أي: الخير كل الخير فيها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، وهذا مما يزيدها خيرية وعظمة، أي: عند ربك يا محمد ويا أيها المخاطب، ﴿ثَوَابًا﴾، أي: جزاء.

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، أي: وخير مردًّا على صاحبها، ومرجعًا وعاقبة يستمر ثوابها، ويبقى نفعها؛ كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الكفرة والمكذبين، وعلى الناس أجمعين، بإنزال الآيات البينات وتلاوتها عليهم، التي فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾.

٢- اغترار الكفار بما منحهم الله ووسع عليهم من المنازل والدور والقصور، وبمجالسهم التي يجتمعون فيها، واحتقارهم المؤمنين بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

٣- الوعيد والتهديد للمشركين بأن يحل بهم ما حل بكثير من القرون والأمم المكذبة قبلهم، لما عصوا الله وكذبوا رسله، مع أنهم أحسن أثاثًا ومتاعًا، ومناظر وأشكالًا منهم، فلم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عذاب الله، وفي هذا عظة وعبرة لهم ولكل من كفر من هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٩.

(٢) سبق تخريجه.

٤- ليس في إدرار النعم في الدنيا دلالة على أن صاحبها على الحق، ولا على خيريته في الآخرة، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

٥- عقوبة الله تعالى للضالين عدلًا منه؛ بسبب اختيارهم للضلال، واستدراجه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

٦- التهديد والوعيد للكفار الضالين بالعذاب العاجل في الدنيا، أو الآجل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الآية.

٧- أن وعد الله تعالى ووعيده حق، واقع وكائن لا محالة.

٨- علم الكفرة وأهل الضلالة تمام العلم عند رؤيتهم العذاب أنهم هم شر مكانًا، وأضعف جندًا، ولم ينفعهم أو يدفع عنهم غرورهم بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾، لقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾.

٩- أن القوة لله جميعًا، وأن العاقبة الحسنى لمن آمن بالله، وأن العقوبة العظمى لمن كفر بالله.

١٠- زيادة الله الذين اهتدوا هدىً، فضلًا منه وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

١١- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وفي هذا رد على المرجئة.

١٢- الإغراء والحث والترغيب بالأعمال الصالحات؛ لأنها هي الباقية، الباقي ثوابها وجزاؤها، المحمودة عقباها، المستمر نفعها وأثرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾.

سبب النـزول:

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: «كنت رجلًا قينًا، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قال: قلت: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لمبعوث من بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعتُ إلى مالٍ وولدٍ. قال: فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾»(١).

وفي لفظ: «كنت قينًا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفًا، فجئت أتقاضاه، وذكر الحديث وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾ قال: مَوْثِقًا»(٢).

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾، قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وإسكان اللام: «وَوُلْدًا» في هذا الموضع والمواضع الثلاثة بعده، وقرأ الباقون فيها بفتح الواو واللام: ﴿وَوَلَدًا﴾، والمعنى واحد؛ قال رؤبة بن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٥، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح ٢٧٩٥، وأحمد ٤/ ١١١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٣.

العجاج[1]:

الحمـــد لله العزيـــز فـــردًا لم يتخـــذ مـــن وُلـــد شيء وُلْـــدَا

وقيل: «الوُلد» بالضم جمع، و«الوَلَد» بالفتح مفرد.

والاستفهام للتعجيب من كفره بآيات الله، ودعواه أنه من أهل الجنة، وأنه سيعطى كذا وكذا.

والمعنى: أفعلمت الذي كفر بآيات الله، وقال مقسمًا: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، أي: في الجنة؛ غرورًا منه وكذبًا على الله واستهزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠] وقال تعالى عن صاحب الجنتين أنه قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي: أأشرف على الغيب فعلم أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا، حتى حلف على ذلك؟!

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾، «أم»: حرف عطف، أي: أم له عند الرحمن عهد وميثاق بأنه سيؤتى ذلك، فأيقن بحصوله؟ والجواب: لا هذا ولا هذا، فلا هو اطلع الغيب، ولا قدرة له ولا لأحد من الخلق على ذلك؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ولا عهد ولا ميثاق له عند الله بذلك، ولم يشهد بشهادة الحق: لا إله إلا الله، فيرجو بها ذلك.

حاله كما قال الشاعر:

ترجـو النجـاة ولم تسـلك مسـالكها إن السـفينة لا تجـري عـلى اليـبسِ[2]

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٥/ ٦٢.

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «زهر الآداب» ٣/ ٨٧١، «مجاني الآداب» ٢/ ١٤، وهو في «ديوان عبدالله بن المبارك» ص٢٦.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر له، وتكذيب له، ونفي لما يقول.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: سنكتب قوله، أو الذي يقوله من كفر وكذب، ومن تمنٍّ باطل بقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ وغير ذلك، ونحصيه عليه ونحفظه ونحاسبه عليه ونجازيه به؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾، أي: ونزيد له من العذاب ﴿مَدًّا﴾، أي: زيادة عظيمة، باستدراجه، وزيادة العذاب له ومضاعفته، جزاء كفره وكذبه، واغتراره بنعم الله واستهزائه.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، أي: وننزع عنه ونسلبه الذي يقول، أي: الذي آتيناه من مال وولد، وما جمع في الدنيا وما عمل فيها.

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: وحده، فريدًا وحيدًا، بلا مال ولا ولد ولا أهل، ولا أنصار ولا أعوان، في ذلك الموقف العظيم، وفي هذا تهديد ووعيد له خاصة، ولمن سلك مسلكه في الكفر والاغترار والكذب على الله، وإلا فإن الخلق كله سيأتي الله فردًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾، أي: واتخذ الكفرة والمشركون غير الله آلهة عبدوهم وأشركوهم.

﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يكونوا لهم عزًّا، يتعززون ويستنصرون بهم، ويشفعون لهم عند الله حسب زعمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

﴿كَلَّا﴾، للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل:

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: سيكفر هؤلاء الآلهة يوم القيامة بعباده المشركين لهم وينكرونها، وينفون استحقاقهم لها؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٣- ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل: ٨٦].

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: أعداء وخصماء أشداء لهم، وأعوانًا عليهم، يكذبونهم ويخاصمونهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الاستفهام للتعجب، أي: ألم تر أنا سلطنا الشياطين على الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، أي: تزعجهم إلى الكفر والمعاصي إزعاجًا، وتحرضهم تحريضًا، وتغويهم بذلك إغواء، وتغريهم به إغراء، وتصدهم عن الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فلا تعجل يا محمد على هؤلاء الكافرين وقوع العذاب بهم، وإن استعجلوه لجهلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾، تعليل للنهي السابق، أي: لأننا إنما نعد لهم عدًّا، فلهم أيام معدودة، ولهلاكهم أجل محدود معلوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

فهو واقع بهم لا محالة، وهم صائرون إليه ولا بد، نمهلهم ولا نهملهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، «يوم»، أي: يوم القيامة، ﴿نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: نجمع المتقين، الذين اتقوا الله في الدار الدنيا بفعل ما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، «وفدًا» جمع «وافد»، وهو القادم مكرمًا معززًا، أي: وفودًا مكرمين، ركبانًا على النجائب، ضيوفًا على أكرم الأكرمين إلى جنته.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: ندفعهم بشدة وعنف إلى جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]؛ يدفعون إليها بشدة وعنف.

﴿وِرْدًا﴾، أي: مشاة عطاشًا، و«الورد» يطلق على الماء المورود، ويطلق على الواردين.

والمعنى: ونسوق المجرمين بعنف وشدة إلى جهنم مشاة عطاشًا ذليلين خائفين.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، أي: لا شافع لهم، ولا تنالهم الشفاعة، ولا تنفعهم لو شُفع فيهم؛ كما قال تعالى مخبرًا عن قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ

﴿١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١] وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، الاستثناء منقطع، و«إلا» بمعنى: «لكن»، و«من» موصولة، أي: لكن الذي ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، أي: الذي جعل عند الرحمن عهدًا وموثقًا بشهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان والعمل الصالح، فإنه يملك الشفاعة، أي: تناله الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- التعجيب من شدة غرور من جمع بين الكفر بآيات الله وقوله: إنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ لا شك أن هذا غاية الغرور.

٢- إبطال قول هذا المدعي، والإنكار عليه، والتعجيب من قوله؛ لأنه لم يطلع الغيب، ولا قدرة له ولا لغيره من الخلق على ذلك، وليس له عهد وميثاق عند الله بذلك، بإيمان أو غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

٣- اختصاص الله تعالى بعلم الغيب دون خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

٤- لا عهد لأحد عند الله تعالى إلا بالإيمان والعمل الصالح، فمن وفى بعهده وفى الله له؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

٥- إثبات اسم الله «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٦- ردع وزجر هذا القائل الكافر المغتر بنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾،

أي: ليس له ما يدعيه ويقوله.

٧- تهديده ووعيده، بأن الله سيكتب أقواله، ويزيده من العذاب باستدراجه ومضاعفة هذا العذاب له؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩﴾، وهذا وعيد له ولأمثاله من الكفرة المكابرين.

٨- إثبات كتابة أعمال العباد، وإحصائها وحفظها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها.

٩- سلبه كل ما أوتيه من مال وولد، وما جمع في الدنيا وما عمل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾.

١٠- إتيانه يوم القيامة وقدومه على الله تعالى فردًا وحيدًا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، وفي هذا من التهديد والوعيد له ما لا يخفى.

١١- تجهيل المشركين في اتخاذهم آلهة غير الله ليعتزوا بهم ويشفعوا لهم، وزجرهم وردعهم، ونفي وإبطال ما اعتقدوه فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا﴾.

١٢- كفر الآلهة يوم القيامة بعبادة الذين عبدوهم وأشركوا بهم مع الله، ومضادتهم لهم، وعداوتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

١٣- قضاء الله تعالى كونًا بتسليط الشياطين على الكافرين تؤزهم إلى الكفر والمعاصي أزًّا، وتغويهم بذلك إغواءً؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣﴾.

١٤- نهي الله لنبيه ﷺ عن استعجال عذاب الكفرة والمكذبين وإهلاكهم؛ لأنه عز وجل جعل لهم وقتًا معدودًا، ولهلاكهم أجلًا محدودًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾.

١٥- تكريم المتقين يوم القيامة بجمعهم وحشرهم إلى الرحمن وفودًا مكرمين على النجائب إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾.

١٦- إذلال المجرمين وإهانتهم بسوقهم بشدة وعنف إلى جهنم مشاة عطاشًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾.

١٧- نفي الشفاعة عن المجرمين، فلا أحد يشفع لهم، ولو شفع فيهم شافع لم

يُشفَّع؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

١٨- أنه لا يملك الشفاعة ولا ينالها إلا من اتخذ عند الله عهدًا بشهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾.

١٩- الترغيب بتقوى الله، والترهيب من الكفر والإجرام.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾.

قرر عز وجل في هذه السورة العظيمة عبودية عيسى عليه السلام لله، وذكر خلقه من مريم بلا أب، وشرع في هذه الآيات في الإنكار على من زعم أن له عز وجل ولدًا؛ كما قال النصارى واليهود والمشركون.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال اليهود والنصارى والمشركون، ومن قبلهم من الكفار، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا:

﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، أي: جعل الله له ولدًا، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو قريش: الملائكة بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾ [النجم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ [النجم: ٢١].

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد جئتم في قولكم هذا ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾، أي: أمرًا منكرًا فظيعًا، وكفرًا عظيمًا، والإدّ: الداهية والأمر العظيم.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾، قرأ نافع والكسائي بالياء على التذكير: «يكاد»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَكَادُ﴾، وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير والكسائي وحفص بالتاء وفتح الطاء مشددة: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾، وقرأ الباقون بالنون وكسر الطاء مخففة: «يَنْفَطِرْنَ».

أي: تقارب السموات يتشققن ﴿مِنۡهُ﴾، «من» للتعليل، والضمير يعود إلى: ﴿شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، أو إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، أي: تكاد السموات يتشققن لأجله فرقًا وغضبًا لله تعالى، وتعظيمًا له.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾، أي: وتتصدع الأرض وتتفطر.

﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ﴾، أي: تسقط سقوطًا شديدًا وتندك ﴿هَدًّا﴾، أي: هدًا وهدمًا.

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾، «أن» والفعل «دعوا» في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، أي: لأجل أن نسبوا للرحمن ولدًا، وفيه تأكيد لقوله: ﴿مِنۡهُ﴾..

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ندًا، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم**»(١).

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «**إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله**»(٢).

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، أي: ما يليق به ولا يصلح له، ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ«ينبغي».

أي: وما ينبغي له اتخاذ ولد؛ لكمال عظمته، وتمام غناه، وعدم حاجته إلى الولد؛ ولأن الولد من جنس والده، والله عز وجل لا مثيل له ولا شبيه، ولا كفء له من خلقه تعالى وتقدس.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾، «إن» نافية

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٦٣٧.

بمعنى: «ما»، و«من» موصولة، و«إلا» أداة حصر، و ﴿عَبْدًا﴾ حال، أي: ما كل الذي في السموات والأرض إلا آتي الرحمن، ﴿عَبْدًا﴾ عبودية عامة، أي: ذليلًا خاضعًا منقادًا له عز وجل، من الملائكة والإنس والجن، وغيرهم.

فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه، وعظمة سلطانه وملكه، وكل الخلق عبيد له؟!

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ﴾، الضمير يعود إلى «من» باعتبار معناها، ﴿عَدًّا﴾ مفعول مطلق منصوب.

أي: والله لقد أحصى سبحانه الخلائق كلهم إنسهم وجنهم، ذكرهم وأنثاهم، كبيرهم وصغيرهم.

أي: وعدَّهم واحدًا واحدًا، وعلم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾، «فردًا» حال، أي: وحده فريدًا، بلا مال، ولا ولد، ولا أنصار، لا ملجأ لأحد منهم إلا إلى الواحد القهار.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، أي: سيجعل لهم عز وجل مودة ومحبة، يحبهم سبحانه، ويغرس لهم مودة ومحبة في قلوب خلقه في السماء والأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»

الحديث(١).

وفي لفظ: «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحبه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾»(٢).

عن قتادة، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول: «ما من الناس عبد يعمل خيرًا ولا شرًّا إلا كساه الله رداء عمله»(٣).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، الفاء: تعليلية، وجملة ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ تعليل لمقدر، أي: بلغ ما أنزل، فإنما يسرناه بلسانك. و«إنما» كافة ومكفوفة.

والضمير يعود إلى القرآن الكريم، وهو معلوم، وأشهر من أن يذكر، أي: فإنما يسرنا هذا القرآن، أي: سهلناه بلسانك يا محمد، وهو اللسان العربي المبين؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن تبشر به، أي: بهذا القرآن وما فيه من الوعد بالثواب العظيم في جنات النعيم، ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، الذين يتقون الله، ويخشون عذابه، فيمتثلون أمر الله ويجتنبون نهيه.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾، أي: ولتنذر وتحذر وتخوف بهذا القرآن وما فيه من الوعيد والزجر والتهديد.

﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾، أي: قومًا ألداء، شديدي الخصومة بالباطل، شديدي الظلم والكفر والعتو عن قبول الحق، كصناديد كفار قريش ونحوهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، المنة من الله تعالى ٦٠٤٠، ومسلم في البر، إذا أحب الله عبدًا أحببه لعباده ٢٦٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة مريم ٥١٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٦٤٤.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، الواو استئنافية، و«كم» خبرية للتكثير، أي: وكثيرًا أهلكنا قبلهم من القرون والأمم ممن كفروا بآيات الله وكذبوا رسله؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم من المكذبين.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، و«من» زائدة، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: هل ترى وتجد من هؤلاء القرون المهلكين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، أي: لا تجد منهم أيَّ أحد، بل أهلكوا جميعًا عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٨].

وهكذا آثار الكفر والذنوب والمعاصي تذر الديار بلاقع، وتهلك الحرث والنسل.

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾، أي: صوتًا، أو صوتًا خفيًّا، و«الركز»: الصوت الخفي.

أي: أنهم لم تبق منهم عين ولا أثر، وإنما بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، والسعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والأحكام:

١- جرأة أهل الضلال من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم من فجرة بني آدم، بنسبة الولد إليه، تعالى الله وتقدس عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾.

٢- أن نسبة الولد إلى الله تعالى منكر فظيع، وكفر عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾.

٣- أن هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض على عظمتها وسعتها وكبرها تكاد تتشقق وتتفطر، والجبال على شدتها وصلابتها تكاد تخر وتنهد؛ لفظاعة هذا القول، فرقًا وغضبًا وتعظيمًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾.

٤- تأكيد خطورة هذه الدعوى وفظاعتها؛ لقوله تعالى: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾.

٦- أنه لا ينبغي لله تعالى، ولا يليق به سبحانه أن يجعل له ولدًا؛ لكمال غناه، وكمال عظمته، وعدم حاجته إلى الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

٧- إثبات عبودية جميع من في السموات والأرض لله تعالى عبودية عامة، وخضوعهم وتذللهم وانقيادهم له من الملائكة والإنس والجن وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾.

٨- إحصاء الله عز وجل لجميع الخلائق وعدهم عدًّا، واحدًا واحدًا، منذ خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا﴾.

٩- إتيان جميع الخلائق إلى الله عز وجل، وقدومهم عليه يوم القيامة فردًا فردًا، ليس مع أحد منهم مال ولا ولد ولا أنصار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾.

١٠- بشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بجعل المودة والمحبة لهم منه عز وجل، وغرسها في قلوب خلقه من أهل السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾.

١١- إثبات صفة المودة والمحبة لله عز وجل، وأنه عز وجل يحب عباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦].

١٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٣- لا بد من كون العمل صالحًا، جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، وهذا هو الأهم؛ ولهذا حذف الموصوف وهو الأعمال، واكتفى بذكر الصفة: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٤- تيسير القرآن وتسهيله بلسانه ﷺ اللسان العربي المبين؛ ليبشر به المتقين، وينذر به الكفرة الألداء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ٩٧﴾.

١٥- نعمة الله تعالى على العباد، بتسير القرآن للذكر باللسان العربي المبين.

١٦- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وفي تقوى الله عز وجل؛ لما رتب على ذلك من جعل المودة لهم والبشرى، والتحذير من الكفر والتمادي في الباطل ورد الحق.

١٧- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانِكَ﴾.

١٨- تحذير المشركين أن يحل بهم من الهلاك ما حل بكثير من المكذبين من القرون والأمم قبلهم، ممن بادوا عن آخرهم فلا يُرى منهم أحد، ولا يُسمع لهم صوت، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

دار ابن الجوزي 8428146

